رحلة أفوقاي الأندلسي

مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب

رحلة أفوقاي الأندلسي - 1611 ـ 1613
أحمد بن قاسم الحجري «أفوقاي»/ مؤلّف [حررها وقدم لها: د. محمد رزوق]
الطبعة الأولى، ٢٠٠٤

دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص. ب: ٤٤٤٨٠
الإمارات العربيّة المتّحدة،
هاتف: ٦٣٢٢٠٧٩، فاكس: ٦٣١٢٨٦٦

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم،
ص.ب: ٥٤٦٠-١١، العنوان البرقي: موكيّالي،
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان، ص.ب: ٩١٥٧، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢، هاتفاكس: ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo

الخطوط وتصميم الغلاف:
منير الشعراني / مصر
الصفّ الضوئي:
القرية الإلكترونيّة / أبو ظبي
التنفيذ الطباعيّ:
سيكو للطباعة والنشر / بيروت، لبنان

ISBN: 9953-36-504-0

رحلة أفوقاي الأندلسي

مُختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب

1611 - 1613

أحمد بن قاسم الحجري "أفوقاي"

حققها وقدّم لها: د. محمد رزوق

يشرف على هذه السلسلة :

نوري الجراح

« . . . أنتم الأندلس فيكم عادة غير محمودة . قلت : ما هي؟ قال : إنكم لا تمشون إلا بعضكم مع بعض ، ولا تعطون بناتكم للنصارى القدماء ، ولا تتزوجون مع النصرانيات القدماء . قلت له لماذا نتزوج النصرانيات القدما وكان بمدينة انتقير (مدينة قريبة من مالقه) رجل من قرابتي عشق بنتاً نصرانية ، ففي اليوم الذي مشوا فيه بالعروسة إلى الكنيسة ليتم النكاح احتاج أن يلبس العروض الزرد المهند من تحت الحوايج ، وأخذ عنده سيفاً لأن قرابتها حلفوا أنهم يقتلونه في الطريق ، وبعد أن تزوجها بسنين لم يدخل إليها أحد من قرابتها ، بل يتمنون موته وموتها ، والنكاح لا يكون ليتخذ به الإنسان أعداء بل أحباباً وقرابة .»

نص الرحلة ص 40

«وبعد أن جلست يوماً قال لي : ماذا تعرف من الألسن ، قلت له : العربية ، ولسان إشبانية ، ولسان أهل برتغال ، وكلام الفرنج نفهمه ولكن ما نعرف نتكلم به . قال لي : فأنا نعرف كلام الفرنج ، ونفهم كلام إشبانية ولا أعرف أتكلم به ، وإلى هذا فأكلمك بالفرنج ، وتكلمني بلسان أهل بلاد الأندلس العجمي ، قلت : نعم ، قال لي : ما السبب الذي ظهر لك حمل سلطان إشبانية على إخراج الأندلس من بلاده ، قلت : اعلم أن الأندلس كانوا مسلمين في خفاء من النصارى ، ولكن تارة يظهر عليهم الإسلام ، ويحكمون فيهم ، ولما تحقق منهم ذلك لم يأمن فيهم ، ولا كان يحمل منهم أحداً إلى الحروب ، وهي التي تفني كثيراً من الناس ، وكان أيضاً يمنعهم من ركوب البحر لئلا يهربوا إلى أهل ملتهم (. . .) وهذا الذي ظهر لي حمله على إخراجهم ، لأنهم بطول الزمن يكثرون . .»

نص الرحلة ص 113

« . . . وبعد أن خرجوا أهل سلطنة بلنسية ، فأمر بالخروج للذين كانوا بالأندلسية وغيرها من البلاد القريبة إليها أن يخرجوا . وبعد أن اكتروا السفن ـ وهم في واد إشبيلية ـ بعث السلطان أمراً عكس الأول ، وقال : إن كل من اكترى سفينة ليمشي لبلاد المسلمين أن يأخذوا لهم كل من كان من أقل من سبع سنين من الأولاد والبنات ، وأخرجوا كل من كان في عشرين سفينة . وأخذوا لأهل الحجر الأحمر نحو ألف من الأولاد . وكل من جاز على طنجة ، وسبتة ، فأخذوا لهم أولادهم مثل الآخرين .» .

نص الرحلة ص 119

استهلال

تَهْدُفُ هذه السِّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية ، من خلال تقديم كلاسيكيَّاتِ أدبِ الرِّحلةِ ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحَّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميَّاتهم وانطباعاتهم ، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه ، قريبةً وبعيدةً ، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة ، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنَّاس في الغرب ، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشَّرقِ ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً ، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم ، ومن منطلق المستأثر بالأشياء ، والمتهيء لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم ، وتُمهِّدُ الرأي العام ، تالياً ، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق . ولعل حملة نابليون على مصر ، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية ، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك . فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي

لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري .

على أن الظَّاهرة الغربيـة في قراءة الآخر وتأويله ، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربيَّة لمجتمعاتها جديدة عليها ، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري ، لتجد نفسها تملك ، بدورها ، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال نحو الآخر ، بحثاً واستكشافاً ، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته ، ونمط عيشه وأوضاعه ، ضاربة بذلك الأمثال للناسِ ، ولينبعث في المجتمعات العربية ، وللمرة الأولى ، صراع فكري حاد تُسْتَقْطَبُ إليه القوى الحيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمّسٍ لأفكاره وصياغاته ، وبين معادٍ للغرب ، رافض له ، ومستعدٍّ لمقاتلته .

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكّن من تنميط الشرق والشرقيين ، عَبْرَ رسمِ صورٍ دنيا لهم ، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والأيروسيِّ والعجائبيِّ ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم ، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة ، ركّز ، أساساً ، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة ، وتطوّر العمران ، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق . لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات ، مدفوعين ، غالباً ، بشغف البحث عن الجديد ، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط ، من باب الفضول المعرفي ، وإنما ، أساساً ، من بابِ طَلَبِ العلم ، واستلهام التجارب ، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث ، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها . هنا ، على هذا المنقلب ، نجد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته ، وهي نظرة المتطلِّع إلى المدنيَّة وحداثتها

من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة ، المتحسِّر على ماضيه التليد ، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة ، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً ، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سرديّة شائقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى ، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها .

أخيراً ، لابد من الإشارة إلى أن هذه السِّلسة التي قد تبلغُ المائة كتابٍ من شأنها أن تؤسس ، وللمرة الأولى ، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قارّاته الخمس ، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

محمد أحمد السويدي

المقدمة[1]

يعد كتاب ناصر الدين أهم مصدر تاريخي أندلسي كتب بعد صدور قرار الأندلسيين المتبقين بالأندلس ، فصاحبه يتكلم وهو بمنأى عن محاكم التفتيش ، يجادل المسيحيين واليهود ، ويستعرض من خلال ذلك ما فعله الإسبان بالمورسكيين ، وظروف انتقال هؤلاء إلى شمال إفريقيا[1] .

وقد وصل المؤلف : أحمد بن قاسم الحجري (المدعو أفوقاي وBejarano) إلى المغرب أواخر عهد المنصور الذهبي واشتغل لديه بالترجمة ، (1599/ 1007) كما قام بنفس المهمة لدى السلطان زيدان ، وابنيه عبد الملك والوليد .

وأهم ما يمكن تسجيله من حياته :

- سفارته عن السلطان زيدان إلى كل من فرنسا وهولاندا (1613/ 1022 ـ 1611/ 1020) ، وهي السفارة التي فصلها في كتابه ناصر الدين .
- ذهابه إلى الحج عام 1046 هـ/ 1636 م .
- توقفه بمصر (1046 هـ/ 1637 م) .
- رجوعه إلى تونس (1047 هـ) ، وتتمة ترجمة كتاب العز والمنافع (1048 هـ/ 1638 م) ، ونسخه كتاب ناصر الدين بخطه في تونس عام 1051هـ/

(1)انظر في هذا الشأن : محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 ـ 17 .

1641 ، وتنقطع بعد ذلك أخباره فلا ندري سنة وفاته ، ولا المكان الذي أقبر فيه .

أما أعماله المعروفة فسنستعرضها فيما يأتي :

* رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب[2] : ألفه بطلب من الشيخ علي الأجهوري ليثبت فيه مناظراته للمسيحيين واليهود .
* ترجمة كتاب في المدفعية لإبراهيم غانم ، وقد سماه : العز والرفعة والمنافع ، للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع[3] .
* ترجمة الرسالة الزكوطية للإسرائيلي إبراهيم السلمنقي[4] .

ونصل الآن إلى العمل الذي نحن بصدده ، وهو كتاب :

* ناصر الدين على القوم الكافرين :

نشير أولاً إلى أن هذا الكتاب وضعه الشهاب الحجري كمختصر لكتابه السابق رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب بناء على طلب الشيخ علي الأجهوري بمصر سنة 1047 هـ/ 1637 م ، لكننا لا نملك حالياً هذه النسخة ، وتوجد بين أيدينا نسخة كان المؤلف قد أتمها بتونس سنة 1051 هـ/ 1641 م ، وهي بخط المؤلف ، وتوجد بدار الكتب بالقاهرة رقم 1634 ت ، وهي بخط مغربي .

وهناك قطعة أخرى من كتاب ناصر الدين ، توجد بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم Arabe 7024 [5] ، خالية من اسم الناسخ وتاريخ النسخ ومكانه . غير أن هناك

---

(2) يعد هذا الكتاب في الوقت الحالي مفقوداً ، وقد وردت فقرات منه عند م . بن العياشي ، زهر ، ص . 105 ـ 107 . وعنه نقل مؤرخون لاحقون كالكانوني في الجواهر ، 1 : 87 ـ 93 ، وع . ابن إبراهيم ، في الأعلام ، 2 : 273 ـ 276 .

(3) مخطوطاته متعددة ، أحسنها مخطوط خ . ع . بالرباط رقم 87 ج ، وتتميز عن غيرها بكونها تحتوي على خاتمة أورد فيها المعرب ترجمته .

(4) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط ، عدد 1433 ، ضمن مجموع .

(5) كانت في الأصل ملكاً للمستشرق الفرنسي جورج كولان Georges Colin ، قبل أن تنتقل إلى المكتبة الوطنية بباريس .

إشارة وردت في الصفحة 59 عند الحديث عن العالم المصري الشيخ علي الأجهوري : «الشيخ الفاضل علي الأجهوري رحمه الله ورضي عنه» ، مما يدل على أنها كتبت بعد وفاة العالم المصري المذكور (1066 هـ/ 1655 م) ، أي بعد نسخة القاهرة .

وتتكون هذه القطعة من 73 صفحة (من الباب العاشر[6] إلى الباب الثالث عشر) ، كما أنها خالية من الملاحق التي أوردها الشهاب الحجري في آخر الكتاب .

ونثير الانتباه إلى ملاحظات أخرى حول هذه النسخة :

- النقص الكبير داخل الأبواب الموجودة ، وقد أثبتنا ذلك في محله من التحقيق .
- هناك زيادات في هذه النسخة أشرنا إليها أيضاً .
- هناك اختلافات يسيرة في بعض المواضع .

وبصفة عامة فإننا لم نستفد كثيراً من هذه القطعة .

وأخيراً نشير إلى أننا رمزنا إلى هذه القطعة في التحقيق بحرف «ب» .

منهجنا في التحقيق:

عندما نذكر بأن المخطوط كتب من طرف موريسكي فإننا يجب أن نضع في اعتبارنا تكوين هذا الأخير ، فقد تعلم العربية سراً ببلد كان يتابع فيه من يوجد لديه أية وثيقة عربية ، بل أي تصرف يُمكن أن يفهم منه أنه عربي . وتبعاً لذلك فإننا نجد المخطوط مليئاً بالأخطاء اللغوية ، والألفاظ العامية[7] ، والصيغ المترجمة . هذا إلى الدرجة التي نجد فيها بعض الكلمات التي يخضعها للنظام الصوتي الإسباني فكلمة (حملة) مثلاً تحولت إلى (هملى) ، و(ماهية) إلى (مائية) .

غير أننا نثير الانتباه إلى أن هذا النهج لا يقتصر على المخطوط الذي نحن بصدده ،

(6) في الحقيقة ليس هناك إلا جزء منه فقط .

(7) نذكر على سبيل المثال استعمال النون للمتكلم المفرد ، نحو (نمشي) بالنسبة (لأمشي) .

بل يوجـد في أغلب المخطوطات الموريسكيـة الإلخـمـيـادية[8] ، وقـد حظيت هذه المخطوطات بدراسات عديدة[9] . وانطلاقاً من ذلك فإننا لم نشر إلى الأخطاء اللغوية[10] ، وعوضاً عن ذلك أشرنا إلى بعض الألفاظ التي قد تخفى عن ذهن القارئ ، وهي إما ألفاظ عامية ، أو مترجمة ، أو ألفاظ أخضعها المؤلف للنظام الصوتي الإسباني . وعلى العموم فإن المخطوط يعطي صورة حية عن تطور اللغة العربية لدى الموريسكيين بعد تجربتهم المريرة مع الإسبان .

د . محمد رزّوق

أستاذ بكلية الآداب

في جامعة بنمسيك - الدار البيضاء

---

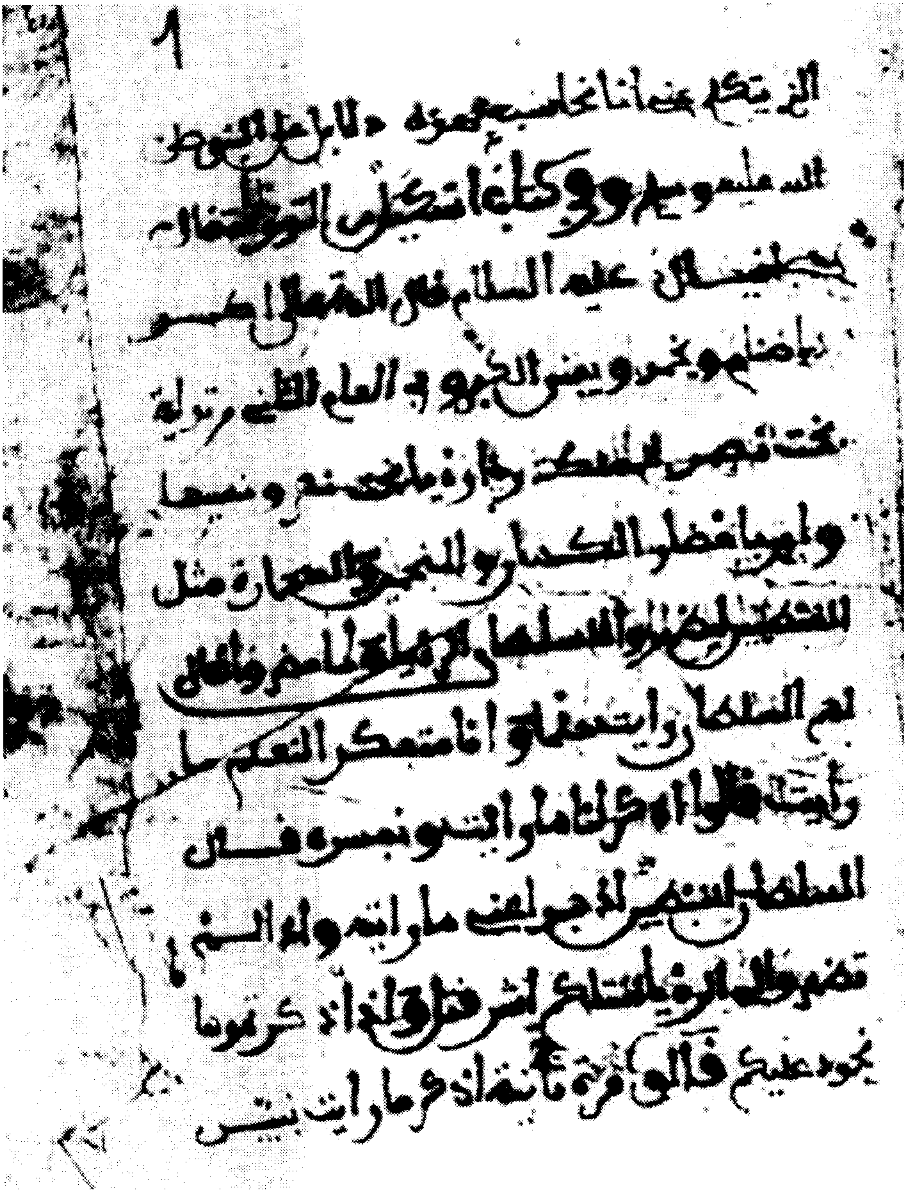
(8) انظر في هذا الصدد : الحسين بوزينب :

- تقييم للكتابات الأعجمية الموريسكية ، مقال بمجلة دار النيابة ، السنة 2 ، العدد السادس ، ربيع 1985 ، طنجة ، ص . 64 ـ 71 .
- اللغة الموريسكية المسماة بالعجمية ، ضمن أعمال البحث اللساني والسميائي ، الدار البيضاء ، 1981 ، ص . 107 ـ 119 .
- القيمة الحقيقية للرموز الخطية في الأدب الأعجمي ، ضمن أعمال الآداب الإلخاميات ـ المورسكي ، تونس ، 1986 ، ص . 29 ـ 37 .
- الدين واللغة من خلال المكتوبات العجمية المورسكية ، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الثاني للدراسات المورسكية ، تونس ، 1983 ، 13 صفحة .

(9) انظر :

- Actes du II symposium International du C.I.E.M. sur Religion, Identité et sources documentaires sur les morisques Andalous, 2 tomes, Tunis, 1984.
- Actes de la Première table ronde du C.I.E.M. sur la littérature Aljamiodo-morisque, Tunis, 1986.
- Les morisques et leur temps, table ronde international, Paris, 1983.

(10) لأن هذه الأخطاء ليست أخطاء عابرة ، فهي تدخل في إطار نهجه العام في الكتابة ، ومن المعلوم أن هذا النهج هو وليد مؤثرات عدة ليصلنا في الأخير على الشكل الذي نراه به اليوم .



الصفحة الأولى من مخطوط باريس

ولما فرغت مما ذكر من الكتاب وقال

لا يرث بكلام النبي انه اشتغل ما سمع وبحث

في الابانة [illegible] من اصحابه وقال لي

الكتاب [illegible] الحكاية التي ذكر لان طامنا

هذا يغني في كل بلد كم العجم وانشرح [illegible]

وخاصة حيث ذكرت الحكاية انتهى

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا

محمد خاتم النبيين وامام المرسلين وسيد الاولين و

الاخرين والحمد لله رب العالمين اللهم اغفر لكاتبه ولمن

كتبه اليه ولوالدينا ولجميع المسلمين واغفر لنا يا مولانا

بما فعلنا وما اسررنا وما اعلنا وما انت اعلم به

منا انك ارحم الراحمين يا رب العالمين

الصفحة الأخيرة من مخطوط باريس

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وسلم تسليما

كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين
وهو السيف الأشهر على كل من كفر

تأليف
الشيخ الفقير
أحمد بن قاسم بن أحمد ابن الفقيه
قاسم ابن الشيخ الحجري الأندلسي

ديباجة المؤلف

بسم الله الرحمان الرحيم وبه نستعين ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما .

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله ورضي الله تعالى عن ءاله وأصحابه وعن التابعين له في دينه .

وبعد ، فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى ـ الراجي عفوه وغفرانه ورحمته ، بشفاعة نبيه المذكور في كتبه ، وأفضلها كلامه العزيز في قرءانه ـ : أحمد بن قاسم بن أحمد ابن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي : من نعم الله تعالى أن جعلني مسلماً في بلاد الكفار منذ أعرف نفسي ، ببركة الوالدين ـ رحمهما الله تعالى ـ ...[11] إرشادهما ، وقد جعل الله في قلبي محبة للخروج [من بلا][12]د الأندلس مهاجرا إلى الله تعالى ورسوله ، والقدوم [لـ][13]ـبلاد المسلمين ، وقضى الله تعالى الغرض والمراد ، وبلغنا إلى

(11) بياض بالأصل .

(12) بياض بالأصل ، وما بين المعقوفتين إضافة من المحقق .

(13) بياض بالأصل ، وما بين المعقوفتين إضافة من المحقق .

مدينة مراكش بالمغرب . وبعد ذلك باثنتي عشرة سنة فرج الله تعالى على الأندلس المسلمين الذين كانوا فيها تحت قهر النصا[رى وظله] هم فأمر[14] عليهم سلطان البلاد المسمى بفلب الثالث من اسمه بالخروج جميعاً من بلاده . واتفق لكثير من المسلمين الأندلس عند خروجهم أن نهبهم في البحر النصارى وأكثرهم الفرنج البحرية الذين اكتروهم ودفعوا لهم أجرتهم على أن يبلغوهم في عافية وأمان إلى بلاد المسلمين، وخانوهم كل واحد من الرياس في سفينته . وبعد أخذ كل ما كان لهم أخرجوهم في بعض الجزر من بلاد المسلمين، وأربع من تلك السفن المنهوبة خرجت بالمغرب الأقصى، فأحسن المسلمون البربر بالأندلس، وجاءوا إلى مدينة مراكش، وهي دار سلاطين المغرب، وطلبوا من السلطان مولاي زيدان ابن السلطان مولاي أحمد ابن السلطان مولاي محمد الشيخ الشريف الحسني أن يأذن لهم في إرسال بعض من أصحابهم مع رجل [من] [15] الأندلس الذين كانوا قبلهم بتلك المدينة، واتفق نظرهم أن نمشي بأصحابهم، وأعطانا للسلطان كتابه وذهبنا إلى أَسْفِ : هي مدينة على البحر المحيط ، وفيها ركبنا وبلغنا إلى بلاد الفرنج، ووقع لي كثير مع علمائهم من القسيسين والرهبان والقضاة في شأن الأديان، واحتججت أقرا الإنجيل الذي بأيديهم الآن، ومنه ومن غيره من كتبهم وجدت ما نرد عليهم، ونبطل حججهم، ونصرني الله عليهم مراراً عديدة . وذكرت بعد ذلك حين وليت إلى مراكش شيئاً من الحكايات والمناظرات والأجوبة مني إليهم لبعض الإخوان . وطلب مني غير واحد من علماء المسلمين أن أعمل تأليفاً بذلك، ولم يتفق العمل، إلى أن أمرني شيخنا وبركتنا بمصر المحروسة بالله وهو العلامة الشهير علمه وثناؤه في الأقطار والبلدان : الشيخ علي بن محمد المدعو زين ابن العلامة الشيخ عبد الرحمن بن الأجهوري المالكي . . . [16] بأكثر مما طلبوا، وجعلت التأليف رحلة سميتها برحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب،

(14) بياض بالأصل، وما بين المعقوفتين إضافة من المحقق .

(15) بياض في الأصل، والإضافة من المحقق .

(16) بياض في الأصل، وانظر ترجمة الشيخ عند : م . الإفراني، صفوة، 126 ؛ وم . القادري، نشر، 2 : 80 ـ 81، وم . المحبي، خلاصة الأثر، 3 : 157 .

وذكرت فيها أولاً بلاد الأندلس في أي موضع هي من معمور الدنيا والأقطار المجاورة إليها ، والعرض والطول في صقعها وعرض ارتفاع القطب الشمالي عليها ، ودرج طولها من الدنيا الذي هو ابتداؤه من الجزر الخالدات المسماة الآن بقنارية . ثم ذكرت من سكنها من الأجناس القديمة قبل دخول المسلمين إليها وفي أي سنة كان افتتاحها ، وما اتفق في أخذها . ثم ذكرت بعض الملوك الصالحين المجاهدين ، وأيضاً بعض رسائل لسان الدين بن الخطيب . ثم ذكرت الزمن الذي كانت بأيدي المسلمين إلى أن احتوت النصارى على جميعها . ثم ذكرت كيف كان حال المسلمين بين النصارى بعد أن أدخلوهم جميعاً كرهاً منهم في دينهم ، وكانوا يعبدون دينين : دين النصارى جهراً ، ودين المسلمين في خفاء من الناس . وإذا ظهر على أحد شيء من عمل المسلمين يحكمون فيهم الكفار الحكم القوي : يحرقون بعضهم ، كما شاهدت حالهم أكثر من عشرين سنة قبل خروجي منها . وأيضاً ذكرت ما اتفق لي بمدينة غرناطة مع القسيس الكبير[17] في قراءة الرق المكتوب بالعربية والعجمية ، وفيها ذكر يوحنا الذي كتب ربع الإنجيل فيما يكون ويحدث في الدنيا إلى أن تفنى ، وأيضاً شيئاً مما كان مكتوباً في الكتب التي وجدت تحت الأرض في تاريخ ألف وثلاث سنين من الهجرة أو قريباً منها مكتوبة في ورق الانك[18] بالعربية من عهد سيدنا عيسى عليه السلام أو قريباً منه . وما اتفق لنا في الخروج من بين النصارى ، وكيف لطف الله بنا وفكنا منهم سالمين بفضله . وذكرنا أيضاً الأسباب التي قال سلطان النصارى أنها حملته على إخراج المسلمين من بلاده ، وأيضاً ما رأيت في أسفاري ، ورحلتي المشرقية والمغربية والجوفية من . . .[19] ، وما وقع من الكلام والمناظرات مع النصارى . . .[20] والقسيسين والرهبان وأكابرهم في أمور [الدين بـ] بلادهم الفرنجة

---

(17) يقصد دون بدرو دي كاسترو Don Pedro de Castro أسقف غرناطة من 1589 إلى 1610 . انظر :

D. Cabanelas, El Morisco granadino, pp. 13-14.

(18) الانك : الرصاص . . .

(19) بياض في الأصل .

(20) بياض في الأص .

وبلاد فلنضس[21] ، وأيضاً مع اليهود [و] [22] قرأت الرحلة المذكورة على الشيخ الفاضل المذكور [الذي أمـ]رني[23] بمصر بعمل الكتاب . ولما رآني عازماً على الرجوع [لبلا]د[24] المغرب التي جئنا منها لأداء الفرض ، وزيارة [قبر أفـ]ضل من ظهر على وجه الأرض ، والوقت ضايق ، كتبنا له منها نسخة ، كما كان في غرضي . أمرني أن أختصر منها نبذة لطيفة ، ونذكر ما وقع لي من الكلام في الدين مع النصارى .

وها أنا أشرع بعون الله أكتب في هذه الورقات ما وقع لي من المناظرات وكل مسألة ألهمني الله تعالى بالجواب عليها في الحين على البديهة . وأذكر نصوصها من الكتب ببرهانها . وإن كان لي وقت قبل الرحيل من مصر نكتب من الرحلة أيضاً ما وقع لي مع علماء اليهود بالبلاد المذكورة وبسببهم قرأت التوارية التي هي أربع وعشرون كتاباً : الخمسة الأوائل في أمور دينهم ، والباقي من الكتب في التواريخ ، وجدتها مترجمة من العبراني إلى العجمي الذي نعرفه ، وزادني الله تعالى يقيناً ومحبة في دين الإسلام ، وذلك مما أنعم الله تعالى به علي ، نسأله سبحانه ـ بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ـ أن يلطف بي في الدارين وأن يختم لي بالعبادة ، ولمن يقرأ في هذا الكتاب أو يسمعه ، وأن يخص من فضله من أمرني بكتبه بما يشاء من فضله من خيره وإحسانه ، وأن ينصر جميع المسلمين على القوم الكافرين . وقد سميت الكتاب بناصر الدين على القوم الكافرين ، وهو السيف الأشهر ، على كل من كفر ، وجعلته ثلاثة عشر باباً :

الباب الأول : في ذكر ما وقع لي بمدينة غرناطة مع القسيس الكبير في شأن الرق الذي وجد في الصومعة القديمة ، وشيء من الكتب التي وجدت في خندق الجنة بقرب مدينة غرناطة مكتوبة بالعربية في ورق من رصاص من الزمن القريب بعد سيدنا عيسى عليه السلام .

---

(21) Flandes (هولندا) .

(22) بياض في الأصل ، والإضافة من المحقق .

(23) بياض في الأصل ، والإضافة من المحقق .

(24) بياض في الأصل ، والإضافة من المحقق .

الباب الثاني : في قدومنا إلى بلاد المسلمين ، وما اتفق لنا عند خروجنا من بين النصارى سالمين منهم بعد أن كنا في أيديهم متعرضين للهلاك بلطف من الله تعالى .

الباب الثالث : في بلوغنا إلى مدينة مراكش وما كان السبب إلى أن مشيت إلى بلاد الفرنج بعد أن جئت ببلاد المسلمين باثنتي عشرة سنة .

الباب الرابع : في ركوبنا البحر المحيط وبلوغنا إلى فرنجة ، إلى مدينة مرس البركة وتسمى عندهم بهبر د غرسي[25] ، ثم إلى مدينة روان[26] وما اتفق لنا فيها .

الباب الخامس : قدومنا إلى مدينة بريش[27] ، وهي دار سلطنة الفرنج ، وذكر حالها وعظمها ، وما اتفق لي مع بعض النصارى من المناظرات .

الباب السادس : في قدومنا بكتب السلطان إلى قاضي الأندلس وقاضي القضاة في مدينة برضيوش[28] ، وذكر ما زاد كل واحد من البابا في دين النصارى ، وذكر الباب جوان الذي كان امرأة ففضحه الله بحضرة الناس[29] .

الباب السابع : في رجوعنا إلى بريش وما اتفق لنا من المناظرات مع علماء النصارى في شأن الدين .

الباب الثامن : في قدومنا إلى أولونة[30] وما اتفق لنا فيها .

الباب التاسع : في قدومنا إلى مدينة برضيوش وما وقع لنا فيها من المناظرات مع النصارى القسيسين والرهبان والقضاة ، وقضاء شيء من الغرض الذي مشيت بسببه .

---

(25) Havre de grâce.

(26) Rouen.

(27) Paris.

(28) Bordeaux.

(29) يقصد البابا Juan VIII.

أما المرأة المقصودة فهي Alias Jilberta.

وانظر تفاصيل عن هذه النقطة عند : L. Cardaillac, Morisques et Chrétiens..., pp. 189-193.

(30) Olonne.

الباب العاشر : في مناظرات اليهود بفرنجة وفلنضس .

الباب الحادي عشر : في ذكر قدومنا إلى فلنضس وما اتفق لنا فيها .

الباب الثاني عشر : فيما اتفق لنا في مصر مع راهب عالم كان بالغاً في فنون العلم من علومهم .

البـاب الثـالث عـشـر : في ذكـر مـا أنعم الله تعـالى به علي من فـضله في بلاد الأندلس وغيرها .

مسار الرحلة

* وصول أفوقاي إلى المغرب (أي هروبه من البريجة إلى أزمور) ، كان سنة 1007 هـ - 1599م .
* سـفـارته عن السلطان زيدان تمت بين 1020هـ - 1611م و 1022 هـ - 1613 م .
* لا يعين الرحالة مسار عودته لكنه يذكر في ثنايا الرحلة أحداثا وقعت له بعد رجوعه بمصر و تونس :
* توقف بمصر في طريقه إلى الحج سنة 1046 هـ - 1637 م .
* عودته لتونس سنة 1051 هـ - 1641 ، وفي هذه السنة كتب مختصر الرحلة موضوع هذا الكتاب .

محطات الرحلة بالتتابع :

- غرناطة .
- إشبيلية .
- شنت مريا ، شنتمرية ، (Santa Maria) .
- البريجة ، (مدينة الجديدة الآن) .

- أزمور .
- مراكش .
- آسفي .
- مرسى هبردي غرسي ، مرسى البركة .

استغرقت الرحلة البحرية بين الميناءين ، آسفي . ومرسى هبردي غرسي ، مرسى البركة ثلاثين يوما

- بريش (باريس) .
- برضيوش (بوردو) .
- بريش (باريس) .
- شانديُنْشي ، (Saint Denis) .
- أولونه .
- برضيوش (بوردو) .
- طلوشة ، (Toulouse) .
- برضيوش (بوردو) .
- بريش (باريس) .
- روان .
- مرسى هبردي غرسي ، مرسى البركة .
- فلنضس .

وضمنها :

- أمستردام .
- ليدا . (Leyde) .
- الهاية ، لاهاي .

نص الرحلة

الباب الأول

في ذكر ما وقع لي بمدينة غرناطة مع القسيس الكبير في شأن قراءة الرق الذي وجد في الصومعة، وأيضاً بعض ما صح عندي من الكتب المكتوبة بالعربية في ورق الرصاص

وهذا الباب هو في الرحلة في الباب الثاني عشر منها .

اعلم - رحمك الله - أن في عام ست تسعين وتسع مائة[31] من الهجرة ومن حساب النصارى عام ثمان وثمانين وخمس مائة وألف أمر القسيس الكبير[32] بمدينة غرناطة بهدم صومعة قديمة كانت في الجامع الكبير ،

---

(31) بالضبط في 19 ربيع الثاني من سنة 996 هـ/ 18 مارس 1588 .

انظر : D. Cabanelas, El morisco granadino, p. 177.

(32) يقصد أسقف غرناطة Jean Menéndez de Salvatierra.

وعند وفاته (سنة 1588) سيخلفه الأسقف Don Pedro Castro نوفمبر 1589) لمتابعة القضية .

وكانت تسمى من قديم الزمان تُرْبّأنه[33] قبل الإسلام، وذلك بعد أن بنوا صومعة قريباً منها، عالية جداً. ولما أن هدموا القديمة وجدوا في حَيْطِهَا صندوقاً من حجر وفي داخله صندوقاً من رصاص، وفيه وجدوا رقاً كبيراً مكتوباً بالعربية والعجمية المتصرفة في بلاد الأندلس، ونصف خمار الصالحة مريم - عليها السلام - أم سيدنا عيسى عليه السلام، وعظما من جسد أشْطِبَان[34] الصالح عندهم. فأما ما كان في الرق بالأعجمية فقرئ وما كان بالعربية فنادوا الأكَيْحَل الأندلسي، كان ترجماناً بالإجازة، والشيخ الصالح الجَبِّسْ، وغيرهما من الأندلس الكبار السن الذين يعرفون القراءة العربية، وأمرهم القسيس بترجمة ما في الرق من العربي كل واحد وحده، وتارة يجمع بينهم، ولم يحيطوا بفهمه حقيقة - والقسيس الكبير تعلم يقرأ بالعربية -، وبعد أن وجدوا الرق بسبع سنين جاء رجل من مدينة جيان ببعض كتب بعثها له بعض الأسارى من بلاد المغرب فيها ذكر كنوز في بعض المواضع، فكان ذلك الرجل بقرب غرناطة على بعد ميل منها أو نحو ذلك، وكان الموضع يسمى بخندق الجنة، فحرك حجراً ووجد تحته غاراً وفي ركن الغار رماداً ورصاصاً مكتوباً باللِّطِين يقول فيه: هذا الموضع أخرق فيه القسيس سِسِلْيُوه[35]. وهذا سسليوه كان الذي كتب الرق، وذلك أن النصارى كان عندهم في كتبهم خبر بموت سِسِلْيُوه وأنه كان من تلميذ سيدنا عيسى عليه السلام وأنه قتل على دينه، وأنه من الشهداء عندهم، ولا علموا بموضعه. ومن عادتهم أن كل من يقتل على دينه من القسيسين يثبتون اسمه مع الصالحين، ويذكرون موضعه الذي قتل فيه لتزوره الناس. فأمر القسيس الكبير بالدخول في الغار وينظرون فيه ويفتشون لعلهم يجدون كتبه المذكورة في رومة في دار دينهم، وموضع الباب الذي هو كبير القسيسين والرهبان وإمام جميعهم. والخبر في

---

(33) Torre turpiana.

(34) يقصد Stefano.

(35) San Cecilio.

انظر: Clecia Sarnelli Cerqua, Al-Hagari in Andalusia in Studi Maghrebini III, Napoli, 1968, 3, p. 26.

ذلك أنه عندهم في كتبهم أن سسليوه القسيس الكبير . . .[36] الأسكفة كان عنده أسرار وأمور ربانية من زمن سيدنا عيسى عليه السلام أو قريباً منه ، وأنه أودعها مكتوبة في جبل يسمى بابلطان[37] ، وبحث واحد من الباب عن هذا الجبل وقيل له أنه بإيطاليا فأمر أن يحفر كله ويغربل ترابه في طلب الكتب ولم يجدوا شيئاً . سمعت هذا الكلام بمدينة غرناطة من بعض الناس ولا تحققت حتى سألت عن ذلك القسيس بعد أن عرفته ، وذكر لي الحكاية كما سمعتها من غيره . ولما فتشوا في الغار وجدوا بعض الحجار معقودة فكسروها ووجدوا في قلب كل حجر كتاباً وورقة رصاصا (كذا) وكل ورقة قدر كف اليد أو أقل قليلاً ، وهي مكتوبة بالعربية فأمر القسيس الأندلس المذكورين ، وهم : الاكيحل ، والفقيه الجبس ـ رحمهما الله ـ وغيرهما ، بترجمة الكتب فوجد في أحدها ذكر الرق الذي كان بأيديهم قبل ذلك العهد بنحو السبع سنين فاشتد حرصهم على فهم ما في الرق . وواحد من القسيسين المقربين للقسيس الكبير كان يتعلم يقرأ العربية ، وبسبب ذلك كان يلزم الحكيم محمد ابن أبي العاصي حفيد الشيخ الصالح الجبس المذكور أنه يترجم [الكتب] [38] ومن أجل جده كان يقرأ بحضرة النصارى بالعربية . والكتاب الذي كان يقرأ للقسيس يسمى بنزهة المشتاق في اختراع الآفاق[39] ، وكنت أحضر معهما ، ولم نظهر للنصراني أنني نقرأ بالعربية لما كانوا يحكمون فيمن ظهر عليه ذلك ، وبينما كان يقرأ في الكتاب كانا يتوقفان في بعض الكلمات وفهم معناها ، فكنت أقول لهما لعله كذا فيجداه كذلك ، ونظرني القسيس وقال : أنت تعرف تقرأ بالعربية ، فلا تخف ، لأن القسيس الأعظم يطلب على من يعرف شيئاً من القراءة العربية لعله يبين شيئاً مما ظهر مكتوباً بذلك اللسان وحملني إلى داره ، وكان عنده كتب في كل فان ولسان ، وأخرج لي كتاباً

---

(36) بياض في الأصل .

(37) انظر حول هذا الجبل : .C.S. Cerqua, op. cit., pp. 23-24

(38) بياض بالأصل ، وما بين المعقوفتين إضافة من المحقق .

(39) من المعلوم أن هذا الكتاب للشريف الإدريسي وقد حرف الحجري كلمة (اختراق) إلى (اختراع) انظر عن هذا الكتاب : م . المنوني ، المصادر العربية لتاريخ المغرب ، 1 : 44 .

بالعربية فقرأتها وترجمت له بعض الكلمات التي كان يتوقف فيها، ثم لقاني يوماً آخر وقال لي: القسيس الكبير أمر أن تمشي معي إلى حضرته، قلت في نفسي: كيف الخلاص والنصارى تقتل وتحرق كل من يجدون عنده كتاباً عربياً و يعرفون أنه يقرأ بالعربية. وأما ما ذكر من المترجمين الأندلس فكانوا شيوخاً، ويستعذرون بأنهم تعلموا القراءة العربية في صغرهم بقرب عهد الإسلام وأما الحكيم أبو العاصي كان يقرأ لأجل جده لأنه مترجم كما قلنا، وماذا أقول أنا إذا سألني عن من علمني؟ وفي الطريق كان يقول لي القسيس: قل للسيد العظيم: إن المترجمين ما عرفوا شيئاً. قلت في نفسي: عكس هذا أقول، لأن أصحاب الدعاوى يفتضحون. ولما أن دخلنا إلى حضرته فأقبل علينا وقال لي: ذكر لي القسيس مَنْضُنَض،[40] أنك تحسن القراءة العربية فقلت: ليس أنا من البالغين فيها. قال: أين تعلمت؟ قلت: أعلم أيُّهَا السيد أنني أندلسي من الحجر الأحمر، وكلامنا فيه فهو بالعربية، ثم تعلمت نقرا بالعجمية، ثم مشيت إلى مذريل[41] بلد السلطان فوجدت فيها رجلاً طبيباً أندلسياً من بلاد بلنسيه اسمه فلان وعلمني نقرا بالعربية، وجاني سهلاً لكوني عربياً في الأصل. ثم قال لي: معلمك الطبيب؟ قلت: مات ـ رحمه الله ـ قبل هذا العهد بنحو السنتين أو ثلاثة، وكلما قلت له فيها سألني عن الطبيب أنه كان من بلاد بلنسية كذب، ولكن كانت القراءة بالعربية لأهل بلنسيه مباحة في غير دين الإسلام، وممنوعة لسائر أهل بلاد الأندلس، وتسترت بالكذب من شرهم، وذكر الغزالي ـ نفع الله به ـ في كتاب الإحيا: إن جاز عليك إنسان من أهل الخير، ثم جاء في طلبه رجل ظالم سائلاً عنه ليضره فقل له: مشى من تلك النَّحِيَّةِ بعكس ما تمشى منها، لينجو المطلوب من ظلم طالبه. وأن الكذب في مثل هنا جائز، بل مندوب إليه مع أن الإرشاد واجب، وظهر لي أن للذي من عادته الصدق في كلامه إذا كذب فيما يجوز له الكذب مضطراً إلى ذلك أنه يقبل منه قوله ويصدق فيما يقوله.

Maldonado. (40)

Madrid. (41)

ثم أمر القسيس باحضر الرق وكان في الطورة مكتوب بالعربية بحروف غير منقوطة : يا طالب اللغز اقرن وإن لم تقرن لم تحط بفهم الجفر ، فسألني عن المعنى بالعجمية فذكرته له . قال لي : اتنا غداً ، قلت : إن شاء الله ، ولما أن جئت أعطاني الرق وقال لقسيس عالم شهير محمود عندهم اسمه رايه[42] : اقعد معه واكتب ما يقوله لك . وكان في أعلاه مكتوب : «بسم الذات الكريمة الملتبيبة» فاحتجت كتاب في اللغة إلى فهم معنى (الملتبيبة) وأعطاني القسيس كتاب الجوهري في سفرين ، وفهمت من الملتبيبة أنه مأخوذ من لب الشيء معناه الذات الساذجة الخالصة لا مركبة ولا ممزوجة ، ثم ذكر سيدنا عيسى عليه السلام ثم قال القسيس سسليوه عن نفسه أنه مشى في طلب العلم إلى مدينة أطيناش[43] ببلاد اليونان حيث يقرأ العلم بكل لسان وأن بعد زمن مشى إلى زيارة بيت المقدس وأن الطريق بفساد الأزمنة والرياح أصابه ما شاء الله من زيارته بداء مرض العينين حتى غشي البصر بالبياض ، وأن الموكل ببيت المقدس أخرج إليه جفر الحوري يوحنا الذي كتب ربع الإنجيل ، وقال له إن فيه سراً عظيماً[44] ، واستشفى به ، وارتد عليه بصره . ثم أخذ منه نسخة اليوناني وترجمه باللسان المتصرف باشبانيه - العجمي - وهي بلاد الأندلس ، وأدخله في جدول من تسع وأربعين بيتاً ووضع في كل بيت حرفاً من العجمي ثم وضع تحت الجدول شرحاً بالعربية ، ولما ترجمت العربي الذي ذكر أنه الشرح ، فكنت آخذ من العجمي الذي هو المتن - وبالمغرب يسمى بالام - إلى أن أجد علامة الوقف ، ثم آخذ من العربي وهو الشرح ما يناسبه ، فجاء الكلام مطابق ومفهوماً وهو كما ذكر في الطرة : «يا طالب اللغز اقرن» والإقران لشيئين متباينين يجمعها . وأما ما ترجم به كل من سبقنا وكان فيهم أعلم مني فترجم الشرح وحده ولا فهم معناه ، وذكر لي أنه كان فيهم من قرا

---

(42) يقصد Luis de Raya.

انظر عنه : C.S. Cerqua, "Al-Hayari in Andalusia " in Studi Maghrebini III, 3, Napoli, 1968, p. 17.

(43) Athènes.

(44) كتب في الطرة : (ونصف خمار الصالحة مريم) .

(المتلبيبة) بأن قال : «باسم الذات الكريمة المثلثة» وذلك كذب لأن حروف (المثلثة) خمسة ، و(المتلبيبة) سبعة . ففرح القسيس فرحاً عظيماً بما ترجمت وعلم أنه الحق وأعطاني ثلاثمائة ريالاً وأيضاً كتاباً بالإذن للترجمة من العربي إلى العجمي وبالعكس ، وامتد الخبر عند النصارى حتى كانوا يشيرون إلي ويقولون : هذا هو الذي فهم الرق الذي وجد في الصومعة وقد مضت نحو العشر سنين بعد أن وجد ، فأمرني القسيس الكبير أن أكتب نسخة من الرق ، وبعثها للبابا بالمدينة رومة .

وبعض ما تضمن الجفر ـ قال في العجمي المكتوب في الرق شيئاً مما يكون بعد كمال ست قرون من ميلاد عيسى عليه السلام ، وقال في الشرح العربي القرن مائة سنة ـ :

من غمرات الشرقين أتى ملك جاني بالانشرار
على الوجود قايم بتمام القدر قد انتصار
يا مالكاً دايما من هذا الأمر أين الفرار

***

وملك يتحكم على الوجود كله إلى الغروب
ودين يتقدم على من قد أمله من العيوب
والسر يتفهم بما القدر أعطه على الذنو

فترجمت معنى هذه الأبيات .

والمفهوم منها عندهم :

أن الملك : هو النبي ﷺ لأنهم يقولون أنه ولد لإحدى وعشرين سنة وست مائة من ميلاد عيسى عليه السلام ، وعند أنه ولد قبل ذلك ﷺ في المائة الخامسة ، واشتهر دينه في السادسة ، وقد رأيت نصبة ولادته معدلة في كتاب علي ابن أبي الرجال[45]

---

(45) هو أبو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني القيرواني .

كان حياً عام 454 هـ/ 1062 م . صاحب كتاب البارع في أحكام النجوم .

انظر : م . العربي الخطابي ، فهارس الخزانة الحسنية ، 3 : 437 ـ 441 .

بتاريخ ولادته ﷺ .

وفي معنى الجاني : وقع الخلاف بين المترجمين ، لأن الاسم له معنيان : فأما الشيخ الصالح الجبس وما ترجمت أنا قلنا هو اسم فاعل من جنى ، وهو ظاهر في القرآن العزيز قوله تعالى «وجنى الجنتين دان»[46] ولما ترجمت (أن دينه يتقدم على من قد أمله من العيوب) ، فقال القسيس كيف هذه الترجمة؟ قلت : أنت تعرف تقرا وأترجم لك كل كلمة وحدها حتى ما أصاب ما يقوله ، وقد كره ذلك كثيراً ، لأن الكفار هم الذين أملوه من العيوب وتقدم دين النبي ﷺ وهو موافق الآية في القرآن العزيز ، قوله تعالى : ﴿أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[47] وهو معنى ـ والله أعلم ـ أن دين النبي ﷺ يتقدم على المشركين الذين أملوه من العيوب .

وكان في أسفل الرق مكتوب بالعربية أول ما صدر يوحنا في الإنجيل كتبه بطريسي[48] قسيس خديم سسليوه ، وقال إنه أمره أن يضعه في موضع خفي حتى يريد الله أن يظهره ، وأنه وضع الصندوق في حيط الصومعة خوفاً من السلطان نَيْرُون . ولما ترجمت ابتداء الإنجيل وما ذكر فيما كتب قال لي القسيس : انظر هذه الكلمة ، قال لها معنى غير هذا ، قلت ليس لها إلا هذا المعنى ، قال فاترك موضع الكلمة أبيضاً لأنه مخالف للإنجيل الذي بأيدنا ، قلت في نفسي : هذا الذي كتب في زمن سيدنا عيسى أو بإثره فهو عندي أصح من الذي عندهم الآن ، وأيضاً كان في الجفر مكتوب يقول :

«من أقصى المغرب على ماء البحر يأتي سريع القوام إلى بلاد النصارى وتصل الهَمْلَى[49] إلى رومة» . وذكر مما ينزل بالنصارى من الشر والخسران شيئاً كثيراً . وقال عن ذلك وعلامتها ـ أعني ما يَنْزل من البلاء والغلب ـ إذا يأتي الوقت بالانفصال

(46) سورة الرحمان ، الآية 53 .

(47) سورة التوبة ، الآية 32 .

(48) Patrizio.

(49) يقصد الحملة . وهذا كما هو واضح من تأثير النظام الصوفي الإسباني .

مدينة البحر يملكها الشرقي بلا محال ، ولم يشك أحد من سمع ذلك أن الشرقي هو سلطان المشرق وأنه سلطان الترك نصره الله ـ . قال لي القسيس : بأي مدينة تسمى بالعربية مدينة البحر؟ قلت : لا أدري ، لكن يظهر لي أنها البندقية لأنها في البحر مبنية فأعطاني كتاب الجغرافية بالعربية وهو من الكتب التي تعمل النصارى بالقالب المسمى بنزهة المشتاق في اختراع الآفاق ، وقال : انظر هل تجد هذا الاسم فيه ، فقرأته كله فلم أجده ، وبينما كنت أطالع إذ جاء بعض المسافرين من بلادي إلى مدينة غرناطة وعلمت في أي موضع من الفنادق كانوا ، فمشيت إليهم والكتاب عندي ، وبعد السلام والكلام فتحت الكتاب فلما رأوه مكتوباً بالعربية دخلهم الخوف العظيم من النصارى وقلت لهم : لا تخافوا لأن النصارى يكرمونني ويعظموني على القراءة بالعربية . وكان أهل بلدي جميعاً يظنون أن الحراقين من النصارى الذين كانوا يحكمون ويحرقون كل من عليه شيء من الإسلام أو يقرأ كتب المسلمين يحكمون ومن أجل ذلك الخوف العظيم كان الأندلس يخاف بعضهم من بعض ولا يتكلمون في أمور الدين إلاّ مع من كان ذِمَّةً ، معناه : ذو ءامَنَة . وكثير منهم كانوا يخافون بعضهم من بعض وكان فيهم من يحب يتعلم شيئاً من دين الله ولا يجدون من يعلمهم . ولما كنت عازماً على الانتقال من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين كنت أعلم جميع من أراد يتعلم من الأندلس في بلدي وغيرها من البلاد التي دخلتها . ولما رأى الأندلس الحالة التي كنت عليها كانوا يقولون فيما بينهم لابد لهذا من الوقوع في أيدي الحراقين . وبلغ الحال بي حتى إذا وقفت مع جماعة للكلام نرى كل واحد منهم ينسل حتى أبقى وحدي منفرداً ، ومن أجل ذلك قصدتهم وفتحت الكتاب إليهم لنريهم ما أنعم الله تعالى علي به ، إذ بدل لي الخوف بأمن ، والعقوبة والإهانة والذل بعزة وكرامة :

ومن تكن برسول الله نصرته
إن تلقاه الأسد في آجامها تجم(50)

وأما ما ذكر في الرق أن علامة النحس الذي ينزل على النصارى يكون إذا أخذ

---

(50) البيت رقم 135 من بردة البوصيري .

المشرقي مدينة البحر فكنت قد أظهرت نسخة من الرق المذكور لمولاي أحمد سلطان مراكش ـ رحمه الله ـ . قال واحد من قواده : لو كنت تبدل (القاف) (بفاء) ، ليقول إن مدينة البحر يملكها الشريف ، فيفرح بذلك السلطان . قلت : لا أبدل شيئاً ـ إن شاء الله ـ .

تنبيه : هذا الرق القديم كان من زمان سيدنا عيسى عليه السلام أو قريباً منه جداً ، لأن سسليوه الذي كتبه ووضعه في الصومعة خوفاً من السلطان نيرون كما قال هو فيه ، لأنه كان يقتل النصارى ، فوجدت تاريخ توليه للملك في سنة عشرين بعد سيدنا عيسى عليه السلام وأيضاً كان كاتباً سسليوه هو وأخوه للكتب التي ظهرت تحت الأرض ، والحروف العربية التي كانت في ذلك الزمان حسبما كانت في الرق . فحرف القاف كان بنقطتين ، وهذا برهان أن المشارقة في ذلك هم على العهد القديم بخلاف المغاربة إذ لا يجعلون القاف إلا نقطة واحدة . ومدينة البحر المذكورة رجوت ـ الله تعالى ـ أن تكون البندقية أو مالطة لأنها في البحر ، وليس على المسلمين أضر منها . وقال لي الحاج يوسف الحكيم الأندلسي أن نهاية المسلمين الذين هم فيها أسارى خمسة آلاف وخمسمائة ، ومنهم خمسون أندلسياً والباقي ترك وأولاد عرب .

وكان في الرق أيضاً يقول : من القبلة يخرج الحاكم العدل ولا يعود ؛ انتهى .

انظر هل يدل على النبي ﷺ ، لأنه بعد افتتاح مكة المشرفة وهي القبلة ، فبعد حجة الوداع خرج منها ولا عاد إليها .

وأما الكتب التي وجدت في الغار في خندق الجنة فكانت اثنين وعشرين كتاباً ، والورق كما قلنا من الأسرب[51] ، ونادى القسيس الكبير الصياغ والمذوبين لعلهم يصنعون مثلها فلم يقدروا على ذلك بوجه ولا بحال ولا تدبير ، وعلموا بذلك أن الرصاص مزج معه معدن آخر ولا عرفوه ، وفي واحد من الكتب منها كتاب الحكم للصالحة مريم ، كما نقل من نسخة الفقيه الاكيحل المترجم الأندلسي ـ رحمه الله ـ ، وأيضاً ذكر الكلام بنفسه قايد بمدينة مراكش يسمى بفارس ابن العلج ، وكان من أهل الدين ، وكان عنده الكلام محفوظاً ومكتوباً .

---

(51) كتب في الطرة : أعني رصاص .

قال : كنت أسيراً بمدينة غرناطة ونادوني إلى حضرة القسيس الكبير وأعطوني كتاباً في ورق من رصاص من الكتب التي وجدت تحت الأرض ، وقرأته والذي قال لي كان مثل ما كان مكتوباً من كتاب الاكيحل ، وقيل في الكتاب مائة حكمة وواحدة ، وهذه الثالثة منها .

وهذه هي الحكمة : يأتي في الوجود من بعد روح الله يصوع ، نور من الله اسمه الماحي المنور ، وبالمعجم البارقليطاس[52] خاتم المرسلين ـ تأييداً ـ ، وخاتم الدين ونور الأنبياء ، لا نور لهم دونه ولا لأحد من العالمين . فالذين آمنوا به من بعد يسعدون حق السعادة وينورون حق التنوير المبين من الله ، ومن كفر به لا حظ له في الجنة ، ولكن أكثر الناس كافرون ؛ انتهى . وقد قال لي بتونس ـ حرسها الله ـ الفقير الإمام الفقيه محمد بن عبد الرفيع الأندلسي[53] : إن في الحكمة المذكورة سبعة أسماء من أسماء النبي ﷺ ، وهي :

- نور من الله .
- الماحي .
- المنور .
- البارقليطاس .
- خاتم المرسلين .
- خاتم الدين .
- نور الأنبياء .

وفي كتاب آخر حكمة ذكرها لي الأكيحل ـ رحمه الله تعالى ـ تدل على القيامة ، كأنه برهان عقلي ، وهي هذه : إن مات الظالمون من غير حكم وعاش الصالحون من دون أجر فذلك دليل على يوم القيامة لأن الله حاكم عدل ولا يظلم في حكمه أحداً .

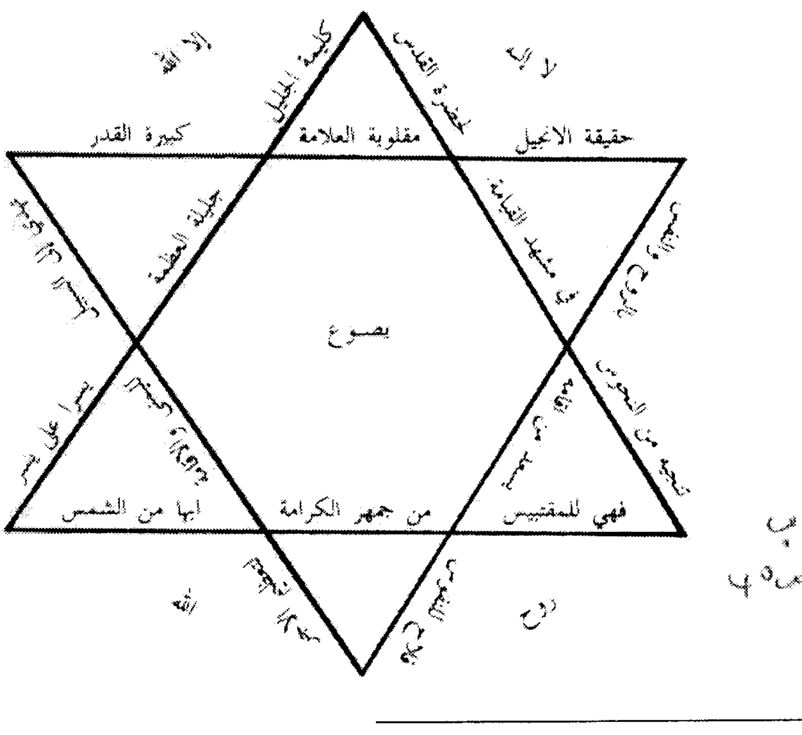
---

(52) Parcleto

(53) محمد بن عبد الرفيع من الأندلسيين المستقرين بتونس ، توفي سنة 1052 هـ/ 1642 م . انظر ترجمته في خاتمة كتابه : الأنوار النبوية في آباء خير البرية .
مخطوط خ .ع . بالرباط ، عدد ط 1238 ، ص . 319 وما بعدها .

وأما الكتاب الذي يرجى فيه الخير حسبما قال في كتاب مواهب الثواب للصالحة مريم ـ عليها السلام ـ ، ونضعه في آخر كتابنا هذا ـ إن شاء الله ـ ، قالت : تكون الناس على دين واحد ، وهو مكتوب كتاب حقيقة الإنجيل في سبع ورق من رصاص بحروف لم تعرف في زمننا . وأحضر للقسيس جميع حروف الهجاء التي هي الآن عند الناس في الدنيا ، وتلك الحروف التي في الكتاب مختلفة لجميع الحروف . وأما المترجمون سموه بالكتاب الأبكم لعدم معرفة قراءته ، وكان في أوله خاتم سليمان عليه السلام مكتوباً بالعربية ، وما عدا الخاتم مكتوباً بالحروف التي لم تقرأ إلى آخر الزمن في جزيرة السبر[54] في البحر الصغير بشرق البندقية . والجدول وضعته بمحاولة :

أما الذي في الجدول أعني في خطوط الخاتم بالعربية فهو هذا : لا إله إلاّ الله يصوع روح الله .



(54) يقصد جزيرة قبرص chypre .

1ـ حقيقة الإنجيل مقلوبة العلامة كبيرة القدر .
2 ـ كليمة الجليل جليلة العظامة يسرا على يسر .
3 ـ تهدي إلى السبيل لليمنى والإقامة لتعظيم الأجر .
4 ـ فهي للمقتبس من جمهر الكرامة أبها من الشمس .
4 ـ فلاح للنفوس يسعد من أقامه بالروح والنفس .
6 ـ تنجيه من النحوس في مشهد القيامة لحضرة القدس .

وأيضاً يقرأ على أربعة أنواع مثل أن يبدى بالسطر الأول ، ثم بالخامس ، ثم بالثالث ، ثم الرابع ، ثم الثاني ، ثم بالسادس . وجه آخر في القراءة : يقرأ السطر الأول ثم الثالث ثم الخامس ثم السادس ثم الخامس ثم الرابع .

وجه ثالث : يقرأ السطر الأول ثم الثالث ثم الخامس ثم الثاني ثم الرابع ثم السادس .

وجه رابع : يقرأ الأول ثم الثالث ثم الخامس ثم الثاني ثم الرابع ثم السادس ، وهو من العجمي .

وقد قلت للقسيس نحب نطالع الكتاب الذي لم يقرأ المسمى بحقيقة الإنجيل لعلي نستخرج منه شيئاً ، قال لي : لم يبلغ الزمن الذي يقرأ فيه الكتاب . وعلم ذلك من الكتاب المسمى بكتاب مواهب الثواب للصالحة مريم . وقد وجدت في تونس - حرسها الله ـ نسخة منه بالعربية وأخرى بالأعجمية أتى بالنسختين واحد من الأندلس الذي كان يترجم ، ووجدت في الأعجمية الباطل والكذب ما لا كان في النسخة العربية[(55)] . وهذه عقيدة في توحد الله تعالى من واحد من الكتب المذكورة وهي من كتاب تصفيون ابن العطار في الذات الكريمة . قال : الدوام لا يزال هو في الله أول كل شيء ، الذي ليس لبدايته ابتداء ولا لفصيلته انقضا ، لا يبلغ كنه

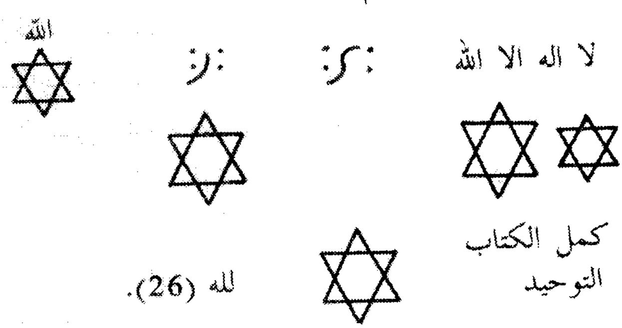
---

(55) درس ميكيل دي ابالزا Mikel de Epalza هذه الأناجيل المكتوبة من طرف المورسكيين ، وقد سماها «أناجيل مزورة» ، وأكد أنها «حرفت» لكي تؤيد ما ذهب إليه المورسكيون فيما يتعلق بجدالهم للمسيحيين .

انظر مقاله : Le Milieu Hispano-Moresque de l'Evangile Islamisant de Barnabé (XVI-XVIIs): in Islamo christiana, Rome, 1982, 8, pp. 160-183.

صفاته الواصفون ولا يتفكرون في مائية[56] ذاته المفكرون . ليس أحد من العالمين رآه عين النظر . ملكه لا يزال لأنه إن زال ملكه ما كان الله . له جلالة لا تدرك لأنه إن أدركت كان نقصاناً به . له عظمة لا تنفك لأنها إن انفكت عظمته أتاه النقصان ، وليس ذلك واسع فيه أبداً هو ذو العلم دون جهل ، علم كل شيء قبل كونه . هو ذو قوة دون نقصان . وهو ذو رحمة وفضل دون امتنان . هو ذو علم قسط لا يفنى أبداً . ليس له احتياج لأحد من العالمين ليزداد سلطانه . وليس دونهم له نقصان في ذاته ولا في ملكه . وكل ما خلق خلقه من رحمته دون احتياج . الموجودات كون وهو المكون ، لو أمر الدنيا بالغراق بمن عليها لدامت في غرق ما دام ملكه ولا يزال ولا تصيب مستقراً لها في موضع . هو خلق كل شيء وليس بمخلوق . هو موانس وليس موانساً له . هو ذو علم ما دون احتياج من غير . هو ذو رحمة ما دون نقصان . هو أول كل شيء ، ليس قبله شيء ، وبعد كل شيء ليس بعده شيء . إله ليس شيء مثله . ليس هو كم ولا عدد ولا فصل ولا فوق ولا تحت ولا وهم ولا خيال ولا كلام ولا لغة ولا صنع مثل خيالنا ، هو فوق العقول ليس يوصف . له الجلال والكمال . وذلك هو في وحدانيته ، لا يفهم الله إلا الله . له العظمة والعبادة والشكر على كل شيء . والإيمان ما دون ذلك خسران ؛ انتهى .

وكان في الكتاب هذه الحروف والخواتم :



لله (26).

لله[57]

---

(56) يقصد ماهية .

(57) كتب في الطرة : الله أعلم أن الميم تدل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والنقط الأربعة على حروف رسول إذ هي أربعة .

هذا تصفيون بن العطار كان من أصحاب سسليوه ، وكانوا كما قلنا على أثر سيدنا عيسى عليه السلام ، ويظهر من كلامه فيما تقدم أنه برء من الشرك الذي تعتقده النصارى في هذا الزمن ، لأنهم يصدرون في ذكر الألوهية عن التثليت . وأيضاً سسليوه ما قال في أول كتابه إلا باسم (كذا) الذات الكريمة الملتبيبة . والآن يقولون : بسم الأب والابن والروح القدس إله واحد ، تعالى عن قولهم علواً كبيرا .

ولما أردت القدوم إلى مدينة إشبيلية لنمشي إلى بلاد المسلمين مشيت إلى القسيس وقلت له : إني عزمت على القدوم إلى بلدي ، وإن أبي كتب لي أن نمشي إليه وأن طاعة الوالدين واجبة ، قال لي في بعض المسائل هي واجبة وفي بعضها لا تجب ، قلت لابد لي من القدوم ، وطلبت منه أن يكون سنداً للأندلس لأنهم ذلال عند النصارى القدما ، قال لي : اعلم أنني من جانبهم في كل زمن ، وحين قاموا على السلطان كنت أنا قاض القضاة بهذه المدينة ، وجاء إليها السلطان وقبض من أعين الأندلس بهذه المدينة مائة وأربعين رجلاً وقتلهم ، كل ذلك ليأخذ أموالهم ، وكان الحق أن يتركهم لأنهم ما كانوا من القوام . وأصحاب المال والنعمة لا يسعون إلا في أمور العافية لينعموا فيما عندهم بخلاف غيرهم ، ولكن أنتم الأندلس فيكم عادة غير محمودة ، قلت : ما هي؟ قال : أنكم لا تمشون إلا بعضكم مع بعض ، ولا تعطون بناتكم للنصارى القدما ، ولا تتزوجون مع النصرانيات القدما . قلت له لماذا نتزوج النصرانيات القدما وكان بمدينة انتقير(58) رجلاً من قرابتي عشق بنتاً نصرانية ، ففي اليوم الذي مشوا فيه بالعروسة إلى الكنيسة ليتم النكاح احتاج يلبس العروض الزرد المهند من تحت الحوايج ، وأخذ عنده سيفاً لأن قرابتها حلفوا أنهم يقتلونه في الطريق ، وبعد أن تزوجها بسنين لم يدخل إليها أحد من قرابتها ، بل يتمنون موته وموتها ، والنكاح لا يكون ليتخذ به الإنسان أعداء بل أحباباً وقرابة . قال لي : والله إنك قلت الحق وتودعنا بالخير ، وذهبت ، وما ذكرت له عن الأندلسي والنصرانية كان صحيحاً ، وأسلمت على يده ، وحسن إسلامها غاية الحسن ، وأسلمت على يديها أمها عجوزة .

(58) Antequera إحدى مدن الأندلس القديمة ، تبعد عن مالقة بحوالي 60 كلم .
انظر عنها : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 3 : 259 ؛ وابن الخطيب ، معيار الاختيار ، 197 .

الباب الثاني

في قدومنا إلى بلاد المسلمين
وما اتفق لنا عند خروجنا من النصارى

اعلم ـ رحمك الله تعالى ـ أن البلاد التي على حاشية أبحر من بلاد الأندلس، وأيضاً فيما لهم في بلاد المسلمين، أن النصارى فيها من الحرص والبحث في من يرد عليها من الغربا شيئاً كثيراً. كل ذلك لئلا يذهب أحد أو يجوز عليهم إلى بلاد المسلمين، وهمني الأمر كثيراً في كيفية الخروج من بينهم، وركبت البحر في بلد يسمى شنت مريا[59]، وكان لي صاحب من بلدي من أهل الخير والدين ومشى معي مهاجراً إلى الله وبلاد الإسلام وسبل نفسه وأهل القارب لا يشكون فينا بأننا منهم، فقطعنا البحر في يومين ونزلنا في بلد يسمى بالبريجة[60] هو للنصارى وليس بينه وبين مدينة مراكش إلا نحو الثلاثة أيام للماشي المتوسط، وتعجب من المنع الذي في بنيان سورها، هو أساسه على حجر صلد، وسقفه ثلاثة عشر ذراعاً ولا يبالي بكور المدافع من إتقانه وغلظه، حتى شاهدت ثلاثة من الفرسان بخيلهم يدفعون خيلهم جملة على السور ولا يخافون الوقوع منه، ولما أن دخلنا سألنا القبطان: ما سبب قدومكم؟ قلت له: وقع لنا شيء من التغيير مع أناس ببلاد الأندلس وجئنا إلى حرمتكم، قال: مرحباً بكم، قلت أحب منك أن تأذن لنا في رجوعنا إلى بلادنا مهما أردنا، قال: أذنت لكما ونزلنا عندهم واشتريت حصاناً من أحسن الخيل، وصرت من فرسانهم، وكنت أحب أشتري آخر لصاحبي ولم يتيسر. وتلك البريجة في ركن من الأرض والبحر داير بها من الجانبين، ولا يخرج أحد من البلد حتى تتقدم الفرسان، ويقتسمون، ويجوزون من البحر إلى البحر من الجانب الآخر البساتين مع البريجة، وليس لأحد من النصارى أن يجوز الحد الذي تكون فيه

---

(59) يقصد ميناء Santa Maria .

(60) يقصد الجديدة، وكانت آنذاك تحت حكم البرتغاليين .

الفرسان بحساب النوبة للحرس ولما رأيت ذلك قلنا نخرج من البريجة ونجلس بين البساتين ونستخفي فيه إلى الليل ، ونذهب إلى مدينة أزمور ـ هي للمسلمين ـ على ثلاثة فراسخ من البريجة ، وقلت لصاحبي إذا قدر الله علينا أن النصارى يتصلون بنا فواحد منا يستعمل نفسه أن الجن أصرعه ويخرج من فمه بحديد شيئاً من الدم لعلنا ننجو ـ إن شاء الله ـ بذلك الكيد .

فخرجنا إلى بين البساتين واختفينا هناك ثم أن صاحبي مشى إلى بستان قريب من الموضع الذي كنا فيه وبقي هنالك إلى قبل غروب الشمس بقليل ، وأنا في أشد تغيير ، والفرسان تأتي إلى البلد ، ثم جاء صاحبي ، قلت له : ما السبب حتى قعدت إلى هذه الساعة؟ قال : كنت أتكلم مع صاحب بستان حتى عزم على الخروج منه ، جئت من عنده ، فبينما كنت بالغيظ أدبر كيف العمل إذ سمعت البواب يَزْمُورُ مِزْمَاراً له ينادي الناس قبل سد الباب ، فاشتغلت أقرأ سورة (يس) و(الزمر) في زيادة . قلت لصاحبي : هذا الزَّمْرُ هو علينا ، قال لي : اعمل حيلة الاصراع ، لأن الناس جاءت إلينا قلت له : لا أعمل ذلك مما كان عندي من الغيظ والتغيير عليه ، قال : أنا أعمل ، قلت : افعل وأنا أتكلم عليك معهم . فأخرج شيئاً من الدم ، ورمى بنفسه في الأرض ، فخرجت إلى جهة الرجال وأنا أشير إليهم أن يأتوا إلي ، فلما وصلوا قالوا : ما السبب في جلوسكم إلى هذه الساعة والبواب ينادي عليكم ، أما تخاف من المسلمين أن يأخذوكم أسارى؟ قلت في نفسي : ما نفتش إلاهم ، قلت لهم : بعثت صاحبي يشتري خياراً ، ولما تعطل جئت في طلبه حتى وجدته في هذه الحالة ، ما استطعت حمله وحدي لأنه يضطرب في الأرض ، فوصلوا إلى ناحيته ورأوه بالدم في وجهه وعنقه وهو يضطرب بيديه ، قالوا : هذا يموت . وكان من الذين جاءوا صاحب البستان الذي كان معه صاحبي في الكلام ، ووصل الخبر للقبطان بأمرنا ، وظنوا وقالوا : إننا هاربون إلى المسلمين ، وأمر أن ينظروا هل الحصان في الدار؟ قالوا : هو فيه وحوائجهم أيضاً ، قال : لو كان يهربان لم يتركا الحصان ، وهذا أمر نزل بهما ، والتمت جميع الناس بحضرة القبطان ، والرجال الذين كانوا عندنا قالوا : إن هذا يموت ، واتفقوا أن يمشي واحد منهم ينادي القسيس ليثبته ويستقرره من الذنوب ليمشي مغفوراً منه إلى الجنة ، فمشى واحد وأعلم القبطان بالأمر ، فجاء القسيس وهو على

بعد منه يثبته ، قلت للقسيس : أظن أنه مصروع من الجن فاقرأ عليه أول ما ذكر يوحنا من الإنجيل ليذهب عنه الجن ، فقرأ عليه من الإنجيل ، وذهب الجن والشيطان ، وظهرت للقراءة البركة والبرهان ، وشهرت هنالك ولاية القسيس ، وضحك منه الجن مع إبليس ، وبرأ المريض في الحين ، وأخذه اثنان منهم كل واحد من تحت إبطه ، وصار يمشي معهم حتى صعد على حايط نار وهما معه ، فأطرح نفسه على واحد منهما عند هبوطه منه حتى كاد أن يوقعه .

ودخلنا البلد وجميع الناس مع القبطان وحكوا له كل ما طرأ ، وأن المريض بعد أن كان يموت برأ ببركة ما قرأ عليه القسيس ، ومشينا إلى الدار وجاء من أكابرهم ينصحونني أن لا نتركه يركب الحصان ، ولا يطلع على السور لئلا يصرعه الجن ، ثم جاء الطبيب وكانت له صنايع غير الطب كثيرة ، فكان يصقل السكاكين ، ويركب الرماح ، وأظنه يحلق ، وبيطار الخيل ، فقال الحكيم : ما هذا الذي أصابه فحكينا له ، وبقي متحيراً ماذا يأمرنا به من العمل للعليل ، اجعل عليه حوايج لعله يعرق ، فشكرته على حكمته ووضعنا الحوايج عليه ، فلما أن ذهبوا جميعاً لم يسمع المريض أحد أخرج رأسه من تحت الحوائج وقال : كيف حالنا يا سيدي؟ قلت له : غط رأسك ما عندنا إلا الخير ، إن شاء الله ، وذهب النوم عنا في الليلة كلها ويوم أُخُرْ تبين لنا أن الله تعالى لطف بنا ، وبقي المريض سالماً ونحن ندبر كيف العمل لنقضي الغرض حتى نخرج من بين الكفار . قلنا : لو كان واحد منا وحده كان يمكن الهروب والخروج بأن يخفي ويهرب والحال الاثنين صعب ، وكانت سفينة عازمة على الرجوع إلى بلاد الأندلس ، قلنا نرمي القرعة من يرجع منا في السفينة ، فرميناها وجات في ، وكانت الناس تتكلم بنا تقول : إني كنا نريد الهروب إلى بلاد المسلمين . فمشيت إلى القبطان وقلت له : أحب أرجع إلى بلاد الأندلس في هذه السفينة ، وإذا استغرضت شيئاً من تلك البلاد فأعطني زماماً به أبعثه إليك ، قال : وصاحبك يمشي معك : قلت له : أراد القعود هنا وأنت ترد بالك عليه ، لأنه غريب . فخرجت عشية وأوجدت ما يحتاج من الطعام في السفر ، فوجدت بقرب باب قارباً صغيراً ، فقال : أركب ، فأعطيته الطعام والحوايج وقلت له : إذا خرج التاجر الذي كان يمشي من البريجة نركب القارب الصغير ليبلغنا إلى السفينة الكبيرة ، فجلسنا هنالك ندعو الله تعالى أن

يتعطل التاجر حتى ينسد الباب ، ثم قالوا لصاحبي : ادخل عند سد الباب ، قلت لهم : دعوه معي حتى يخرج التاجر ، قالوا : نعم ، يقعد ، فأظلم الليل إلى أن صلنا العشاء الآخرة ، ثم دعونا الله أن يرشدنا ويسترنا من أعدائنا . قلنا : هذا وقت الخير فنذهب ـ إن شاء الله ـ إلى أزمور ، قلت لصاحبي : ما ظهر لك أن نصنع في ذهابنا ، قال : كيف ما ظهر لك ، قلت له : يا صاحبي ، الطريق القريب هو من هنا إلى أزمور ، قلت : ومن الممكن أنا إذا شرعنا في الطريق ربما يخرج التاجر الذي هو يمشي في السفينة ، وإذا طلبوا علينا لم يجدونا ، ويتبعونا كما هي من عادتهم ويدركوننا بالخيل ، قال : كيف العمل؟ قلت : هذا طريق أزمور هو هذا الشمالي على حاشية البحر ، قال : نعم ، قلت : نمشوا على حاشية البحر اليمنى إلى غد ـ إن شاء الله تعالى ـ نمشو إلى أزمور على بركة الله ، فمشينا ، وبعد ساعة أو أقل سمعنا مكحلة لعلي نفيق من النوم إن كنا نائمين ، فمشينا الليل كله في بلاد الأسد إلى انشقاق الفجر أخلوا المدفع الكبير وهي علامة عندهم إذا أدخلوا ذلك أنه لا يتخلف أحد عن الخروج من البلاد . وعلمنا أنهم ما خرجوا إلا في طلبنا ، فاتفق أن ندخلا في وسط شجرة كبيرة ونجلس هنالك إلى الليل وكنا نسمع حس البارود الكثير ثم يئسوا منا وولوا خائبين ، وسبب رجوعهم أن قائد أزمور لما سمع حس المدفع الكبير عند الصبح علم أن أحداً من النصارى هرب من عندهم فأمر في الحين الفكاك أن يمشي إلى البريجة ليتكلم مع القبطان في شأن أسير كان عنده ، ويأتي بالخبر ، فلما مشى التقى بالنصارى في الفحص . وسأله ترجمان القبطان عن نصرانيين هل رآهما؟ قال له : نعم ، هما عندنا من الصبح . فلما بلغ الخبر للقبطان وهو مع جنده ، فكان يقبض بيده شعر لحيته ، وينتفها ويرمي في الأرض ، والفكاك قال لهم ذلك لييأسوا ويرجعوا فقنطوا ، وولوا خائبين . ونحن جلسنا بين الأشجار إلى الليل وكان الحر الشديد ، ونحن بالعطش سائرين فوجدنا عيناً من ماء عذب فشربنا ، وبتنا إلى الصبح ، وكنا سرنا في الليل كثيراً قبل وجود الماء . وبعد ذلك بزمن التقينا بمراكش برجل من أولاد الولي سيدي علي بن أبي القاسم[61] ، وسألنا عن حالنا وهروبنا من البريجة إلى

(61) انظر ترجمته عند م . بن عسكر . دوحة ، 10 ـ 102 .

جهة طيط ـ هو بلد خال كان للمسلمين ـ وذكرنا له عين الماء الذي وجدناه في الليل ، فقال للناس الحاضرين : تلك البلاد نعرفها كلها وليس فيها ماء على وجه الأرض إلا في الآبار الغارقة . وبعد أن تنعمنا بالماء وصلينا الصبح مشينا في طلب أزمور وبسبب السحب لم نر الشمس حتى كانت في وسط السماء ، ثم سرنا نطلب على الما ونجد آبار غارقة يابسة ، ثم استظللنا بشجرة كبيرة بعد العصر ، وسمعنا حس البحر ، ولينا إليه لعلنا نجد ماء فلم نجد شيئاً في حاشية البحر للشرب . ثم مشينا على طريق وكنت أظن أنه ماشٍ إلى أزمور . فبعد نصف الليل بلغنا إلى بساتين البريجة ، ثم جزنا وتركناها من ورائنا ، وسرنا من البريجة . ثم صعدنا على جبل ورأينا المسلمين يحصدون الزرع ولما قربنا منهم جاءوا إلينا بأسلحتهم وخيلهم ، فلما وصلوا إلينا قلنا لهم : نحن مسلمون ، فأمسكوا عن الحرب ، وفرحوا بنا فرحاً عظيماً ، وأعطونا الخبز والطعام الذي لم نره من يوم الجمعة قبل الزوال إلى يوم الاثنين عند الضحى . ثم بلغنا إلى أزمور فأقبل علينا قائدها وبحثنا كثيراً في أمور دين المسلمين ، وقال لي : أتكتب بالعربية في هذه الورقة؟ قلت له : ما أكتب؟ قال : الذي تحب ، فكتبت ما ألهمني الله تعالى ، وشكرته على قضاء الحاجة وخلاصنا من الكفار ، ودعوت بالخير للقائد محمد بن إبراهيم السفياني على ما أحسن إلينا ، وقبض الورقة ، وأظن أنه بعثها للسلطان مولاي أحمد ـ رحمه الله ـ ، وكتب له وأمره أن يمشي بحضرته في عيد الأضحى ، وأن يحملنا معه ، فلما أن بلغنا في دكالة إلى سوق كبير أمر القائد بخديمه أن يركب معي إلى السوق ، فلما أن دخلنا فيه جاء المسلمون يسألون الخديم عني ، قال لهم ، هو مسلم ، فجاءوني من كل جانب وهم يقولون لي : شهد! شهد! وأنا ساكت حتى ألحوا علي وكثروا في ذلك ، قلت : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . قالوا : والله إنه قالها خير منا ، ثم مشوا وأتوني بتمر وغير ذلك مما كانوا يبيعونه وفضة دراهم . قلت لهم : لا أطلب منكم شيئاً من ذلك ، فلما ولينا عند القايد قال لي : ما ظهر لك؟ قلت : الحمد لله إذ لم نر عدوا في هذه الناس ، لأن في بلاد النصارى لم نر فيها في الأسواق إلا أعداء لنا يمنعونا من الشهادتين جهراً ، والمسلمون يحرضونني عليها وفرحوا جميعاً حين سمعوا مني ذلك . وقد شبهت ما أصابنا من خوف النصارى وما رأينا من التعب في الطريق إلى أهوال

يوم القيامة ، ووصولنا إلى المسلمين للدخول في الجنة ، نسأل الله العظيم أن لا يحرمنا منها وجميع المسلمين أجمعين ببركة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم .

الباب الثالث

في بلوغنا إلى مدينة مراكش
وما كان السبب حتى مشيت إلى بلاد الفرنج

ولما أن بلغنا إلى محلة السلطان مولانا أحمد ابن مولاي محمد الشيخ الشريف الحسني وكان يقرب المدينة بنحو الستة أميال بسبب الوباء العظيم الذي نزل بتلك البلاد ، وكان عيد الأضحى في اليوم الآتي من بلوغنا ، وخرج السلطان في جنود ـ لم نظن ذلك ـ ، وعجبني حال الرماة فحزامهم هو أفضل وأحسن وأزين من حزام النصارى بكثير . وأما العرب الذين جاءوا وحضروا مع قوادهم ، فكانوا تسعاً وعشرين ألف فارس وكذا مائة ما عدا السبيجية ، وفرسان المدينة ، والفرادة ، والجند كثير . وبعد ذلك دخلنا مراكش ، هي مدينة كبيرة ، وفواكهها كثيرة ، وعنبها ليس في الدنيا مثله . عرضها إحدى وثلاثون درجة ونصف . وطولها تسع دراج ، لأنها قريبة من الجزر الخالدات المسماة الآن بقنارية ، ومنها ابتدأ الطول وبعد أن دخل السلطان من المحلة وكان ذلك عام سبع وألف ، وأنعم علينا ، وأذن لنا في الدخول إلى حضرته في يوم الديوان ، ولما ابتدأت بالكلام الذي اخترته أن أقوله بحضرته العالية بصوت جهير سكت جميع الناس الحاضرون كأنها خطبة . ففرح السلطان وقال كيف يكون ببلاد الأندلس من يقول بالعربية مثل هذا الكلام ، لأنه كلام الفقها ، وفرح بذلك كافة الأندلس القدما ، ورأينا العافية والرخا في تلك البلاد إلى أن مات مولاي أحمد ـ رحمه الله ـ في مولد النبي ﷺ من سنة اثنتي عشرة وألف . وقامت القوام والهرج في المغرب كله ، ثم ثبت في المملكة مولانا زيدان ابن السلطان مولاي أحمد ـ رحمهما الله تعالى ـ وفي أيامه أمر السلطان النصراني ببلاد إشبانية ـ أعني بلاد الأندلس ـ المسم بفلب الثالث ـ من اسمه ـ بإخراج جميع المسلمين من بلاده ، وابتداء ذلك كان لسنة ثمان عشرة وألف . وآخر من خرج منهم كان عام عشرين وألف . وكان الأندلس يقطعون البحر في سفن النصارى بالكراء ، ودخل كثير منهم في سفن الفرنج ونهبوهم في البحر . وجاء إلى مراكش أندلس منهوبون من الفرنج من

أربع سفن . وبعث رجل أندلسي من بلاد فرنجة بطلب منهم وكالة ليطلب الشرع عنهم ببلاد الفرنج واتفق نظرهم أنهم يبعثون خمسة رجالاً من المنهوبين ويمشي بهم واحد من الأندلس الذين سبقوهم بالخروج ، واتفقوا أنني نمشي بهم وأعطاني السلطان كتابه ، وركبنا البحر المحيط بمدينة أسْفِ .

الباب الرابع

في قدومنا إلى بلاد الفرنج

ولما أن دخلنا البحر سافرنا إلى أن تركنا بلاد المغرب عن يميننا ، ثم عبرنا في البحر المحيط إلى جهة القطب الشمالي ، وتركنا أيضاً بلاد الأندلس عن يميننا ، وبلغنا إلى بلاد الفرنج إلى مرسى هبر دي غرسي - معنى ذلك الاسم مرسى البركة - بعد ثلاثين يوماً من خروجنا ، وبتنا في السفينة بنية الخروج في البر في غد ، وتلك الليلة على طولها نرى في النوم أني كنت نتلوا سورة (الإخلاص) ، وبعد أن نزلنا في البربان لي أن قراة ﴿قل هو الله أحد﴾ كان لي تثبيتاً على التوحيد ، والأمر من الله تعالى به إذ كنا نازلين ببلاد الشرك ، ثم مشينا إلى مدينة روان ، وجاء إلينا تاجر كنت عرفته في مراكش اسمه فرط ، ولطول مكثه ببلاد المسلمين كان يعرف العربية غاية ، وبدا يتكلم في دين المسلمين ، ويشكر دينه . وقال : المسلمون في دينهم مباح الزنا والسرقة ، قلت : هذا باطل ، قال : بل صحيح لأني سمعت علماءكم يقولون أن بعضاً سأل نبيكم ، قال : المومن يزني؟ قال له : يزني ، قال : والمومن يسرق؟ قال : يسرق ، قال أيضاً : المومن يكذب؟ قال له : المومن ما يكذب . قلت له : المومن الذي ما يكذب فلا يسرق ولا يزني ، وكيف تقول ذلك وعندنا أن من سرق ما يساوي ربع دينار تقطع يده شرعاً ، وإذا زنا المحصن يرجم إلى أن يموت . ثم زاد في مدح دينه إلى أن قال : سيدنا عيسى عليه السلام كان ابن الله ، وابن إنسان ، وأنه مات ليخلص الذنب الأول عن سيدنا آدم عليه السلام ، قلت : أقول لك في الجواب شعراً نسبه بعض للقاضي عياض ، وهو هذا :

عجباً للنصارى في نبيهم
وإلى أي والد نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا
إنهم بعد صلبه قتلوه

فـــإذا كـــان مـــا يقـــولون حـــقـــاً
فـــاســـألـوهـمُ أيـن كـــان أبـوه؟
فـــإذا كـــان راضـــيـــاً لأذاهـمْ
فـــاشـكـروهـم لأجـل مـــا عـــذبـوه
وإذا كـــان ســـاخـطـاً لأذاهـمْ
فـــاعـــبـــدوهـم لأنـهـم غـلـبـــوه[62]

فبهت التاجر ولم يعرف ما يقوله :

وكان قد ذكر لي رجل من علماء النصارى في مدينة مراكش ، وكان راهباً ثم أسلم ، وسمي برمضان ، ثم مشى إلى بلاد السودان ، ومات بها - والله أعلم - ، وقال لي : إن السلطان مولاي أحمد - رحمه الله تعالى - أمر بإحضاره بين يديه بعد أن علم أنه من علماء النصارى ، فقال له : ماذا تقولون في سيدنا عيسى عليه السلام ؟ قال : إنه أحد الثلاثة في الألوهية أو كما قال : وإنه مات ليخلص العالم من الذنب الأول الذي عمله أبونا آدم . قال له السلطان : أنا أضرب لك مثلاً حتى ترى الغلط الذي أنتم عليه ، فقدر أنني أمرت أن من يدخل في هذا البستان الذي بدارنا السعيدة نقتله ، واتفق أن واحداً ممن علم بالمنع دخل البستان وعصاني ، فلما صح ذلك عندي أمرت الخدام أن يأتوني بابني ، فلما أحضروه قلت لهم : اقتلوه لأجل دخول فلان في الجنان الذي نهيت عن الدخول فيه . قال للراهب : هذه مسألتكم على زعمكم أن عيسى هو ابن الله وقتل ، وهل يقول عاقل بمثل هذا القول؟ فخرس الراهب وبهت ، ولم يجد ما يجاوب به ، قلت للراهب : هذا الكلام لم يبق لكم ما تقولون ، قال لي الراهب : بقي لي جواب ، قلت له : ماذا هو؟ قال لي : بعد أن مشيت إلى الدار أصبته ، وذكره لي ، وكان كلاماً ليس فيه ما يقال ولا ما يكتب ، فما بعد الحق إلا الضلال . وقد وقع لي كلام في مدينة روان مع قاضي القضاة بعد أن زرته ، وكان يعرف اللسان العجمي الأندلسي ، فسألني عن مسألة في ديننا لأنهم كانوا مختلفين

(62) بالمخطوط في الأبيات الثلاثة الأولى فإن بدل فإذا المثبتة إقامة للوزن .

(كذا) فيها أعني أصحاب الباب وكان القاضي على مذهبه وبين النصارى الذين يكفرون به ، وبكل ما يقول ما عدا التثليث ، لأنهم متفقون فيه . وذلك أنه قال لي : إذا مات المرء هل تصل إليه حسنة من عند غيره؟ فقلت له : قال نبينا ﷺ «إذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به الناس ، أو ولد صالح يدعو له»[63] ، ففرح وانشرح لأنه موافق لاعتقادهم ، والذين يكفرون بالباب من النصارى يقولون : إنه لا يصل للميت دعا ولا صدقة ولا شيء من الدنيا بعد موته . ثم قال لي القاضي : أنتم التركيون تصنعون فعلاً قبيحاً بقتلكم جميع أولاد السلاطين إلا واحداً أو اثنين ، قلت ذلك لصلاح المسلمين ، لأن كل من هو ابن سلطان يحب مملكة أبيه ، فإذا أصاب . . .[64] والمملكة عظيمة ومنيعة ، فيقوم معه كثير وتكون بسبب ذلك تفريق الكلمة ، وتكون الفتنة ، وقد يشاهد في النحل أمر عجيب ، وهو أنه إذا أفرخ وكثر فتخرج النحل من الجبح ، وتدخل في جبح آخر فارغاً ، وعندهم فيها بين النحل سلالة سلاطين ليكون سلطانها ، وتقتل جميع من هو من ذلك الجنس ، وهذا مشاهد يعلم ذلك كل من يخالط النحل ، وهذا إلهام رباني .

ففرح القاضي وأظهر صحبة ومودة ، ونفعني نفعاً جيداً في الأحكام .

---

(63) أخرجه مسلم في الصحيح ، 5 ، 73 ، عن أبي هريرة .

(64) كلمة لم نهتد إلى قراءتها .

الباب الخامس

في قدومنا إلى بريش

هي دار سلطنة الفرنج ، وبينها وبين مدينة روان نحو الثلاثة أيام ، وطولها خمسة آلاف وخمسمائة خطوة وعرضها أربعة آلاف وخمسمائة خطوة ، وبيوتها عالية . . .[65] وأكثر وأقل ، وكلها عامرة بالناس ، وديار الأكابر مبنية بالحجر المنجور إلا أنه بطول الزمن يسود لون الحجر ، وتقول النصارى أن أعظم مدن الدنيا القسطنطينية ، ثم مدينة بريش ، ثم مدينة اشبونة[66] ببلاد الأندلس . وكان من حقهم أن يذكرا مصر إلا أنهم يقولون لها القاهرة الكبيرة . وإذا جمعنا مع مصر مصر العتيق وبولاق وقاية باي[67] لم ندر من هي أعظم بريش أو مصر بما ذكرنا . وقد رفعنا أمرنا الذي جئنا بسببه إلى تلك البلاد إلى الديوان السلطاني وأعطوا كتب السلطان للقضاة الذين ذكرنا لهم ، وأيضاً لقاضي الأندلس ، وذلك أن في ديوانهم وجهوا قاضياً منهم إليهم ، ويقضي بينهم ، ويأخذ خمس المال للأغنيا من الواردين على بلاد الفرنج ويقيم بذلك فقرأوهم ، ولا صحَ عند سلطان اسطنبول بخروج الأندلس الذين يسمونهم ببلاد بالترك بمدجنين كتب كتابه السني إلى سلطان فرنجة بالوصية عليهم ، ونفع ذلك الكتاب الأندلس نفعاً عظيماً ـ تقبل الله منه وجعله في أعلى عليين

---

(65) بياض بالأصل .

(66) Lisbonne بالبرتغال .

(67) نسبة إلى السلطان قايت باي بنى عدة منشآت بالقاهرة ، وتعد الأستاذة سيركا أنه لم يوجد حي بهذا الاسم بها ، وأنه من المحتمل أن يقصد المنطقة التي تركزت فيها المنشآت العمرانية لهذا السلطان .

انظر : C.S. Cerqua, "un voyageur Arabo-Andalou au Caire au XVIIè siècle ", in colloque international sur l'histoire du caire, p. 106, note 10.

ببركة سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين ـ . ولما أعطوني كتب السلطان قلت لبعض من كان يعتقدوني منهم أن يترجم لي الكتب ، وبعد الكلام الذي من عادتِهم يصدرونه قالوا للقضاة . نأمركم أن تقفوا مع حامل هذا الذي يتكلم على الأندلس لأن السيد الكبير كتب لنا في شأنهم . وهذا الاسم لا يسمون به أحداً من ملوك الدنيا وذلك ببركة الإسلام إذ هو أعظم سلاطينها . والتقيت في تلك المدينة برجل من علمائهم كان يقرأ بالعربية ، وبعض النصارى يقرأون عليه ، كان يسمى بأبرت ، وقال لي : أنا أخدمك فيما تحتاجني لأكلم لك من كبراء الناس ، وغير ذلك ، وما نحب منك إلا نقرأ عليك في الكتب التي عندي بالعربية ، وتبين لي فيها شيء مما فيها ، قلت له : ائتني بها ، ومن جملة الكتب جاء بالكتاب العزيز ، فسألته أين اتصلت بهذا القرآن ، قال : كنت بمدينة مراكش ، وهنالك تعلمت نقرأ بالعربية ، وكان جلوسي هنالك على أمر سلطان فرنجة لنعلمه بحروف الزمر كلما نعلم أنه يقع السلطان مراكش في ديوانه وحركاته ، فتغيرت حين رأيت كتاب الله تعالى بيد كافر نجس ، ثم ساق قانون ابن سينا في الطب ، وكتاب أقليدس في الهندسة وكتباً في النحو مثل الأجرومية ، والكافية ، وكتاب بالعربية فيه مناظرات بين مسلم ونصراني وفي الأديان ، وغير ذلك من الكتب . وكنا نبتدي بالكلام في العلم ثم تقع المنازعة بيننا على الأديان . وقرأت يوماً في القرآن الذي كان له ووجدت بالفرنج مكتوباً بطرة الكتاب : من هنا أخذ المسلمون إباحة اللواط ، قلت له : من قال لك أنه مباح عندنا؟ قال ظاهر من هذه الآية : ﴿نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنّى شئتم﴾[68] . قلت : نحن عندنا أن اللواط أشد ذنباً من الزنا لأنه إذا زنا محصن يرجم إلى أن يموت ، وإذا كان غير محصن يجلد مائة جلدة ويغرب عن بلده ويسجن فيه عاماً ، وإذا فعل قوم لوط كان محصناً أو غير محصن يموت مرجوماً شرعاً ، وكيف تفسر أنت في القرآن والمفسرون له يحتاجون علوماً شتى وأن لا تعلم لغة العربية ولا النحو ، فضلاً عن غير ذلك . قلت له امح الذي كتبت! وأبى أن يمحو ما في الطرة ، وكان هو ذكر أن في كنيسة كذا فيها كتب بالعربية ، قلت له : أحب أطالعها ، ومشينا فوجدنا قبة كبيرة ،

---

(68) البقرة : 223 .

والكتب صفوفاً على ألواح وكراسي ، وكل كتاب في أسفله حلقتين حديد ، وسلسلة حديد تجوز على جميع الكتب ، كل ذلك لئلا تذهب وتسرق . وكانت في كل لغة ، ففتشنا حتى وجدنا كتاباً عربياً وفتحناه لنقرأ فيه ، والموضع الذي وجدت كان تفسير الآية التي ذكرت أنه في الطرة عليها وهي : «نساؤكم حرث لكم . . .» وذلك من غير قصد مني للآية ، إذ هداية من الله سبحانه وبرهان لما قلت للنصراني . ومن جملة ما ذكر في تفسير الآية أبيات شعر فأخذت القلم ، وكتبت والنصراني حاضر ، وهذا الذي كتبت من الكتاب ، ونظرت أوله لنذكر مؤلفه ، وخصت ورق في أوله ، وهذا هو الشعر ، ولكن إصلاح فيه الشيخ العلامة الأجهوري عند قراءتي الكتاب عليه :

حبذا من وهب النسا الصالحات
هن للنسل وهن للدين ثبات
يهب الله لمن يشاء النساء الخيرات
إنما الأرحام لنا محترثات
فعلينا بالزرع فيها وعلى الله النبات(69)

ولم يسعني الحال أن نتم القراءة على معنى ما بقي .

وقال النصراني : ما هذا الذي كتبت؟ قلت : شيء من تفسير الآية التي كتبت أنت عليها في الطرة بإباحة النكاح في الدبر . وقلت له معنى الشعر بالأعجمية ، قلت له قول الله تبارك وتعالى ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ ، قال : نعم ، قلت له : هل رأيت أو سمعت أن أحداً يحرث في حجر؟ قال : لا ، قلت لم يحرث أحد إلا في موضع النبات أو الزرع ، والنسا هن حرث الرجال في محال النبات كانت بوجهها إليه أو بظهرها . وحينئذ أخذ القلم ومحا ما كان كتبه في . . .(70) الآية . وقال الشيخ الأجهوري عن سيدنا مالك أن بعضاً نسب إليه أنه قال بجواز النكاح في الدبر ، فقال لهم أم أنتم قوم عرب ، هل يكون الحرث في غير موضع الزرع!

---

(69) واضح أن هذا كلام غير موزون .

(70) بياض بالأصل .

وأما هذا الفعل القبيح فقد اشتهر عند المسلمين حتى توهم النصراني أن ذلك مباح في ديننا ، وذلك لشهرته ، ولعدم العقوبة عليه ، حتى أنه ذكر أن بعضاً يكون عنده أولا محجبون للفعل بهم ، ولم يتذكروا أنه ممنوع في دين الإسلام وأن الله تبارك وتعالى غضب غضباً شديداً على ذلك الفعل حتى خسف بأربعة بلدان بجميع من كان فيها . وهذا الذي يترك ما أحل الله له من النساء ، وفي جماعهن تفريح لمن الذي يحصل له من ذلك أجر وحسنة . ويظهر أن من جامع الذكر أن يحْصل له ذنب من أربعة وجوه : الأول تضيع حق النساء اللاتي تحت حكمه ، ومعصية الله الذي حرم عليه ذلك ، وإفساد الذكر الذي فعل لأنه يتركه ناقصاً عن درجة الذكور للشجاعة وغير ذلك من قوة الرجال ، وأيضاً من وضع منيه في محل لا يرجى منه نسل ومن يرضى لنفسه من المفعولين بذلك لم يتوقف عن ذنب من أنواع الذنوب . وللمناكح في الحلال حسنة على الفعل ، وحسنة على تفريح من هي تحت حكمه منتظرة منيه ، وحسنة عظيمة على قصده أن يرزقه الله من يذكره ويعبده . والذي رأيته في مناظرة النصارى أني إذا قويت نفسي في الرد عليهم كان ينزل علي من عند الله إجلال وتعظيم ، ونعظم في أعينهم بذكر توحيد الله تعالى ، وذكر فضل النبي ﷺ وبطلان تثليثهم . وقد قال الله تعالى : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾[71] . ومهما قصرت من الخوف أو الجزع فكان ينزل علي الذل عندهم ، ولما رأيت ذلك وتحققت وفهمت أن الله سبحانه أراد مني أن نجاهد معهم بقوة ، فكنت أقول لهم ما لا سمعوه من مسلم قط ، وينصرني الله عليهم ، ويقولون لي إن احتجت منا شيئاً نقضيه لك ، حتى أن بعضهم يقول لي ـ عند مدح رسول الله (: وهذاك السيد محمد نبيكم عمل كذا أو قال كذا ، وأجاوبهم بما يلهمني الله المعين العليم الحكيم ، وقد ذكرت يوماً لابرت الذي كان يقرأ بالعربية أن يريني الموضع الذي فيه الحيال حيث يجذبون به الماء من تحت الأرض المسمى عندهم ببنبه[72] ، قال : هو في دار المترهبين ، ومشينا وبلغنا إلى الباب وكان مغلوقاً ويد من عود معلق من حبل ،

---

(71) سورة المائدة ، الآية 73 .

(72) لفظة إسبانية pompa تطلق على الآلة التي يرفع بها الماء ، وهي مستعملة في العامية المغربية .

فجذبه ، وحرك الحبل داخلاً ناقوساً فيه ، فسمع ضربه الموكل وجاء راهب إلى الباب وتكلم من طاقة صغيرة في دفة الباب بعد أن أزاح منها لوحاً صغيراً ، وطلب منه أبرت الدخول ، ولما دخلنا رأينا الحيال والمترهبين يجذبون الماء به ، ورأيت الرهبان باللحا غير مقصوصة ، ما ليس من عادة المترهبين ، قلت لأبرت : هذا الرهبان عندهما أولاد؟ قال ـ هو متعجب كيف تسأل عن أولادهم ـ : أما علمت أن الرهبان لا يتزوجون؟ قلت : رأيتهم بلحا طوال ، فاستدللت (كذا) أنه يكون لهم أولاد وأنا عارف بأمرهم ، قال لي : الدراوش على أنواع . وسأله الراهب عني ، قال له : مسلم من مراكش ، فتعجب وقال : بلغني أن أخي فلاناً شقيقي كان بإصطنبول ودخل في دين التركيين ونفسي تحدثني أن أمشي إلى تلك البلاد نلتقي بأخي ، قال له ابرت : ماذا تريد ببلاد المسلمين؟ قلت للراهب : هل هو أفضل عند الله تعالى ، وعندكم ترك الزواج . قال الراهب : كثير يتزوجون . قلت له : قدر أن السلطان نادى رجلين وأنعم عليهما ، فالواحد قبل نعمة السلطان وشكره عليها شكراً دايماً ، والثاني لم يقبلها ، وذلك أن الله ـ عز وجل ـ زين هذا العالم من أجل بني آدم الذي يعمل قدر جهده ليكون له أولاد ليشكروا الله تعالى بعده على ما أنعم عليه فهو بشاكر ، والذي لم يقصدهم ولا يريدهم فليس بشاكر . قال كثير من يتزوج ، قلت : الزواج سبب في الأولاد لعمارة العالم وعبادة الله ، والشكر عليها ، لأن الإنسان فان ، ثم قلت له : هل في دينكم يوم الحساب؟ إذا سئل إنسان عن عمل صالح تركه أو عمله ، هل ينجو بقوله أنا ما عملته ولكن عمله غيري؟ فتوقف الراهب عن الجواب ، وقال لنا : ادخلوا معي فدخلنا بستاناً . وبينما كنا سائرين في الطريق بين الأشجار رأيت شجرة لم تثمر ، قلت : لماذا غرستم هذه الشجرة؟ قال : لتثمر وتعمل فاكهة ، قلت : إذا لم تعمل فاكهة ما يصنع بها؟ فتبسم ، وعلم أن المثال كان عليه . ثم جزنا إلى قدام ، إلى بين الأشجار غلاظ وطوال جداً ، وظهر لي أن من مثلها يعلمون صواري السفن ، ولما كنا في الموضع بين الأشجار الكبار ، ولم يظهر أحد قالا لي : تعجبنا منك تحفظ الألسن وتقرأ الكتب ، وسرت في المدن وأقطار الدنيا ومع هذا تكون مسلماً! قلت لهم : العجب هو منكم تقرؤون الكتب والعلوم وأنتم من أهل هذه المدينة الكبرى ومع ذلك تقولون على الله تعالى الذي خلق كل شيء وهو واحد قبل كل شيء وبعده أنه

ثالث ثلاث ما لا يقبل العقل أبداً ، وذلك نقصان في حقه تعالى . وقال أبرت : هذا التثليث في الإله لا يعرفه ولا يفهمه إلاّ من قرأ علم المنطق ، قلت : وأنت قرأته ، قال : نعم . قلت له : بين لي كيف هم ثلاثة وواحد ، لأن أهل ديننا لا يقبلون إلا واحداً ، ولا عبدوا إلا إلهاً واحداً ، وفي الحساب أما واحد وأما ثلاثة ، وهم واحد فضدان لا يجتمعان ، قال الراهب : جاني اليوم الآخر إلهام وبيان مقبول يدل على أن سيدنا عيسى عليه السلام كان ابن الله حقيقة ، وكان هو أيضاً إلهاً ، وكتبته أحجب أن آتيك به تسمعه ، قال له أبرت إيتني به ، فمشى سريعاً لبيته ، وأتى به ، وقرأه بالفرنج وعجبتهما ، وقالا هذا شيء عجيب ، قلت له : ماذا قال في ورقته؟ قال الراهب : الله تبارك وتعالى حين خلق الدنيا أمر كل شيء من المخلوقات في الدنيا أن يخرج وينبت ويلد على طبعه ونوعه ومثله ، ورا الله تعالى أن ذلك صلاح ، فعرفت أن هذا القول أخذه من الباب الأول ومن التوراية ، قال لي : ماذا تقول : فهل ذلك صلاح؟ قلت : نعم ، كلما أمر الله تعالى به فهو صلاح ، قال حين رأى الله تبارك وتعالى أنه صلاح ، أن كل شيء يخرج ويلد على كيفه ومثله أراد هو أن يكون له ولد مثله ، قال : ماذا تقول؟ قلت له : على هذا القياس كان سيدنا عيسى يحتاج أن يكون له ولد مثله وابنه يكون له ابن آخر ، فتكثر الآلهة إلى ما لا نهاية لها ، قلت له : ما تقول؟ فبهت ، وبقي بورقته مبطلة غير مقبولة ، وكذبه ظاهر . قال الله تعالى : ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً﴾ [73] ، وذهبنا عن الراهب .

---

(73) سورة الكهف ، الآية 5 .

الباب السادس

في قدومنا إلى قاضي الأندلس بفرنجة بكتاب السلطان

ولما خرجنا من بريش إلى مدينة برضيوش إلى قاضي الأندلس قالوا لنا هو في البلد الذي تخرج إليه الأندلس وهو البلد الأول من بلاد فرنجة القريب للحدود بين فرنجة وبلاد الأندلس ويسمى بسان جوان ذلز(74) ، فمشيت إليه ، وذلك عام عشرين وألف ، وكانوا فيه آخر من خرج من الأندلس ، وذكر لي من جاء بعدهم رجل أندلسي من بلاد الثغر اسمه فَلِشْ : أن كتاب الديوان السلطاني بمذريل قالوا : بلغ نهاية جميع الأندلس بصغارهم لثمان مائة ألف مخلوق ، أكثرهم خرجوا بتونس ، وكان عثمان داي أميراً فيها ، وتكفل أمورهم بالسكنى في المدينة وغيرها في القرى ، وأحسن إليهم غاية الإحسان ـ أحسن الله إليه ـ ومات ـ رحمه الله ـ عام تسعة عشر وألف ، وكذلك الولي الشهير سيدي أبو الغيث القشاش(75) ، كان يعطيهم في كل يوم نحو ألف وخمسمائة قُرصَة من الخبز صدقة ـ جزاهما الله خيراً كثيراً ـ . ولما التقيت بالقاضي كان يشكر لي دينه ، حتى قال لي مراراً : يا فلان ، رأيت أنه يليق بك أن ترجع نصرانياً ، قلت له : على أي مذهب من مذاهب النصارى؟ قال : ليس لنا إلا مذهب واحد ، قلت له : لو كان الله تعالى : يحيي نصرانياً من زمن سيدنا عيسى عليه السلام ، ثم يحيي نصرانياً من كل قرن من القرون الماضية وجميعها ستة عشر قرناً ،

---

(74) Saint-Jean-de-luz .

(75) انظر ترجمته عند المنتصر القفصي ، نور الأرماش ، في مناقب سيدي أبي الغيث القشاش ، مخطوط المكتبة الأحمدية بتونس رقم 3883 .

وقد نشر عبد المجيد التركي الجزء المتعلق باهتمام أبي الغيث القشاش بالجالية الأندلسية بتونس . انظر مقاله : «وثائق عن الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس» ، حوليات الجامعة التونسية ، العدد 4 ، ص . 68 ـ 70 .

فكل واحد منهم يقول لغيره : أنهم كفار لما يرى من الزيادة والنقصان عند غيره في الدين والعقل السالم يحكم بحكم قطعي أن دين الله تعالى لا فيه زيادة ولا نقصان كما هو ديننا . قال القاضي : ديننا كذلك ، قلت : دينكم مفتوح للزيادة والنقصان ، لأن كل باب له أمر عندكم ليزيد وينقص ما يظهر له في الدين ، قال : هذا سيدنا عيسى ، أو كما قال : ذكره الأوائل من الأنبياء ، حتى قالوا إنه لا يكون قبر واحد من الأنبياء معروف حقيقة إلا قبره . قلت له : ذلك قبر نبينا محمد ﷺ . قال كيف ذلك؟ قلت : ليس هو كما تقول النصارى إنه في حلقة من حديد في الهوى في وسط قبو مبنية بحجر المغناطيس الذي من خاصيته يجذب الحديد إليه ، لأنه مدفون في الأرض ، في مدينته ﷺ ، بينها وبين مكة عشرة أيام . قال لي : انظر هذه العافية التي عندنا في بلادنا ، بخلاف بلادكم لأن الأحكام تدل على صحة ديننا ، قلت : ليس أحكامكم وشريعة دينكم مأخوذة من الإنجيل ، إنما شرعكم على مذهب المجوس ، الذين كانوا برومة ، وكتب شريعتكم مترجمة من كتبهم مثل الكتاب الكبير المسمى بِبَلْضُ وغيره . قال : صدقت . وجلسنا هنالك زمناً طويلاً وهو مشغول بالأندلس واحتجت الرجوع إلى بريش . وأما ما قلته للقاضي إن في دين النصارى الزيادة والنقصان في كل زمان فهذا برهان ذلك كما اشترطت في أول الكتاب البرهان والنصوص مما نذكره ، فأما ما يكون من يطبع كتاباً إلا بالأمر من أصحاب الديوان إلى صاحب التأليف . قال كُرْتِشْ المنجم في كتابه ، وأيضاً سَمُرَانُ الإشبيلي ، وقد عرفته في المدينة إشبيلية اسماً وعيناً ، وأيضاً جِبِشْ ، ذكر كل واحد في كتابه ما زاده وما نقص كل واحد من البَّابِسْ .

فأما البَّابٍ ليون : أمر أن النسا يدخلن مغطيات الرؤوس في كنايسهم .

الباب أَلْبِرْتُ أُنَانِي : أمر أن كل نكاح يكون بحضرة قسيس ، وإن لم يكن بحضرته فهو زنا ما لا كان قبل .

الباب إسكندر : أمر أن القسيس لا يصلي إلا صلاة واحدة في اليوم ، وزاد في فرايض الصلاة ، وأمر أن الخمر الذي يشرب القسيس في أثناء الصلاة أن يزيد له ماء ، وأن يجعلوا ماء مباركاً على أبواب الكنائس ؛ انتهى كلامه . وأقول إن فرائض الصلاة القسيس الذي يؤم النصارى أنه يوجد رغيفاً رقيقاً قدر كف الإنسان في

الانشراح مستدرة فيها صورة سيدنا عيسى ﷺ وإذا كان في حال الصلاة التي هي فرض على كل مكلف مرة كل يوم الأحد، وبعض أيام المواسم وبعد أن يقرأ الإنجيل ما يناسب لذلك اليوم لأن كل يوم له جزء معروف من الإنجيل لأنهم قسموا الإنجيل كله ثلاثمائة وخمس وستين جزءاً، لكل يوم من السنة جزء. وبعد أن يقرأ الإمام الجزء لذلك اليوم، وعند قراءته من الكتاب تكون جميع الناس قائمين عُرْيَانِين الرءوس، ثم يأخذ القسيس القرصة ويرفعها فوق رأسه ليراها المأمومون، ويقول كلاماً معناه: «هذا هو جسدي»، وهي كلمة مأخوذة من الإنجيل، لأن فيه أن سيدنا عيسى ﷺ قال للحواريين ـ وهو بخبز في يده ـ: هذا هو جسدي، وقال لهم على الخمر: هذا هو دمي، وإذا رفع الخمر في كأس فوق رأسه فيقول: هذا هو دمي، ويجعل القرصة في الخمر لترطب قليلاً ثم يأكلها، ثم يشرب الخمر كله، ثم يرجع بوجهه إلى الناس ويقول لهم: انصرفوا، فقد أتمت الصلاة. ولا يتوضأ أحد ولا يغتسل أبداً، بل هم متنجسون ظاهراً وباطناً. أما في الباطن فباعتقادهم الشرك، والباطل في الجانب الأعلى وفي أجسادهم وما يلبسونه كله، وإذا كان للمصلي كلب أو كلاب فيسبقونه للكنيسة ولا يردها أحد. وفيها أصنام مصنوعة من خشب، والحيطان بالصور، ولا يدفنون الموتى إلا في الكنايس، وإذا كان الإمام في أثناء الصلاة فيضربون آلات الزَّمْر المسمى بأُرْغَنْشُ، يشتمل على خمس وعشرين زُمْرَة من نحاس أو معدن غيره، وبعضاً منها قدر الخشب. ومعلم يضربها، ولها حس قوي ولذيذ للسمع، وواحد يَصُوطُ[76] كيراً لكثرة ريح لِلْمَزَامِرِ. وقبل أن يتم الصلاة ينزل الإمام من المحراب لأنه مرتفع بدُرُوج، وبيده طرف حرير على طول ذراع ويمشي بين الرجال ويمد لهم الشقة يقبلونها، وصبي وراءه بكأس الدراهم التي يعطونه وإذا فرغ من الرجال يدخل بين النسا، وهن في غاية الزينة، وكل واحدة تأخذ الشقة من يده ويقبلها، ويعتقدون أن الإمام أعطاهم بذلك العافية، ثم يعود إلى محرابه، ويتم الصلوات كما تقدم.

وأما الإنجيل فقدرت فيه ستة وثلاثين حزباً من أحزاب القرآن. وقد ذكرت هذا كله. كما شاهدته، ولتعلموا ما بين هذه عبادة الكافرين وعبادة المسلمين، وأشكر

---

(76) يصوط: ينفخ، والكلمة مستعملة في العامية المغربية.

الله على ما أنعم به علينا باعتقاد الحق، وطهارة الجسد والملبس، والجامع الطاهر النقي من الأوثان، والأدْرَانِ، لأنها من أعظم النقم. وظهر لي أن الله تبارك وتعالى خلق الجنة ومن كمالها خلق جهنم ـ نستعيذ بالله منها ـ قال الله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾[77]، وذلك كمل، لقيمة الجنة عند المؤمن، لأن برؤية جهنم يرى ما منحه الله، وما أنعم به عليه من نعائم الجنة ومما نجاه ويزيد في الشكر عليها، وكذلك على ما نجاه من النار، وكذلك من يرى الكفر فيشكر الله تعالى الذي نجاه منه، وعلى هدايته للإيمان وعلى توحيده.

وأما الباب الرومي شِشْطُ: زاد صلاتهم كلية. واحدة تقال ثلاث مرات.

الباب طَلَشْ أونَاني: افترض الصيام ما لا كان قبل زمانه وأن القسيس يصلي ثلاث صلوات يوم ميلاد عيسى عليه السلام وزاد ما يغنى به في بعض الصلوات.

وباب آخر: أمر من كان قسيساً أو راهباً يقص لحيته.

وباب آخر: أمر أن الكأس الذي يعملون فيه الخمر عند الصلاة لا يكون من زجاج كما كان من قبل، إلا من فضة.

وباب آخر: أمر أن إذا دعي على نصراني في الأحكام إذا كان الداعي على غير ملة النصارى أن لا تقبل دعوته.

وباب آخر: أمر أن لا يصوم أحد فرضاً ولا سنة يوم الأحد ولا يقوم الخميس. ثم فسح الأمر.

وباب آخر: أمر أن بعد قراءة الإنجيل في بعض الصلوات تقرأ عقيدة الشرك التي هي فرض على كل مكلف حفظها قال سمران وغيره من المؤلفين: إن الذي عمل العقيدة كان الطَّنَاشي اسمه، رجل قسيس، بعد سيدنا عيسى بسنين كثيرة.

الباب مَرْكُ الرومي: أمر القضاة في الأحكام أن لا يقضوا على قسيس، إنما يكون للقسيسين قاضياً منهم.

باب آخر: أمر أن القسيس الإمام يعطي الصلح بين الناس وتقدم ذكر الفعل كيف كان.

---

(77) سورة مريم، الآية 71.

والباب بِجِلّي الرومي : أمر أن تسمى الصالحة مريم بأم كذا ، وألا تسمى إلا بذلك الاسم ، فسميت بذلك إلى الآن عند النصارى والتابعين له ـ لعنهم الله وخذلهم ، تعالى عن قولهم علواً كبيراً ، وكان ذلك بقرب نصف المائة الخامسة من ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام ، ولما اشتهر هذا الأمر الشنيع بهذا الاسم الذي لم يكن قبل وعمل به عند القوم الكافرين بعث الله تعالى سيدنا ومولانا محمد ﷺ بالقرآن العظيم ، ودين الصراط المستقيم ، وكذبهم فيما قالوا وافتروا ، ونزل في قلوبهم الرعب والخوف من المسلمين ـ نصرهم الله تعالى عليهم ـ ، فكم بلد أخذوا من بلادهم . وهذا ألف سنة بعد النبي ﷺ وأكثر معمور الدنيا للمسلمين ، نسأل الله العظيم أن يقوي الإسلام عليهم ، حتى يأخذوا ما بقي لهم ، وأن يكون ذلك فيما هو قريب ، بفضل سيدنا محمد الشفيع الحبيب ، الذي زُوِيَت له الدنيا ورأى البعيد والقريب ، إنه سميع مجيب . وتقدم لنا أول ولادة النبي ﷺ كانت لإحدى وعشرين سنة وست مائة على حساب سيدنا عيسى ، ونظرت الحساب الذي أمكنني ووجدت ولادة النبي ﷺ في نحو الخمس مائة وثمانين بتقريب أو أقل ، وذلك في القرن الذي أشْهَرَ بِرْجِلِّي اللعي ، وسمى الصالحة مريم بأم كذا[78] وليس بين ما أمر به وولادة النبي ﷺ إلا نحو الأربعين سنة بتقريب .

وأعلم أن تسمية سيدنا عيسى عليه السلام بابن الله لا يفهم منه في الإنجيل أنه ابن الله حقيقة ، إنما يفهم نبي مقبول عند الله تعالى[79] ، وقد قرأت في الإنجيل أن واحداً من الحواريين قال لسيدنا عيسى : أنت ابن الله حقيقة ، قال له سيدنا عيسى : أنت قلت ، ولم يقبل منه ذلك . وأما الإنجيل الذي كتبت منه هذه النصوص فحذفوا منه ذلك . وتقدم أن شيئاً من الإنجيل ترجمت من الرق . وقال لي القسيس هذه الكلمة مختلفة لما عندنا اليوم . وهذا دليل أنهم يزيدون وينقصون في إنجيلهم وكتب دينهم ، وبرهان ما قلنا أن سيدنا عيسى كان ابن الله كعباد الله الصالحين . قال في الباب الخامس من الإنجيل لمتى : قال سيدنا عيسى عليه السلام للحواريين : فليضيء نوركم قدام

---

(78) كتب في الطرة : (الله) ولعله أنف أن يذكر عبارة «أم الله» .

(79) كتب في الطرة : قال في التوراية وأيضاً في الإنجيل أن كل من كان صالحاً يسمى ابن الله تعالى .

الناس ليروا أعمالكم الصالحة ، ويمجدوا آباءكم الذي في السموات . وقال في الفصل التاسع : أحسنوا إلى من أبغضكم وصلُوا من يطردكم ويغتصبكم ، لكيما تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماء فهو كامل . وقال في دعاء عندهم ـ كالفاتحة عندنا ـ ، وهو في الإنجيل أن يقولوا : أبونا الذي في السماء ، فهذا ظاهر أنه سمى الصلحاء ، بل جميع الناس أبناء الله تعالى الذين يدعون بالدعاء الذي قال لهم أن يدعوا به وهو : أبونا الذي في السماء . وبأن من هذا أن سيدنا عيسى عليه السلام كان هو ومن معه يعتقدون أنه مخلوق ، نبي ، وهو بنفسه يعتقد أن من كان صالحاً كان ابن الله . وهذا البّابّ الملعون الذي أمر أن الصالحة مريم لا يكون اسمها عند النصارى إلا أم كذا ، فهو بخلاف ما في الإنجيل ، ولم يتجاسر أحد قبله أن يقول مثل ما قال هو ، وبهذا يثبت ما قلته للقاضي على الزيادة والنقصان الذي في دين النصارى حين دعاني لدينه مما زاد البّابّ ونقص . والباب مفتوح الآن لذلك .

وقال متى في الإنجيل : قال عيسى انظروا لا يضلكم أحد ، لأن كثيرين يأتون باسمي يقولون : أنا هو عيسى ويضلون ويخدعون كثيراً ، وهذا القول في الفصل الرابع والعشرين ، وقد طالعْت ببلاد الفَلَمِنْك[80]، وغيرها كتاباً بالنصوص من التوراية والكتب القديمة ، ودلت على أن البابا هو الدجال المذكور أنه يأتي في الدنيا وهذا لما رأوا من قبيح فعله ، وأما الدجال ما زال ما ظهر ، وكنت أسمع أن واحداً من الباب كان امرأة زانية وحملت وفضحها الله ، ولم نتحقق ذلك إلى أن طالعت كتاباً قديماً مكتوباً بالقالب وصحح ذلك ، ثم كتاباً آخر وذكر مؤلفه أنه طالع اثنا عشر كتاباً من كتبهم ، وذكر كل كتاب باسم مؤلفه ، والحكاية في كل واحدة واحدة ، وتركت أسماء الكتب للاختصار . والذي ذكروا فيما قرأت أن ببلاد الإنجليز كانت بنت نصرانية اسمها جِلْبِرْت[81]، وزنى بها رجل من أكابرهم في العلم ومشى بها إلى مدينة أَطِناش ببلاد اليونان ، وأخفت نفسها بلباس الرجال وسميت بِجوَانْ[82]،

(80) Flandres (هولندا) .

(81) يقصد Alias Jilberta .

(82) Juan .

وبلغت في العلم مبلغاً عظيماً . وبعد سنين جاءت إلى مدينة رومة والناس يقرؤون العلم عليها إلى أن مات الباب المسمى بليون ، وذلك سنة اثنين وخمسين وثمان مائة من حساب سيدنا عيسى عليه السلام فتولت هي الكرسي وصارت باب من الذين يعتقدون فيه أنه إله الأرض يغفر الذنوب للناس ، هو جميع أييمة دينهم ببركته . وكان لها مملوكاً أو خديماً ، وحملت منه ، ومشت يوماً لزيارة موضع يسمى لِتْراً - أعني كنيسة - ومعها خلق كثير ، فأخذها وجع النفاس ووقفت والناس معها إلى أن ولدت . ولما سمعوا عياط(83) المولود بان لهم ما كان مخفياً عنهم ، وماتت في الحين . ونزل بجميع النصارى والقسيسين والرهبان حزن وخزي وذل عظيم . والزمن الذي كانت فيه التولية قدر سنتين وكذا وثلاثين يوماً . واجتمع كبراؤهم في الديوان ، ودبروا تدبيراً جديداً لئلا يقع لهم مثل ذلك ، أنهم إذا عينوا بابّ يأتوا إله الشهود العدول ، ويقلبونه ، ويشهدون عليه أنه ذكر . وأما الزنقة التي ولدت فيها فلا يجوز عليها أحد من البابّ .

(83) عياط : الصراخ ، والكلمة مستعملة في الدارجة المغربية .

الباب السابع

في رجوعنا إلى مدينة بِرِيشْ، وما اتفق لنا فيها

ولما رأيت أن بَرَاوَاتْ[84] السلطان ما قَضَيْتُ بها شيئاً، وأن كثيراً من الحَوايجِ من إحدى سفننا كانت منزلة آمنة، ولينا إلى بِرِيشْ نطلب أمر السلطان أن يدفعوا لنا حوايجنا، وولى أيضاً قاضي الأندلس إلى بريش، ومشيت يوماً إلى داره قبل غروب الشمس نطلب منه بعد المواجب. قال القاضي: أتحب أن تتعشى عندنا؟ قلت: لا يجوز لي بعض طعامكم، قال: ما نعطيك إلاّ ما يجوز في دينكم، وعندنا ضيف من أكابر المملكة، ونحب أن تكون عندنا، وكانت ليلة مولد النبي ﷺ، من عام إحدى وعشرين وألف وفهمت منه أنه أحب الكلام في الأديان ليشرح للضيف، لأن كبراء الفرنج يفرحون بالمسائل الغريبة. فدخلت معه، وأعطوني كرسياً مثل كراسيهم، والمايدة بيننا، وحَمَاةُ القاضي قاعدة، وكانت مَوْلَةُ[85] بلد يسمى أُلْطِرِ، وابنها قاضي، وأخوها قاضي، أيضاً الرجل الكبير الشأن قاعد مع الجميع، وقالوا للضيف: هذا رجل تركي، لأن الفرنج لا يقولون للمسلم إلا تركي، وذكروا له السبب الذي ألْجَأنِي للقدوم إلى بلادهم وغير ذلك مما ظهر لهم، والمَرأة تَرْفُدُ[86] من الطعام وتضعه قدامي، وأيضاً أخوها وابنها. فالقاضي ابتدأ بالكلام، أعني قاضي الأندلس، وقال لي: هل عندكم صيام في دينكم فرض؟ قلت له: عندنا شهر قمري في العام، قال لي: كيف هو صيامكم؟ قلت له: نمسك عن الأكل والشرب من انشقاق الفجر إلى غروب الشمس، قال: نحن عندنا صيام فرض في كل سنة أكثر من صيامكم، وهو تسع وأربعون يوماً متوالية، قلت له: كيف هو صيامكم؟ وأنا عَارف به، قال: نأكل

---

(84) بروات جمع (برا): أي الرسالة، والكلمة مستعملة في الدارجة المغربية.

(85) مولة بَلد: صاحبة بلد، والكلمة مستعملة في العامية المغربية.

(86) ترفد: تأخذ، والكلمة مستعملة في العامية المغربية.

في نصف النهار معتدلة ، ثم نمسك عن الأكل إلى الليل ، وفي أوله نأكل أقل طعاماً مما أكلنا في نصف النهار ، قلت له : ما السر في الصوم والمراد به؟ لأننا في ديننا هو لنرد النفس عن الشهوات ، ونزيل من قوتها بالصوم ، قال لي : ونحن كذلك ، قلت له : بل تزيدون في قوتكم بهذا الصيام ، قال لي : كيف ذلك؟ قلت له : قال بُقْرَاطْ وجَالِينُوسْ وابن سينا ، وجميع الأطبا متفقون معهم أن لحفظ الصحة ينبغي أن يأكل الإنسان في نصف النهار أكثر مما يأكل في الليل ، وصيامكم على مقتضى هذه القاعدة فلا يزيل الصايم شيئاً من قوة الجسد بل يزيد فيه قوة لأن من حفظ الصحة تزداد القوة . وتكلم القاضي مع الجميع بالفرنج لأنه كان يعرف كما قلنا اللسان العجمي الأندلسي ، وهم يدبرون بينهم ماذا يقولون لي؟ ثم قال : اعلم أننا في أيام الصيام ما نأكل لحماً ، وفي غيره نأكل لحم الدجاج ، ولا يخفى أن لها قوة ، لا سيما الخصيءُ منها له قوة ، قلت له : نعم ، لحم الدجاج له قوة وغذاء نافع والقليل منه يكفي الإنسان ، وإذا لم يكن اللحم ، ووجد أطعمة كثيرة مثل هذا الذي رأيته بين أيدينا هنا فيأكل الإنسان من كل نوع حتى يصل إلى قوة اللحم في الغذا ، ولكن في أكثر مقدار من الطعام ، وكان ذلك في أيام صيامهم . فأخذوا في الكلام فيما بينهم لعلهم يجدون ما يقولون ، وما اتفق لهم شيء لتقوية حجتهم ، وانتقل إلى مسألة أخرى ، وقال : ما السبب حتى منعكم نبيكم الخمر؟ قلت : منعه الله تعالى لأن أفضل ما تكرم به على بني آدم هو العقل ، والذي يزيله هو الخمر وهو أقبح المسائل كلها ، قال : حتى عندنا هو ممنوع أن يشرب الإنسان منه حتى يسكر ، قلت : ظهر لي أنه ممنوع لكم في الإنجيل ولا انتبهتم له ، قالوا : في أي موضع؟ قلت : في الدعاء الذي أمركم به سيدنا عيسى عليه السلام أن تدعو به ، وأوله : أبونا الذي في السماء إلى أن تقولوا : ولا تدعنا نقع عند فتنة النفس ، وآخرون يترجمون : «ولا تدخلنا التخريب» ، وهم الأكثر ، والأول عندي هو الصحيح ، قالوا : عندنا هذا ، قلت : هل يجوز أن تأخذ الفتنة بيدك ، وتطلب أن لا يدع تقع عندها؟ لأنك إذا زدت من الخمر قليلاً عن العادة يذهب بالعقل ، وإذا ذهب وقعت في الفتن ، مع طلبك الله أن لا يدعك تقع ، قال : نحن نتحفظ في شربنا حتى لا يذهب العقل ، قلت لهم : عندي أن من هو مثلكم قضاة ، وعلماء ، ومن أكابر الناس ، إن الإنصاف للحق موجود عندكم ، والبعد عن

الكذب والباطل ، وإلى هذا تحلفون بدينكم أنكم ما زدتم قط من شرب الخمر حتى ذهب بالعقل . وتكلموا بينهم وضحكوا جميعاً ، وبضحكهم اعترفوا بما رأوا من نفوسهم مراراً من الوقوع في الفتنة بكثرة الشرب ، وأخذت المرأة كأساً ووضعت فيه نقطة خمر وزادت عليه ماء كثيراً وقالت لصهرها : قل له : أي قوة للخمر مع هذا الماء؟ قلت : أما هذا الكأس ظاهر أنه ليس فيه من الخمر إلا قليلاً ، وأما في بعض المرات ما يجعل معه إلا قليلاً من الماء ، وضحكت كأنها اعترفت . قلت لهم : طالعت كتاباً من كتبكم بالعجمية ، وقال فيه : إن في مدينة كبيرة أظن أنها بإطالية من بلاد النصارى تُعين الناس حكاماً لسنة كاملة ، وإذا انصرمت يجعلون غيرهم في المنصب لسنة أخرى ، وعندهم قاعدة ، وأمر معمول به : إن كل من يحكم بين الناس لا يشرب خمراً ما دام في سنته ، وهذا أمر ظاهر وباين أنهم منعوهم من شربه قليلاً ولا كثيراً إلا لما فيه من المفاسد لشاربيه ، وللناس الذين يحكمون عليهم ، قالوا : هذا حق ، ولكن هو مباح إذا لم يتعدى في الشرب . قالت المرأة لصهرها : قل له : كيف أباح لكم نبيكم أن تنكحو أربع النساء ، ومنعكم الخمر . والمفهوم من كلامها واعتقادها أن الخمر يزيد قوة للجماع . قلت لها الخمر يزيد لشاربه أمراضاً ونعاساً ، وشارب الما يعيش صحيحاً ، قلت لهم : قرأت في الإنجيل أن النبي زكريا عليه السلام جاء ملك من عند الله ، وقاله له : قد قبل الله دعَاءك ، وامرأتك اليَصَبَاتُ تلد ابناً لك يدعى باسمه يوحنا ، ويكون لك فرح عظيم وتهليل كثير ، يفرحون بمولده ويكون عظيماً قدام الرب لا يشرب خمراً ولا مسكراً ، قلت : هذا عندكم في الإنجيل ، قالوا : نعم ، هكذا هو ، قلت لهم : هذا الذي أخبر به الملك من عند الله تعالى أنه لا يشرب خمراً ولا مسكراً هو كمال في حق الولد أم نقصان؟ قالوا : إنما ذلك كمال فيه ، قلت لهم كذلك هو كمال في ديننا أن لا نشرب خمراً ولا مسكراً . فحينئذ أخذوا في الكلام فيما بينهم وقالوا لي : نحن رأينا رجالاً من أهل دينكم ، وتكلمنا معهم ، ولم نر قط من قال لنا مثل هذا الكلام والأجوبة التي رأيناها وسمعناها منك ، قلت لهم : اعلموا أنني ترجمان سلطان مراكش ومن كان في تلك الدرجة يحتاج يقرأ في العلوم وكتب المسلمين وكتب النصارى ، ليعرف ما يقول ، وما يترجم بحضرة السلطان . وأما إذا كنت بحضرة علماء ديننا لا أقدر أتكلم في العلوم بحضرتهم . حينئذ أردت أن أقوم

لنذهب إلى الدار التي كنت نازلاً بها ، وقالوا لي : لا تقم نحن نبعث معك خدامنا ، واقعد معنا للكلام ، قالت المرأة : كيف أباح لكم نبيكم أن تنكحوا أربعة نساء والله تبارك وتعالى لم يعط لأبينا آدم عليه السلام إلا امرأة واحدة . ولما رأى القضاة الحاضرون أن هذه المسألة عقلية أعانوها وتقووا علي بهذه الحجة ، قلت لهم : أمنا حوّى ظهر فيها بركة أكثر مما تظهر في أربعة نساء من زماننا ، لأنها ولدت كذا وكذا مرة ذكوراً وإناثاً ، ونساء زماننا إحدى تكون مريضة ، وأخرى عاقرة ما تلد أبداً ، ومثل الأغراض كثير فيهن ما لا كانت في أمنا حوّى ، قالوا : سيدنا عيسى عليه السلام أمر أن لا يتزوج الرجل إلا امرأة واحدة ، وأنتم تأخذون أربعة ، قلت لهم : الأنبياء الأوايل ـ عليهم السلام ـ مثل سيدنا إبراهيم ، وسيدنا يعقوب وغيرهم ، في أي مقام هم عندكم . قالوا في مقام محمود ومرضيين عند الله تعالى ، قلت : كيف كانت لهم نساء كثيرة ، وجواري كما في ديننا ، وكان لسيدنا سليمان عليه السلام سبعمائة امرأة بالنكاح وثلاثمائة جارية كما هو في التوراية ، قالوا : تلك الزمن أبيح ذلك ليكثر النسل ، والآن الدنيا عامرة ، قلت : قرأت في التوراة في كتب التواريخ أن بعض السلاطين في الزمن الأول كانوا يحركون بثمانمائة ألف رجل ، جيشاً ، والآن ليس في الدنيا سلطان من يجمع للحرب ذلك العدد إلا السلطان السيد الكبير . وهذا برهان أن الدنيا كانت عامرة . ثم قال لي القاضي : ولحم الخنزير ، لماذا هو ممنوع عندكم؟ قلت : لأنه نجس ، لأنه لا يأكل إلا النجاسات ، وحتى في الإنجيل هو ممنوع ، قالوا : ليس بممنوع ، وأين المنع في الإنجيل؟ قلت : قرأت فيه أن مجنونين كانا في المقابر ، رَدِيَانِ جداً حتى أنه لم يقدر أحد أن يجوز من تلك الطريق فصاحا قائلين : ما لنا ولك يا يصوع ابن الله! أجئت ها هنا لتعذبنا؟ وكان هناك قطيع خنزير كثيرة ترعى بعيداً منهم فطلبا إليه[87] الشياطين قائلين : إن كنت تخرجنا من ها هنا فارسلنا إلى قطيع الخنازير ، فقال لهم : اذهبوا! ولما خرجوا مضوا ، ودخلوا في الخنازير ، وإذا بقطيع الخنازير كله قد وثب على جرف وتواقع في البحر ، ومات جميعه في المياه ، وهرب الرعاة وكانوا نحو ألفين ، قلت لهم : الأنبياء عليهم السلام ـ كانوا يُخَسِرُونَ الناس في أموالهم؟ قالوا : لا ، قلت لهم : هذا

(87) كتب فوق كلمة (إليه) كلمة (منه) .

نحو ألفي خنزير تساوي دراهم كثيرة ، وإذن سيدنا عيسى عليه السلام في إفنائها وتلفها ، وأن أربابها يخسرون قيمتها لأجل الخنازير كانت عنده حراماً ، ولو كانت من المواشي المباحة لم يأذن سيدنا عيسى عليه السلام للجنون بالدخول فيها لإفسادها وهلاكها . فأخذ القضاة في الكلام والتدبير في الجواب ، ثم قالوا : لم تبلغ هذا العدد الذي ذكرته ، قلت : هذا الذي قرأته ، فأحضر الإنجيل ، فوجدوه كذلك . وقد ذكر هذه المسألة في موضعين في الإنجيل ، في الفصل الخامس عشر لمرقش ، وهو الذي قال : كانوا نحن ألفين . ثم أنهم أخذوا في الكلام ، ولم يجدوا ما يجاوبوا به ، وكان قد مضى من الليل نحو نصفه ، فانصرفت إلى منزلي ، وبعثوا معي خدامهم ورأيتهم فارحين شاكرين لي ، ولم يسمعوا مني إلا ما ذكرت ، وكل ذلك عكس دينهم .

وأصبحت يوماً آخر ومشيت إلى القاضي ، وأعطاني المواجب وما أخذ مني شيئاً من الدراهم فيها ، ثم أبصرتني المرأة التي كانت معنا للكلام ، ورعت أن لا يراها أحد وأعطتني دراهم ذهباً ليس بالقليل ، وذلك من فضل الله والجهاد على الدين ، وبركة يوم مولد النبي ﷺ . ومما ذكر لي أُبِرْتُ أن بلداً يسمى شَانْدِيُنْشِي[88] على بعد ستة أميال من بريش في دار عظيمة للمتراهبين ، ذخاير وتيجان للملوك ، وغير ذلك للسلاطين الماضيين ، والأساكفة ، ومن جملتها كأس بلور كبير مكتوب بالعربية ، والحروف مرسومة مصنوعة في وسط الكأس ، وأنه كان سيدنا سليمان بن داوود نبي الله ـ عليهما السلام ـ ، قلت له : أحب أرى ذلك ، وسرنا وبلغنا إلى الدار وكان فيها أناس جاءوا من بلادهم لرؤية الذخاير ، وصعدنا جميعاً إلى بيت مرتفع ، وجاء رجل وفتح الخزانة التي كانت فيها الذخاير ، وأخذ تاجاً من ذهب وتكلم عليه وقال : هذا تاج السلطان الفلاني ، ثم قبض آخر من التيجان ، وذكر من كان ، وبقي كذلك يأخذ تاجاً بعد تاج وهي بالأحجار المثبتة والضِّيَمَنْتِ[89] ، والياقوت النفيسة . ثم أخذ كأساً بلور على طول ذراع الإنسان ، وموضع قبضه في الوسط أو أنزل منه ، حزام مكتوب بالعربية ، بخط مثل الكوفي ، منقوشة فيه وقبضته بيدي ، وقرأت في

---

(88) Saint-Denis .

(89) يريد Diamant ، ألماس .

المكتوب اسمين من أسماء الله تعالى : (هادي) - (كافي) ، ولو تركه عندي لقرأته كله . وسد على الذخاير ، وتعجبت مما اتفق لي بأخذ كأس سيدنا سليمان عليه السلام بيدي ، وأيضاً الرق الذي تقدم نذكره من زمن سسليوه ، كاتب الصالحة مريم - عليها السلام - وبعض الكتب في ورض الرصاص من تلك الزمن ، وانظر العربية ما أقدمها ، وأي حرمة لها حتى أن نبي الله سيدنا سليمان عليه السلام لم يختر إلا حروف العربية ، وأسماء الله مكتوبة بها في الكأس ليضع يده عليها عند قبضه . والكلام بالعربية لمن يعرفها خير من الكلام بغيرها من اللغات كما ذكر النبي ﷺ أنه كان يحبها .

وأما الذي قضيت في بريش أعطوني كتاب السلطان بطابع الديوان الكبير للحكام على كافة الدواوين التي ببلاد الفرنجة والأمر أن جميع ما يجد من نهب الأندلس أن يدفعوه لي . وذكر قايد طابع السلطان أن في بلده بأُولُونَهْ واحد وعشرين رئيساً ، كل واحد بسفينته نهب الأندلس الذين اكتروها ، وكان فيهم واحد من الذين نهبوا إحدى السفن التي كانت لي الوكالة عليها ، واتفقنا أن نمشي معه من بريش .

الباب الثامن

في قدومنا إلى أُولونهْ، ثم إلى مدينة بُرْضِيُوشْ

ولما رأيت ما أظهر من النصيحة إلينا قائد الطابع ، مشينا إلى بلده ، ولما أن وصلنا إلى داره وكانت خارجاً عن البلد على قرب نهر ، وهي مانعة كبيرة ، مبنية بالحجر المنجور ، وفيها بعض المدافع وبقربها بستان كبير وغابات ، وبلاد واسعة للزرع ، كل ذلك للقائد المذكور . وأقبلت علينا زوجته وخدامها من البنات والرجال . وكانت في تلك الديار بنت من قرابته ذات مال عظيم مما ترك لها والديها ، وهي من أربع وعشرين سنة ، ولها من الحسن والجمال كثير ، وطلبها للزواج كثير من أكابر أهل بلادهم ، ولم ترض بأحد منهم . وقدموا لي مع أصحابي طعاماً ، فلم نأكل منه . قلت لهم : هذا ممنوع في ديننا . ثم أعطوني ما ذكرنا لهم . ثم جاءت البنت ، وقالت لي أن أصف لها حال النسا التي هن غاية الحسن والملاحة عندنا ، وذكرت لها ما تيسر . قالت : أنتم على الحق وذلك أنها كانت بيضا بشيء من الحمرة ، وشعرها أسود ، وشعر الحواجب ، وأشفار العين ، وكحل العين في غاية . والمرأة عند الفرنج على هذه الحالة مهمولة عندهم في الحسن ويقولون أنها سودا . وقد كنت أذكر لأصحابي بعض الحكايات فيما وقع للرجال الصلحاء الواقفين على الحدود ، لنقويهم على نفوسهم ونفسي على دعاوي النفس والشيطان في شأن المحرمات ، لأن بسبب الحريم المكشوف كان الشيطان يوسوسنا كثيراً وكنا صابرين ، وكانت البنت تزين نفسها وتسألني : هل في بلادنا من يلبس لباسات الحرير مثلها؟ ثم قالت : لي : أعلمك تقرأ بالفرنج . وصرت تلميذاً لها ، وأخذت في إكرام أصحابي . كثرت المحبة بيننا حتى ابتليت بمحبتها بلية عظيمة ، وقلت : قبل ذلك كنت في خصام مع النصارى على المال ، وفي الجهاد على الدين ، والآن هو الخصام مع النفس والشيطان . فالنفس تطلب قضا الغرض ، والشيطان يعينها ، والروح ينهي عن الحرام ، والعقل يحكم بينهما ، ومن الناس من يعبر بالقلب عن الروح . فالنفس تستعين بالشيطان لأنه من طبعها ، وهو

طبع النار : الحرارة واليبوسة ، ولا يوسوسان الإنسان أن يعمل إلاّ ما يكون من أعمال أهل النار ، والروح تستعين بالله تعالى . وقد قال إبليس ـ عند استنفاره عن السجود سيدنا آدم عليه السلام : خلقني من نار . وحيث هي النفس والشيطان من طبع النار فهما يتبعان الإنسان ليذهب إليه معهما . ولما علم الشيطان أن ليس له قوة على الإنسان إلا ليوسوسه فقط وأن الوسوس يرده الإنسان تارة بلا تعب ، وتارة يحتاج الدعا إلى الله تعالى ، وكنت أخرج إلى بين الأشجار ، وأدعو الله تعالى أن يثبتني ، فمشى إبليس إلى صاحبي وكان أكبرهم سناً من أصحابي ، ووسوسه ، واتفق معه أن يكلمني في شأن البنت ، وكنت أخفي ما أصابني من الهم ـ بسبب البنت ـ من أصحابي ، لئلا يظهر لهم ضعف مني ، إذ كنت أقويهم أن يغلبوا نفوسهم عن النسا المحرمات ، والميل لهن . فجاءني صاحبي على وجه السر والنصح ، وقال لي : يا سيدي ، أصابني تغيير بسبب الناقصة التي رأيتها منك ، قلت له : أذكر لي ما رأيت مني لعلك تنفعني ، قال : هذه البنت ما يخفى حالها وهي تعمل الخير الكثير معنا بسبب محبتها إليك إذ هي ظاهرة ليست بخافية وأنت تعرف العادة الجارية في هذه البلاد أن الرجل يمد للبنات ويلعبها ، وليس بعيب عند أحد من هذا الناس ، وهي تقف أمامك مراراً قريباً منك تنتظر أن تلاعبها ، وأنت لا تفرحها ، ولا تشرحها . قلت في نفسي : هذا أقوى من الشيطان . قلت : يا صاحبي هذا عندنا في ديننا أمر بالمنع من ذلك . والنص هو : والتكف عن ما لا يحل لك من مال أو جسد . وهذا جسد ليس بحلال لي ، قال : لا أقول لك إلا أن تلعبها فقط ، قلت له : قال صاحب البردة :

فـلا ترُمْ بالمعـاصي كـسْـر شـهـوتهـا
إن الطعـام يُقـوّي شـهـوة النّهِم[90]

قال : ما معنى هذا؟ قلت : الذي يفهم من المعنى حسبما سمعت . لا تحسب أنك إذا أعطيت للنفس القليل مما تشتهي من الحرام ، إنها تقنع بذلك ، بل تزداد

---

(90) البردة ، البيت 17 .

شهوتها ، وتتقوى عليك وتغلبك حتى تفعل من الحرام أكثر مما قصدت . ومثال ذلك أن الإنسان إذا كان صايماً فهو صابر على الطعام حتى يبتدي بالمأكول ، تتقوى شهوته عليه ، أن يأكل حتى يشبع ، والأحسن والأفضل مخالفة النفس والشيطان وأن يعصهما . فلا نفع مع صاحبي من كل ما قلت له شيئاً ، لأنه جاء من ورائي والبنت واقفة تتكلم معي ، وأدْحَانِي[91] إليها ، وحين ذهبت خاصمته على حمقه ، وسألتني : هل عندي امرأة في بلادي؟ قلت لها : عندي ، ثم قالت : وتتزوجون أكثر من امرأة؟ قلت لها : جائز ذلك في ديننا ، ثم قالت : هل عندك أولاد؟ قلت لها عندي ، وقلت في نفسي : حين علمت ذلك تنقص المحبة ، فلم تنقص شيئاً ، ورأيتها يوماً زينت نفسها وكانت ترعاني ، وليس لي خبر بما أضمرت ، وسرت إلى الجنان . والبساتين بتلك البلاد ما لها حيطان لِلتَّحْوِيطِ ، بل يحفرون خندقاً دايراً بالبستان ، غريقاً لمنع الناس من الدخول إليه إلا من الباب . وسمعتها تنادي ، فجئت من داخل الجنان إلى حاشية الخندق ، وهي واقفة على الحاشية من الجهة الأخرى ، وطريق صغير هابط إلى قعر الحفرة وطالع إلى الجنان . والخندق الكل عامر بالأشجار البرية حتى لا يظهر قعره إلا في بعض الموضع . فتكلمنا هنالك ، وفهمت من حالها ما لا يخفى وتكلم بعض أصحابي في الجنان وقرب من جهتي ، وذهبت ، وفكني الله بفضله ، وإحسانه ، وحمايته ، وتوفيقه الجميل . وأستغفر الله من الكلام الذي صدر مني إلينا والنظر . إنه غفور رحيم . إن الله يغفر الصغاير باجتناب الكباير . وقد جَاتْ بنت من أكابر الفرنج من مدينة فُنْتَي إلى زيارة صنم بقرب المنزل الذي كنا فيه . وبعد زيارة جاءت إلي امرأة القائد ، والبنت التي فرغنا من الكلام عليها . فأقبلوا عليها . وبعد الطعام نادوني ، وأعطوني كرسياً ، وجلست ، وزوجة القائد عن يميني ، والبنات قبالتي ، والتي جاءت إلى الزيارة كانت أجمل وأزين من التي كانت في الدار ، وفي حال لباسها ظاهرة أنها من الأكابر . ومعها بنتان تخدمانها . وقبل أن نادوني أعلموها بي . ولما جلست نظرتني شزراً ، وأظهرت في وجهها الغضب ، وقالت لي : أنت تركي؟ قلت لها : مسلم ، الحمد الله ، قالت : كيف بكم لم تعرفوا الله؟ قلت لها :

(91) أدحاني إليها : دفعني إليها ، والكلمة مستعملة في العامية المغربية .

المسلمون يعرفون الله خير منكم ، قالت : خير منا ، قلت لها نعم قالت لي : بما تثبت ذلك؟ فنظرت إليها ، ورأيت تحت إبطها كتاباً كما هي من عادة بنات التجار والأكابر من الفرنج ، كل واحدة تحمل كتاباً ، مثل تهليل ، وفي كل واحد خمسة أدعية أو سور ، التي هي فرض على كل بالغ حفظها . قلت لها : البرهان بما قلت في كتابك الذي عندك ، وبه تثبت ما قلت لك . فأخذت الكتاب ووضعته بين يدي على المائدة ، وقالت : ها هو الكتاب . قلت لها : انظري العشرة الأوامر الربانية . ففتشت في الكتاب ، وقالت : ها هي . قلت لها : اقرأي الأمر الأول من العشرة في دين الله فقرأت ، وقالت : الأمر الأول من العشرة : قال الله تعالى : لا تعمل صوراً ، ولا تعبدها ، اعبد الله وحده . ولما أن قرأته قلت لها : المسلمون ما يعملون صوراً ولا يعبدونها ويتحفظون من ذلك حتى أن النسا اللاتي تَرْقَمْنَ لم تصورن في رَقْمِهَا أبداً شيئاً له روح ، وكذلك الرسامون الذين يرسمون ويزوقون ديار الملوك والجوامع ، ولم يصوروا أبداً شيئاً فيه روح . قالت : ليس عبادتنا للأصنام لذاتها ، إنما ذلك للمشبه به . قلت لها : كان لي كلام أقوله لك في الشبيه والمشبه ، ولكن اتركه لنحرك لمسألة أخرى لن تجدي لها جواباً . قالت : ماذا هي؟ قلت لها : الأمر الرباني بالنص قال : لا تعملوا صوراً ، ولا تعبدوها ، قالت : نعم ، قلت لها : تعملون أصناماً أم لا؟ ، فكان لها إنصاف للحق وعقل ، ونظرت النسا ، وقالت لهن بلسانهن : غلبني وما وجدت بما نجاوبه به ، فنظرت إليها ، ونزل بها فرح وانشراح ، كأن زال من قلبها غشاء . وأقبلت علي بحسن الكلام ، وذهب عنها الغيظ والغضب الذي كان فيها للمسلمين ، وقالت لي كم سنة الذي ظهر في الدنيا نبيكم؟ وهل هو تاريخ السنين من ميلاده كما هو عندنا من ميلاد عيسى عليه السلام؟ قلت : بلغ حساب تاريخ أهل ديننا في هذه السنة إحدى وعشرين ألف من الهجرة ، وهي السنة التي خرج نبينا ﷺ من مكة لشهرة دين الله تعالى . قالت : والسنة عندكم كعامنا في أيامه؟ قلت لها : أما السنة عندكم فهي شمسية ، وفيها من الأيام ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم ، والسنة عندنا فهي قمرية وفيها من الأيام ثلاثمائة وأربع وخمسين يوماً بتقريب ، قالت : الشهر كأشهرنا ، قلت لها : كل شهر عربي ينقص يوماً عن الشهر الشمسي ، قالت : والنسا عندكم محجوبات؟ قلت لها نعم ، قالت : وكيف يكون العشق عند البنات ومن

ينكحهن؟ قلت لها : لن يراها أحد ممن يخطبها حتى تكون له زوجة . ومعنى قولها وسؤالها عن العشق : قد تقررت العادة ببلاد الفرنج والفَلَمِنْكُ أن كل من يريد أن يتزوج بنتاً فهو له مباح من قرابتها أن يزورها وينفرد بها للكلام لتحصل المحبة بينهما ، فإذا ظهر له أن يخطبها ، وللبنت أيضاً ، حينئذ يقع الكلام على النكاح . وإذا ظهر له غير ذلك فلا يلزمه شيء فيما فات من مخالطتها . وقد يكون للبنت غير واحد من يزورها على الوجه المذكور . ووجب للمسلم أن يشكر الله على دين الإسلام ونعمته وصفائه . وأما ما ذكرنا للبنت في شأن الأصنام ، فقد قال في التّوراية التي بأيديهم الآن ، أعني بأيدي اليهود والنصارى ، قال في الكتاب الثاني المسمى بالأشُظ في الباب العشرين منه : قال سيدنا موسى عليه السلام إن الله تعالى أمره أن ينزل من جبل الطور ، وأن يقول عن الله تعالى لبني إسرائيل : أنا إلهكم أخرجتكم مصر من ديار لأسر ، لا تتخذوا آلهة غيري ، ولا تعملوا صوراً من صور السماء العلية ولا من صور الأرض ولا من تحت الأرض ، لا تسجدوا لها ، ولا تعبدوها لأني إلهكم ، غيور ، ولا تحلف حانثاً .

الثالث : قال : وعظموا المواسم .

والرابع : وأطع والديك ، ليطول عمرك .

الخامس : لا تقتل .

السادس : لا تزني .

السابع : لا تسرق .

الثامن : لا تكذب ، ولا تشهد بالزور ، ولا تفتري .

التاسع : لا تتمنى دار صاحبك ، ولا زوجته ، ولا ماله .

وهذه الأوامر أخذها النصارى من التوراية ، وزادوا العاشر ، وقالوا :

العاشر : أن تحب الله فوق كل شيء ، وتحب لغيرك ما تحب لنفسك .

فهذه العشرة أوامر الربانية ، فالملل الثلاثة متفقون عليها وهي عندنا في القرآن العزيز متفرقة . والنصارى دمرهم الله ـ لم يعلموا بالأمر الأول وهو الأصل . وقد نهى النبي ﷺ عن الصور ، وقال : المصورون في النار . وقال : إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صور . والحمد لله الذي جعل الملة المحمدية نقية سالمة من هذا الذنب العظيم .

وقال في التوراية في باب ـ لم نستحضره ـ إن الوثان الكاين فيه ذهب أو فضة أن لا ينتفع بها أحد ، وأن يجعلوا ذهبه وفضته في النار .

وقال سيدنا عيسى عليه السلام في الإنجيل : «أنذر صاحبك عن الفعل القبيح بينك وبينه فإن لم ينته فأنذره بحضرة اثنين ـ أو كما قال ـ فإن لم ينته فدعه كوثني أو عشار» . ومعنى وثني : عابد الأوثان والأصنام .

وقال النبي ﷺ : «مدمن خمر كعابد وثن»[92] . وذكر الشيخ جلال الدين السيوطي في الخصائص الكبرى : «أن النبي ﷺ حين دخل مكة المشرفة في عام الفتح ، كان بالكعبة ثلاثمائة وستون صنماً بأرجل من رصص وكان يشير إلى كل واحد منها بقضيب بيده من غير أن يصل إليها ، ويقول : «جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا» ، فيقع الصنم على ظهره أو وجهه» .

وقد أفردت في الرحلة باباً في ذكر الأصنام وحكيات عليها ، ولم نذكر هنا إلا واحدة منها ، وهي : إن الفقيه علي بن محمد البرجي الأندلسي – رحمه الله – ذكر لي بمراكش أن بقرب البلد الذي كان ساكناً فيه في زماننا هذا كان مسلم أسيراً اسمه أحمد ، وسيده فلان ، ذكر اسم مرتبته مثل مركش اوقند وله بلدان ملك له ، وفي قرية من بلاده اتفق أعين سكانها على شرائهم ، وبعد شرائه في بلد آخر ظهر لهم أن أحمد المسلم يبعثونه ليأتيهم بالصنم ، وأعطوه حماراً ومشى ووضع الصنم عليه وهو يمسكه إلى أن خرج إلى الطريق ولم ير أحداً من النصارى . قال للصنم : والله ما نحملك إلا مربوطاً مجروراً على الأرض ، وربطه بحبل في الحمار بعد أن أطرحه على الأرض ، وركب أحمد ، ومشى ولما أن قرب من القرية ، فكان الذين بعثوه ينتظرون الصنم ، ورأوا أحمد راكباً والصنم مجروراً على الأرض فأسرعوا جميعاً ، وعروا رؤوسهم تعظيماً للصنم وهم يمسحونه ، ويبكون على ما أصابه وقبضوا المسلم أحمد وهم ينظرون بينهم ماذا يصنعون به : هل يقتلونه أو يضربونه؟ واتفق نظرهم أنهم يحملونه إلى سيده ومولى بلدهم ليقتله . ومشوا جميعاً . وببركة ما جاهد في الصنم قال لهم سيدهم بعد أن اشتكوا إليه : أنتم تستحقون أشد العقوبة إذ بعثتم مسلماً

---

(92) أخرجه ابن ماجة في السنن ، باب الأشربة ، 3 ، والطبراني في المعجم الكبير .

يأتيكم الصنم ، فهو عمل بمقتضى دينه . وبقي أحمد سالماً ، فارحاً ضاحكاً عليهم ، وهم في خزي ، وهم ، وذل وإلههم مجرور . وأما معنى ما قال في النص : «لا تصوروا صوراً من صور السماء ولا من صور الأرض» المفهوم : لا تصوروا شيئاً مما فيه روح ، والله أعلم . والمجوس تصور الدراري السبعة لكل واحد على صورة رجل أو حيوان . وما زالت النصارى الآن تصور تلك الصور في كتب التنجيم ، فيصورون زحلاً على هيئة رجل شيخ كبير بمنجل في يده ويحش الأرواح ، والمشتري على هيئة رجل قاضٍ ، والمريخ على صورة رجل بسيف في يده ، وكل واحد من السبعة بما يناسبه . وأما صور البروج ، فإن منها صورة الكبش للحمل ، وصورة ثور لبرج الثور ، وصورة الجوزا ، والسرطان ، والأسد ، وعقرب ، وجدي ، وحوت . ويكون المنع بسبب ذلك لأنها صور أشياء لها أرواح في الوجود . وأما صورة نجوم أو شجر من الأرض وأشياء مما لا روح فيها ، فلا يظهر أن ذلك ممنوع . وقد قال لي بعض الرهبان : أنتم تصورون الورد والأشجار ، قلت : النص ليس بمانع لصور الجمادات والأشجار ، إنما المنع تصوير شيء يشبه شيئاً حياً .

وأما المسألة التي جئنا إليها بكتاب السلطان لقبض الرياس الذين نهبوا الأندلس ، وكانوا بألونه ، فلم نقض شيئاً هنالك . وأظن أن قائد الطابع قبض منهم شيئاً لنفسه . وأردت القدوم من عنده ، وطلب مني أن نترك القدوم من عنده ، وطلب مني أن نترك له كتب السلطان ، وأبيت أن نتركه له ، ومشينا من هنالك إلى مدينة برضيوش .

الباب التاسع

في قدومنا إلى مدينة برضيوش
وما وقع لي فيها من المناظرات

اعلم إنها من أعظم مدن فرنجة على حاشية نهر عظيم[93] . وفيها ثمانون قاضياً ، ومائتان وكيلاً ، والمفتون ، والكتاب بلا حساب ، وفيها ديوان يحكم على كثير من البلدان . ومما وقع لي مع بعض القسيسين في دار قاضي الأندلس ، جاء إليها قسيسان لقضاء غرض قيل لهما عني إني مسلم ، وجاءاني وقالا لي : أنت مسلم؟ قلت لهما : نعم ، قالا : تعتقدون أن في الجنة أكلاً وشرباً وتنعما مثل ما في الدنيا ، قلت لهما : لم تنكران ذلك؟ قالا : لأن من تُفْل الطعام تكون النجاسة ، ومن المحال أن تكون النجاسات فيها ، قلت لهما : أما عندكم في كتبكم أن الله تبارك وتعالى حين خلق أبانا آدم عليه السلام أذن له أن يأكل من جميع الفواكه في الجنة ، إلا من شجرة واحدة ، قال له : لا تأكل منها ، لأنك إذا أكلت منها تموت . قالا : هكذا هو ، قلت لهم : لولا أكل من الشجرة لكان فيها إلى الآن ، قال نعم هو كذلك ، قلت : فكان يأكل من الفواكه ولم يعمل له تُفْلاً ، وكذلك لو بقي إلى الآن . وأما التفل ما كان إلا من فاكهة الشجرة المنهى عنها ، وكذلك رجع أبونا آدم عليه السلام وجميع من كان من أهل السعادة من أولاده يأكلون فيها ، ولا تخرج منهم نجاسة أبداً . قالا : الجنة التي كان فيها أبونا آدم كانت في الأرض ، والتي تمشي إليها الناس في الآخرة هي السماء قلت : ما كان أبونا آدم عليه السلام إلا في السماء لأن كل ما يكون في الأرض لا يسقى بجنة لأنه مقهور بالعناصر الأربعة ، ولابد من التغيير بسببها ، ولابد من النور والظلمة ، والجنة ليس فيها تغيير ولا ظلمة . وهذا برهان أن سيدنا آدم عليه السلام كان في جنة من السماء ، فبهت الذين كفروا .

واعلم أن النصارى واليهود يقولون بما في الباب الأول من التوراية . قال إن الله

---

(93) يقصد نهر La garonne .

تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام في جنة الأرض، وفيها أشجار تسقى بغير ماء، ومنه تخرج أربعة أنهار، وهم: النيل، والفرات، وقيصون، والدجلة. وهذه الأنهار معروفة الآن أن كل نهر في بلاد مختلفة عن غيره، ومعروف ابتداؤه. وهذا دليل أن هذا النص باطل بالبرهان، مثل الشمس. ومعنى الأحاديث النبوية في ذلك ـ والله أعلم ـ أنها تخرج من الجنة، فيفهم ذلك من البركة التي أودعها الله تعالى فيها لأن الاعتقاد في الجنة أنها في السماء لا في الأرض، والأنهار ابتداؤها وانتهاؤها على الأرض. وقال في بعض كتب عبد الوهاب الشعراوي[94]، نفع الله تعالى به: أن سيدنا جبريل عليه السلام نزَّل ماء من الجنة ووضعه في أماكن من الأرض، ومنها ابتداء الأنهار الأربعة، كل واحد مختلف عن غيره، وأن الجنة في السماء. وجميع شراح الرسالة قالوا: إن منها أهبط أبونا آدم عليه السلام. وقد أمرني السلطان مولاي زيدان ـ رحمه الله ـ أن أترجم له كتاباً عجمياً كبيراً سماه مؤلفه بِدَرَانِ لِعُظَمِ جبل مسمى بهذا الاسم، لأنه عند الجغرافيين أعظم أعظم (كذا) جبال الدنيا المعروفة، ولم نر في كتب الجغرافيات مثله، وكان بلسان الفرنج، وصاحب الكتاب كان فرنجياً اسمه القَبِطَان. وبلاد الدنيا كلها مصورة في ذلك الكتاب بطول كل بلد وعرضه، والأنهار، وكل نهر بأي أرض، وموضع منبعه، وابتداؤه، والمدن التي على حاشيته كل واحدة باسمها، وجميع الأبحر، والجزر، والأقاليم، وجميع كتب الجغرافيات متفقون أن بحر النيل يخرج من جبل القمر، وموضعه ثمان عشرة درجة من خط الاستواء إلى جهة الجنوب ببلاد السودان. والأنهار الثلاثة في غير هذا القسم الإفريقي الذي هو ربع الدنيا وفيه هو النيل، وليس واحد من الثلاثة في هذا الربع، وكل واحد من الثلاثة في قطر بعيد بعضها عن بعض. أما الفرات، ابتداؤه بقرب بلاد الجَرْجَان، ثم يجتمع مع وادي الدجلة الذي يجوز على بغداد. والثالث ببلاد الطَّطَرِ، والرابع ببلاد أَرْمَانِيَة، كما قال من يدعي بمعرفة الدنيا. وقال القَبِطان الفرنج حين بان له غلط التوراية هذا الكلام الذي عندنا في التوراية عن الأنهار أنها تخرج من موضع واحد، فهو باطل وكذب بالعيان، لأن هذه الأنهار الأربعة الَّتِينَ قال تخرج من غير واحد،

(94) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، الإعلام، 4 : 331 ـ 332، والمصادر بالهامش 1 من الصفحة.

فالخلاف من ذلك فهو ظاهر لمن يعرف مواضع الدنيا ؛ انتهى . وبهذا البرهان الظاهر الموجود الآن لكل من أراد أن يسأل عن الأنهار الأربعة في أيٍّ بلد هو ابتداؤها ، فيجد ذلك بخلاف ما قال عن الجنة أنه كان فيها أبونا آدم عليه السلام . وإذا رأى وتحقق من خُفِيَ عليه ذلك أن كل ما ذكر في الأنهار وهي أربعة تشهد شهادة متفقة أن من قال عليها أنها تخرج من عين واحد في الجنة في الأرض قال الباطل ، فيبطل أيضاً كلما قال في أبينا آدم عليه السلام أن الله تبارك وتعالى خلقه في الأرض . وأما ما تقوله النصارى واليهود عن الجنة أن ليس فيها شيء من نعايم الدنيا من المأكل والمشرب وغير ذلك ، فقالوا الحق في خاصتهم ، لأنها محرمة عليهم ، إذ هم كفار ، والمسلمون هي لهم - بفضل الله سبحانه ، وشفاعة نبيه ورسوله : سيدنا محمد ﷺ .

وقد وقع كلام مثل هذا في مدينة برضيوش مع القاضي المسمى فَيِّرْضِ ، وكانت مواجبي في الأمور الشرعية عنده ، وكان ينصحني كثيراً . وكان يعرف اللسان الأندلسي العجمي . وقد وجب له دراهم كثيرة ، وأردت أن أخلصه ، ولا قبل مني شيئاً ، وقال لي : يا فلان تعجبت منك ، كيف أنت على دين المسلمين؟ قلت له : لماذا؟ قال : لأن عندنا في كتبنا أن المسلمين يزورون مكة ليروا نبيهم في الهواء في وسط حلقة حديد في الهواء ، لأن الحلقة في الهواء في وسط قبة حجر المغناطيس ، والمعروف منه أنه يجذب الحديد ، والجذب في القبة على حد سواء من كل جهة ، وتبقى الحلقة في الهواء بنبيكم ، والمسلمون يعتقدون أن ذلك معجزة لنبيهم . قلت له : هل يجوز في دينكم لأحد أن يكذب ، وإن كان بنية تقبيح دين غيره لتحسين دينه وتزيينه لأهل ملته؟ قال : لا يجوز ذلك ، قلت : النصارى الذين قالوا ذلك أذنبوا ذنباً كبير في دينكم ، قال : كيف ذلك؟ قلت : لأن النبي ﷺ ليس هو بمكة ، وليس هو في حلقة الحديد ، بل هو مدفون في المدينة ، وبينها وبين مكة عشرة أيام ، والمسلمون يزورون الكعبة لأنها دار[95] مباركة بناها سيدنا إبراهيم عليه السلام . قال : زرتها أنت ورأيت قبر نبيكم تحت الأرض؟ قلت له : لا ، ولكن الذين مشوا عندنا يقولون ذلك من غير اختلاف ، وهي مسألة لا شك فيها قال : عندكم مسألة أخرى : إنكم

(95) كتب أسفل كلمة (دار) كلمة (بيت) .

تعتقدون أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، ويتمتعون بنعم مثل ما في الدنيا ، قلت له : أما سيدنا عيسى عليه السلام فلم ينكر ذلك ، قلت له : في الإنجيل : «أما ماء هذه الشجرة ، أعني ماء الكرمة ، فإني لم أشرب منه في الدنيا ، إلى أن أشربه معه في الملكوت» ، قلت له : هو هذا في إنجيلكم . قال : نعم ، قلت : وكيف تنكرون ذلك؟ لأن نعايم الدنيا دالة على نعايم الجنة ، إلا أن أمور الجنة في غاية الكمال ، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وسيدنا عيسى عليه السلام ذكر الشرب في الجنة كما كان يعلمه ويعتقده : إن في الجنة أكلاً وشرباً . وبقي القاضي يفتش في نفسه ما يقوله ، ولا يجد . وكان من أكابر علمائهم .

وهذا هو النص في الإنجيل :

«قال متى في الباب التاسع وثمانين : وفيما هم يأكلون أخذ يصوع خبزاً ، وشكر ، وكسر ، وأعطى تلامذه ،وقال : خذوا ، كلوا ، هو جسدي ، وأخذ كأساً ، وشكر ، وأعطاهم ، وقال اشربوا من هذا كلكم ، لأن هذا هو دمي ، العهد الجديد الذي يصرف عن كثير لمغفرة الخطايا ، وأقول لكم : إنني لا أشرب عصير هذه الكرمة حتى إلى ذلك اليوم الذي أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي» .

وأيضاً قال مرقش في باب ستة وأربعين : «الحق أقول لكم إني لا أشرب عصير هذه الكرمة إلى ذلك اليوم حين نشربه جديداً في ملكوت الله» ؛ انتهى .

وعندهم في الإنجيل أيضاً ، قال : إن اليهود جاء ، وسيدنا عيسى عليه السلام على وجه الضَّاد له وسألوه ، قال لُقا المُنَجيلي في الباب الثاني والسبعين قال : «قال اليهود : امرأة تزوجها سبعة إخوة واحدة بعد واحدة ، وماتت المرأة ، ففي القيامة لمن منهم تكون زوجة ، لأن السبعة قد تزوجوها؟ فقال لهم سيدنا عيسى : أما بنو هذا الدهر فيتزوجون ، ويزوجون . وأما أولئك الذين استحقوا ذلك الدهر والقيامة : الأموات ، لا يتزوجون ، ولا يزوجون ، لأنهم لا يموتون بل يصيرون مثل الملائكة الكرام ، ويصيرون أبناء الله وبني القيامة» ؛ انتهى .

هذا السؤال كما يقال إن إبليس ـ لعنه الله تعالى ـ سأل سيدنا إدريس عليه السلام : هل يستطيع الله تعالى أن يجعل الدنيا كلها في قشرة بيضة؟ وعرفه عليه السلام وجاوبه على مقتضى عناده . وكذلك كان جواب سيدنا عيسى عليه السلام لليهود والنصارى . المشركون

أخذوا بهذا الجواب وتركوا النص الأول .

ثم قال القاضي : أعلم أن لي شيخاً كبيراً ، وهو قاضي بقي في بلادكم سنين ، وقال لي : أن أقول لك تمشي عنده ، وأكد علي في ذلك . قلت له : نمشي - إن شاء الله - .

وبعد ذلك بأيام قال لي : لابد أن نمشي عنده ، فمشيت على غرضه ، والتقيت به في داره وهو من نحو الثمانين سنة . فلما عرفني قال لي ، بعد أن أقبل علي ، وأظهر الفرح ، وجلست معه ، قال لي : كنت ببلادكم نحو الخمس سنين في القسطنطينية ، وسألت عن نبيكم وذُمُّوهُ لي ، قلت : لمن سألت عنه؟ لأن المسلمين عندهم خبره من حين خلق ، ومن أرضعته من النساء ، وأين مكث ، وإلى أي بلد سافر ، وما عمل من الغزوات ، وما كان من أحاديث والأوامر والنواهي والوصايا ، وما عمل من المعجزات ، ومع من تزوج من النساء إلى أن مات . وأنتم ليس لكم خبر سيدنا عيسى عليه السلام أين كان؟ وأين سافر من بعد أن بلغ ثلاث عشرة سنة إلى ثلاث وثلاثين ، التي تقولون أنه صلب؟ قال لي : ديننا هو دين الحق ، لأنه مات ليخلص الذنب الأول عن سيدنا آدم عليه السلام وعن الجميع ، بسبب الفاكهة التي نهاه الله تعالى عنها فأكلها ، قلت : نحن عندنا خلاص لما ورثنا من الفاكهة خير من خلاصكم ، لأنكم تقولون أن واحداً وهو سيدنا عيسى عليه السلام يخلص عن الجميع ، ونحن نخلص كل واحد عن نفسه ، قال : كيف هو خلاصكم؟ قلت له : أبونا آدم عليه السلام . . .(96) كان في الجنة ، وما كان يخرج من جسده شيء من الفضلات حتى أكل من الشجرة التي أمر بتركها صار يخرج من جسده مالا كان له قبل ، قال : نعم ، قلت : فهذه الفضلات التي يخرج منا هي التي ورثنا بسبب الشجرة ، واعلم أنه فرض في ديننا على كل مكلف بالغ ، ذكراً كان أو أنثى ، أنه يصلي الله تعالى في كل يوم خمس صلوات ، ومن شروط فرائضها أن يكون طاهراً بوضوء ، لأنه لا يدخل لحضرة المولى إلا بوضوء ، مطهر للجسد ، مما ورث من الفاكهة المذكورة وأحدثت في الجسد النجاسات ، فيغسل الإنسان مواضع النجاسة في الجسد ، ثم يغسل يديه ، لأجل أن أبانا آدم عليه السلام مد يده إلى الفاكهة

---

(96) بياض بالأصل .

التي نهاه الله عنها ، وفمه ، لأنه أكل منها ، وأنفه ، لأنه استنشق الفاكهة ، ووجهه ، لأنه توجه إليها ، ويسمح برأسه ، لأنه دخل تحت الشجرة وأذنيه لأنه سمع بهما ما قيل في الفاكهة عكس ما قيل له أولاً ، ورجليه ، لأنه سعى بهما إلى الشجرة . والمواضع كلها يغسلها بالماء الطاهر ، لأن في الدنيا ليس شيء للطهارة مثله . حينئذ يدخل الإنسان يناجي ربه ، وهو في الحالة التي كان أبونا آدم قبل أن يأكل من المنهى عنه . وتدوم هذه الطهارة حتى يخرج من الإنسان شيء مما ورث ، فيحتاج يتوضأ . وهذا خلاص خير من خلاصكم ، وأنت قاضي تدرك الحق بعقلك ، فالذي يخلص عن نفسه ، فهو بهذا العمل يدخل في الصلاة ، ومن لا يصلي ، ولا يتوضأ يطلب بذلك ، وأنتم تقولون أن سيدنا عيسى عليه السلام يخلص عن الجميع . فتعجب القاضي وقال : أبداً ما سمعت من قال هذا الكلام وغير ذلك مما تكلمنا ، ولم يثبت قرأت ذلك ببلاد الأندلس قبل خروجي منها في كتاب يسمى بمختصر جبريل وكان فيه أن المني وجد في أبينا آدم عليه السلام بعد أن أكل من الشجرة وأنه يخرج من تحت كل وَبْرةٍ من جميع الجسد ولذلك وجب غسله جميعاً ثم التقيت بعد ذلك بأيام ابن أخي القاضي ، وهو الذي قال لي أن أمشي إلى عمه ، ولما رآني قال لي : رُدّ بَالِكَ[97] ، أن عمي شيخ كبير ، فدعه على دينه ، لا ترده مسلماً ، قلت له : أنت أكدت علي القدوم إليه ، قال : هو يطلب منك أن تمشي له ، ولكن راني وصيتك ، ولا أدري الآن هل رجعت إليه أم لا؟ وقد وقع لي كلام بالمدينة المذكورة مع رجل مفتي ، قال لي يوماً : ماذا تقولون في عيسى عليه السلام؟ قلت : إنه نبي ، رسول الله ، قال : ما تقولون إنه ابن الله حقيقة؟ قلت له : ما نقول ذلك ، قال : فمن كان أبوه؟ قلت : التي كانت أم حوّى كان أبوه ، قال : بين ما قلت ، لأني ما فهمت ما قلته عن أمنا حوى؟ قلت له : اعلم أن خلقة الإنسان هي على أربعة أقسام :

القسم الأول : خلق الله تبارك وتعالى أبانا آدم عليه السلام من غير أبوين ، وخلق أمنا حوى من غير أم ، وخلق سائر الناس من أبوين ، وخلق سيدنا عيسى عليه السلام من أم ليس له أب ، كما خلق أمنا حوى ليس لها أم ، ولذلك قلت لك حين سألتني من

(97) رد بالك : احذر ، والكلمة مستعملة في العامية المغربية .

كان أبوه؟ قلت : إن التي كانت أم حوى كان أبوه ، ثم قلت له : هل ترى أن قدرة الله تعالى صالحة لأكثر من ذلك أم لا؟ قال : نعم ، حينئذ قال للحاضرين من النصارى أن يشهدوا عليه أنه نصراني يأمن بكل ما في دينهم في الدار التي في رومة ، ومع ذلك أقول أن هذا الكلام الذي قاله المسلم فيه ما يسمع ، وهو كلام عظيم أو قال أكثر من ذلك ، حتى قال له الحاضرون من النصارى : لا يقبل ذلك ، فزاد عليهم هو بما بان له من الحق . وأيضاً كنت ليلة بباب طبيب صَيْدَلاَن ، لأن بتلك البلاد ، بل ببلاد النصارى كلها ، جميع دكاكين البيع والشراء ، لم يَسُدُّوهَا إلى أن يجوز وقت العشاء الآخرة . وكان بعض النصارى في كلام معي في الدين وفي المعجزات سيدنا عيسى عليه السلام ، قلت لهم : المعجزة هي خارقة للعادة يخلقها الله تعالى على يدي الأنبياء والصالحين . وقال واحد من العلماء الكفار : المعجزات التي ظهرت على يدي سيدنا عيسى هو كان يعملها . ورأيت بعد ذلك واحداً من أصحابي خرج من بيننا بسرعة ، فسألته بعد ذلك : لماذا خرج ، وذهب؟ قال : لأني حين سمعت النصراني يقول إن المعجزات التي ظهرت على سيدنا عيسى عليه السلام هو عملها من دون الله خفت من الدار العالية التي كنا ببابها أن تقع علينا بسبب ما قال .

وقد قال بَدْرُسْ ، الذي كتب ربع الإنجيل في رسالته في الباب الثاني في المقالة الثانية والعشرين : «يا بني إسرائيل ، عيسى النصارى ذكر مزكى من الله بينكم في معجزات . . . [98] عملها الله فيما بينكم على يديه كما في عملكم» ؛ انتهى .

انظر هذا القول الصريح الموافق لديننا واعتقدنا الذي قاله من كتب ربع الإنجيل بخلاف نصارى هذا الزمن . وقد مشيت إلى مدينة طُلُوشَهْ [99] ، وهي من المدن الكبار بفرنجة على شاطئ النهر العظيم الذي يمر منها إلى برضيوش ، وبين المدينتين نحو الثلاثة أيام . وعزمت نُوَلِّي منها إلى برضيوش على النهر في قارب وليلة قبل يوم السفر رأيت في النوم جماعة شياطين تدور بي من كل جانب ، فجعلت أقرأ : ﴿قل هو الله أحد﴾ ، وأشير إليهم ، فتهرب الشياطين عني ، ثم ترجع إلي وأنا أعيد قراءة

---

(98) بياض بالأصل .

(99) Toulouse .

السورة ، وتذهب عني ، فأصبحت متغيراً من أجل الرؤيا ، وقلت الشياطين أعداء في التأويل . وركبت في القارب ، ونويت نقرأ في ذلك اليوم سورة : ﴿قل هو الله أحد﴾ ألف مرة ، وندع الله تبارك وتعالى ، وببركتها يدفع عني شر الأعداء . وكان القارب عامراً بالرجال ، وبينهم قسيسان مترهبان ، وعرفني واحد من الذين كانوا بالقارب ، وكنت ـ كما تقدم ـ حين دخلت رُوَانا لبست للضرورة لباس الفرنج ، وذكرني للقسيس ، فناداني ، وقال لي : اجلس بإزائي ، فجلست ، فقال لي : أنت مسلم ، قلت : مسلم لله الحمد ، وكان يتكلم بلسان الطليان ، وهو قريب من لسان بلاد الأندلس العجمي . قال لي : لقيت في البندقية بعضاً من أهل دينكم ، ورأيتهم يعملون شيئاً كأنه عبث لا أصل له في دين ، قلت : ماذا رأيت منهم؟ قال : إذا نزلت نجاسة أو بول في حوايجهم يغسلون ذلك المحال بماء ، فسألتهم عن السبب الموجب لذلك ، فلم نجد عندهم خبراً . قلت له : السبب في ذلك أن كل مسلم عليه فرض أن يصلي لله تعالى في كل يوم خمس صلوات ، كل صلاة في وقتها ، ما بين الليل والنهار ، ومن فرائض الصلاة أن يكون طاهراً في جسده ولباسه ، لأنه يناجي الله ربه ، وينبغي أن يكون على أفضل حالة ، ولما كان يخرج من الإنسان من السبيلين نجساً بسبب الشجرة التي أكل منها أبونا آدم ﷺ من فاكهتها ما نهاه الله عنها ومن أجل ذلك رجع جسده يدفع ما يخرج منه ما لا كان قبل فورتنا ذلك ، فإذا وقع شيء مما يخرج من الجسد في ثوبه أو لحمه يزيله بالماء الطاهر ، ليكون الإنسان بحضرة مولاه طاهراً ، ظاهراً وباطناً . أما في الظاهر ، ففي الجسد ، وما يلبسه ، والموضع الذي يعبد فيه . وما في باطنه : ينبغي له أن لا يتفكر إلاّ فيما يقرأه وهذا هو الأصل ، والسبب الموجب في غسل النجاسة . فاستحسن الجواب غاية حتى قال للذين كانوا في القارب بلسانهم كلام الخير عني . وبحثني في مسائل دقيقة ونسيتها . ولما صدر منه أنه قال لأصحابه عني خيراً وأنا على غير دينه فما رآني في نفسه من الرأي إلا أن قال لهم : المسلمون أعطاهم الله عقولاً وافرة ، كل ذلك لتكون عقوبتهم في الآخرة أشد وأقوى ، إذ لم يكونوا نصارى . قال ذلك أيضاً بلسانهم . وكنت أفهمه . وكان من الحق أن أقول له حين ذكرت أن الإنسان يحتاج أن يكون طاهراً في الباطن . بأن أقول له : طهارة القلب بأن لا يكون مشركاً بالله . وكان مع الراهب صاحبه على الرهبانية ،

ومذهبه . وكان يقول بلسانه أن يتكلم معي بالتثليث في الألوهية ويجاوب ويقول له : ما يليق ذلك .

ومشينا اليوم كله ، وعند المغرب خرجنا جميعاً من القارب إلى دار منزلة بحاشية الواد ، وكنت في أعلى الدار في موضع خارج عن البيت الذي نزلنا فيه أقرأ لنتم الألف ﴿قل هو الله أحد﴾ وبعثت للقسيس شيئاً من الخبز معجوناً بسكر وبيض وناداني ، وقال لي : أنا صائم هذه الأيام ، هذا الذي بعثت لي فيه بيض ، ولا نأكل ذلك في أيام الصوم . واشتغل يذكر ما هو فيه من مخالفة النفس ، وأنه لا يلبس كتاناً ، ولا يأخذ بيده دراهم ، ولا يأكل كثيراً ، وأخذ في مدح نفسه ومذهبه . وقلت له : مثلك ما يجد الشيطان والنفس سبيلاً للوسوس ظاهراً ، إلا إذا كان على وجه الحسنة . قال : كيف تأتي من باب الحسنات ، لأني ما فهمت ذلك؟ قلت له : أنتم القسيسون تزورون النساء وتستخلون بهن وهن يحسن إليك بالصدقات فتقول لك نفسك : سر إلى فلانة ، إنها من الصالحات ، واذكر شيئاً من ذكر الله ، وألهمها إليه ، ويحصل لك أجر وحسنة . وهذا هو باب الحسنة ، وغرضها منك أن تقرب منها حتى تتمكن المحبة من قلوبكما ، فإما تغلبكما حتى تقعا في المعصية والحرام ، وهو المقصود من النفس والشيطان ، وإما تكثر المحبة بينكما ، وتشغلك حتى إنك إذا كنت في صلاتك تذكر باللسان ومعها قلبك ، وهذا هو باب نصيحتها . فسكت القس ، ولا أنكر ، ولا أنعم . وكان من الحق أن يقال له مثلك لا يوسوسه الشيطان ولا النفس أبداً لأن اللص لا يقصد إلا البيت العامر بالخيرات ، ومثلك مشرك بالله المالك الديان ، وعابد الأوثان ، فليس له إلا أن يعظم لك الشأن ، ويزين لك الطريق الذاهب إلى النيران . ثم قال : ما السبب في منع الخمر في دينكم؟ قلت له : لأنه مسكر يزيل العقل الذي هو أشرف وأفضل ما في الإنسان ، قلت له : وإذا كنت صائماً تقطع شرب الخمر ، قال : لا . ثم قال لي واحد من الشيطان الذين رأيتهم في النوم ـ وكان كافر في الذين جاءوا في القارب معنا ـ : كيف أنت في بلادنا؟ ومن أذن لك في ذلك؟ وأظهر الغضب ، وأكثر الكلام . فأظهرت لهم كتاب سلطانهم ، وسخرهم الله جميعاً ، حتى إذا بلغنا إلى دار منزلة التي ننزل فيها للمبيت فيها ، فيكلمون رب الدار ، يقولون : هذا رجل تركي ـ لأن في بلاد الفرنج ، وفي الكثير من سلطانات

النصارى لا يسمون إلا تركي ، كما تقدم ، وقد جاء من بلاده ، وأذن له سلطاننا في قضاء أغراضه ، ويستحق أن نقوم بحقه ، وغير ذلك من كلام الخير . وكان فيما بينهم يفرحون بنا في القارب في الأيام التي عبرنا فيه على النهر . كل ذلك ببركة سورة الإخلاص . خلصنا الله من شرهم ، وعظمنا في أعينهم . والحمد لله رب العالمين .

الباب العاشر

في مناظرات اليهود ببلاد فرنجة وفلنضس

اعلم أن اليهود الذين هم بتلك البلاد كان أصلهم ، في قديم الزمان وفي زمننا ، ببلاد الأندلس . وأكثرهم ببرتغال . وكانوا في الظاهر نصارى ، وفي خفاء منهم يهود . وكانوا يخفون أنفسهم بين النصارى أكثر من الأندلس . ويقرؤون العلوم بالعجمية ، ولا يتكلمون إلا بها ، ويدركون بالعلم بعض المراتب . وإذا أدرك أحدهم أمراً ليتحكم على الناس يضربهم كثيراً لا سيما بالأندلس ، حتى أن الناس إذا لحقهم ضرر ممن يحكم سواء كان الحكم على النصارى أو على الأندلس يبحثون عن أصله ، ويجدونه يهودياً مخفياً أو من سلالتهم ، إما من الأبوين أو من جهة أبيه أوأمه ، لأنهم من أجل الرياسة والطمع كانوا يختلطون في التزويج مع النصارى ، ويعطون بناتهم ، ويتزوجون منهم . وجميع اليهود فيهم من الكبر الخفي ما لا كنت نظن فيهم ، حتى رأيتهم بالبلاد المذكورة ، وهي فرنجة وفلنضس . وفيها هم أشهر مما هم ببلاد الفرنج لأن لكم الإذن في نقل السلاح ، واللباس مثل أهل فلنضس . والتقيت في مدينة برضيوش بفرنجة ببعض علمائهم وبلغوا وأطنبوا في مدح دينهم حتى رأيت أنه لا يكفيني في رد عليهم من كتبنا إلا إذا كان من كتبهم فهو أقوى وأبلغ كما اتفق لي مع النصارى . فاتصلت بالتوراية باللسان العجمي الأندلسي ، ووجدت فيه مسائل كثيرة للرد عليهم منها ، ففي التوراية الكتب الخمسة الأوائل فهي منسوبة لسيدنا موسى عليه السلام ، وفيها أمور دينهم وجميع كتب التوراية بالخمسة التي ذكرت أربعة وعشرون كتاباً ولم نر في جميعها ذكر جنة ولا نار ، ولا عذاب الآخرة ، بل فيها المدح التام لبني إسرائيل ، حتى قال فيها : لا تأخذ رباً أو طالعاً في المال من أحد من بني إسرائيل ، ويجوز الأخذ من غيرهم . ووجدت في أحد الكتب الخمسة أن الرجل إذا جامع زوجته وجب عليهما غسل جميع الجسد بماء طاهر ، وكذلك من خروج المني . وأن المرأة وجب عليها من الحيضة أيضاً . ووجدت فيها أن الله يَدْخِلُ جَنْ الجنة . وسألت علماءهم في تلك البلاد وغيرهم على هذا المذكور في التوراية المسمى بجن ، وان الله

يَدْخِلُه الجنة . قالوا : لم ندر . ثم إني بعد أن وليت إلى بلاد المسلمين بمدينة مراكش واتصلت بكتاب يسمى بالسيف الممدود في الرد على اليهود[100] لعبد الحق الإسلامي[101] ـ رحمه الله ـ قال : إنه كان من أحبار اليهود ووفقه الله تعالى لدين الإسلام ، وأتى بالنصوص من التوراية بالخط العبراني ويضعها في طرة الكتاب . ثم كتب الألفاظ بالخط العربي في داخل الأسطار ، ثم تفسير المعنى بإثره . وذكر في مواضع من التوراية اسم سيدنا محمد ﷺ برموز وحلها بأسرار الحروف . والذي بقي في حفظي واحد منها . واكتفيت به عن غيره . وهو كاف بَايِّنْ وذلك أنه قال في التوراية في باب : يدخل الله جن الجنة فأما جن فهو اسم سيدنا محمد ﷺ ، فهو اسمه أحمد ، لأن النون تنقط خمسين بالحساب المشرقي والمغربي ، وكذلك الجيم ثلاثة ، والمجموع ثلاثة وخمسون ، وهو ما تنقط حروف أحمد بالاصطلاح المشرقي والمغربي . فأما الألف فواحد ، والحاء ثمانية ، والميم أربعون ، والدال أربعة ، فالمجموع ثلاثة وخمسون . وهذا برهان ودليل قطعي أن سيدنا محمد ﷺ مذكور اسمه في التوراية إلى الآن .

ووجدت فيها أيضاً أن الإثنى عشر سبطاً من بني إسرائيل السبعة منهم أمهاتهم كل واحدة أم ولد وليس بزوجة نكاح ، ومن المسائل التي قالوا لي اليهود أن أصلنا القديم من سيدنا إسماعيل عليه السلام ، وأن أمه ليست كأم سيدنا إسحاق عليه السلام لأنها كانت زوجة لسيدنا إبراهيم عليه السلام ، وأم إسماعيل عليه السلام مملوكة . قلت لهم : كل ما فعل الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فهو موافق لما أباحه الله تعالى . ثم نسألهم عن الإثنى عشر سبطاً فيقولون : هم الأصل في الدين ، وهم المذكورون المقبولون عند الله تعالى . ثم أقول لهم : فالسبعة منهم لم تكن أمهاتهم زوجة نكاح ، وكما هم عندكم في مقام محمود ، كذلك كان مقام سيدنا إسماعيل عليه السلام ولا يجوز لكم أن تستنقصوه بسبب

(100) مخطوط خ . ع . بالرباط ، عدد 3395 د ضمن مجموع (ص . 360 ـ 380) . وقع طبع على الحجر بفاس ، في 24 صفحة من الحجم المتوسط وهي خالية من تاريخ الطبع .

(101) انظر ترجمته عند م . المنوني ، «مناقشة أصول الديانات في المغرب الوسيط والحديث» ، مقال بمجلة البحث العلمي ، العدد 13 ، 1968 ، ص . 25 وما بعدها .

أمه ثم يسألوني سؤالاً ، وهو عندهم أن أحداً لا يجد ما يجاوب عليه . وذلك أنهم قالوا لي : الدين الذي به سيدنا موسى عليه السلام كان من عند الله ، قلت : نعم ما بيننا نزاع في هذه المسألة ، قالوا سلاطين الدنيا يرجعون فيما أعطوا من كتبهم معلمة منهم ، قلت : لا يرجعون إلا فيما يظهر أنه يليق بهم ، وفي بعض الأزمنة ، ونحن عندنا في ديننا يمحو الله ما يشاء ، ويثبت ، وعنده أم كتاب . قالوا : ليس ذلك عندنا : قلت لهم : عندكم في التوراية مسألة مثل ما قال الله في القرآن إنه يمحو ويثبت ، قالوا : في أي موضع في التوراية ، قلنا : في الباب العشرين من كتاب الثاني للسلاطين ، قال : «إن السلطان حَزْكِيَهْ مرض بمرض الموت ، وجاء إليه النبي يشعيه ابن النبي مزو ، قال : إن الله أرسلني إلى دارك ، إنك تموت ولا تعيش ، فدعا وبكى بكاء شديداً ، ثم ثاب إلى الله توبة صادقة ، ثم بعث الله النبي يشعيه : ارجع إلى سلطان بلادي وقل له : رأيت بكاءك ، وقبلت دعاءك ، وفي ثالث يوم يأتي إلى بيتي ، ونزيد في عمره خمس عشرة سنة ، وننجيه من سلطان شوم ، ونحفظ هذه المدينة» ، انتهى .

فكل من نسأله من علمائهم عن هذا : هل هو في التوراية ، فيقول : نعم ، فأقول : الكلام الأول الذي جاء به النبي كان كلام الله ، وقال : يموت من مرضه ، والمرة الثانية قال : يزيد في عمره خمس عشرة سنة ، فمحى الكلام الأول وأثبت الثاني . وهذا برهان لا يرده أحد ، وكذلك محى الله دين اليهود من العبادات وثبت دين الإسلام . ومثال ذلك أن الملك بعث رسولاً إلى قومه وأمرهم بكتابه أن يفعلوا كذا ، ثم بعث كتاباً آخر يزيد أو ينقص عن الأمل الأول ، فمن عمل بالأمر الأخير فهو طائع ، والذي تمسك بالأمر الأول وقال ما نعمل إلا بما أتانا به رسوله فلان بكتابه فهو عاص مثل اليهود ، وكذلك أمر الله سيدنا إبراهيم عليه السلام بالتختين هو ابنه سيدنا إسماعيل عليه السلام ومن بعده ، ولم يأمر بذلك لمن كان قبله من الأنبياء والمومنين . فكان اليهود لا يجدون ما يجاوبون به ، وذكر في التوراية أن السر في التختين مثل علامة يعملها الإنسان ، إنه يوفي بما أمره الله به ، وتشهد النصارى أن سيدنا عيسى عليه السلام اختتن في أول يوم من يناير ، ثم إنهم أسقطوا ذلك عن أنفسهم بغير أمره ، بل قالوا : إن سيدنا عيسى عليه السلام خلص عن الجميع ذلك بموته ، وأباحوا أكل لحم الخنزير ،وهو ممنوع في

التوراية والخبائث . وقد بحثت اليهود في مسألة أخرى ، قلت لهم هذا الأمر الذي أنتم مأمورون به في كتابكم : إن الرجل إذا جامع زوجته وجب عليه وعليها الغسل لجميع الجسد بماء طاهر ، هل تمنعون ذلك أم لا؟ قالوا جميعاً : لا نفعل ذلك ، ولكن النساء تغتسلن من الحيضة ، وأنتم مأمورون بها في كتابكم؟ قالوا : ذلك الأمر كان حين كنا في بيت المقدس ، قلت لهم : الأمر ليس هو مرتبطاً بشرط ، لأنه ما قال هذا الأمر للغسل فرض عليكم ما دمتم ببيت المقدس ، ولم قال ذلك كانت لكم حجة مقبولة بما تقولون . هذا برهان بأنهم جميع اليهود بنجاسة موروثة من آبائم وأجدادهم ، وعلمائهم ملعونين بإباحتهم في ترك فرض من فرائضهم . وأما الغرض لهم في ترك الأسباب يوم السبت حيث هو أمر موافق لشهوة النفس لأنها تحب الراحة ، فهذا يقومون بحقه ، ويظهرون من الورع جميعهم بالقيام بحقوق السبت ، ويذكرون أنهم لا يجوز لهم فيه كذا وكذا ، ويتركون الطهارة التي هي الأصل في العبادات . وكذلك النصارى لا يقربون الماء أبداً إلا مرة في العمر ، وهو الغسل عند دخولهم في دين النصارى المسمى بالماء المعمدان . وكم من مسلم في الدنيا من يجب عليه الغسل يقوم من فراشه عند السحر في أيام البرد ولا يجد سبيلاً لتسخين الماء ويغتسل به بارداً لئلا تفوته صلاة الصبح ، والمواضبون على الصلاة في أوقاتها ، فلا ينامون إلا بعد أداء صلاة العشاء الأخيرة ، ويتركون مضاجعهم عند صلاة الفجر . وقال الله تبارك وتعالى ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾[102] ، وقال رسول الله ﷺ : «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف ليلة ، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام نصف ليلة ، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنه صلى الليل كله»[103] ، فببركتهم لم يزل العز للإسلام في الدنيا وببركة محمد ﷺ الذي قال :

(102) سورة السجدة ، الآية 16 .

(103) أخرجه مسلم في الصحيح ، 2 : 135 ، عن عثمان بن عفان .

«وجعلت قرة عيني في الصلاة»[104] ، وقال : «أنا أول من يدق باب الجنة»[105] ، ولذلك قال في التوراية : «يدخل الله جن الجنة» ، إذ هو أول من يدخلها وبعده من كان من السعداء . وفي الكتاب الأول من التوراية في الباب السابع والأربعين قال : «إن سيدنا يعقوب كان يذكر لأولاده ما يكون من أمرهم في الدنيا ، وقال على اليهود : يكون لهم الأمر والحكم في الدنيا إلى أن يأتي شِلُوهْ ، والنصارى تقول إن شلوه كان سيدنا عيسى عليه السلام ، والصحيح أن الملك كان لهم بعده أكثر من أربعين سنة . وفي الحقيقة لم يزل بالكلية إلى أن جاء النبي ﷺ إذ وقع لهم معه حرب وشر بخيبر ، وبعد ذلك لم يسمع أن اليهود حاربوا أحداً» . وفي التوراية في الكتاب المسمى ذَوَاتَرْنَمِيُ في الباب الأربعين ، قال : ارعوا أرواحكم ، لا تروروا أصناماً . وقال أيضاً لا تقطعوا أو تصنعوا لكم صوراً ولا أصناماً من شيء من الصور ، صورة ذكر ولا أنثى ، ولا صورة دواب الأرض ، ولا صورة طير من التي تطير في الهواء ، ولا صورة دابة تنجر على الأرض ، ولا صورة حيتان الماء ، ولا تسجدوا ولا تعبدوا القمر ولا النجوم . وقال في الكتاب المسمى بِلبِتقُ من كتب التوراية في الباب العاشر : «وكلم الله لهارون وقال : أنت ولا أولادك لا تشربوا خمراً ولا مِزْراً - يعني مسكراً - إذا ردت الدخول في الجامع ليتبين الطاهر من النجس ، ولا تموت عهد للأبد يكون لمن يتنسل منك . وفي كتاب آخر يسمى بذَوْتَرْنَمِيُ في الباب السادس لسيدنا موسى عليه السلام قال بني من وسطك من إخوانكم يظهره الله عنه تسمعون» . وفي كتاب السيف الممدود في الرد على اليهود في هذا المعنى : «نبي من بني إخوانكم منه تسمعون» . وفي كتاب القضاة من كتب التوراية في الباب الخامس : «قال بني نقيضه من بين إخوانهم مثلك ، وأنا نضع كلامي في فمه ، وهو يتكلم بكل ما نأمر

(104) أخرجه النسائي في السنن ، 7 : 61 ، عن أنس باللفظ الآتي :

«حبب إلي من الدنيا : النساء ، والطيب ، وجعل قرة عيني في الصلاة» .

(105) أورده الخليل في مشيخته عن أنس باللفظ الآتي : «أنا أول من يقرع باب الجنة» . انظر ج . السيوطي ، الجامع الكبير ، 1 : 575 .

ومن لا يسمع من كلامي الذي[106] يتكلم عني أنا محاسبه» فهذا[107] دلائل على النبي ﷺ . وفي كتاب أسَكِيَلْ من التوراية ، قال دانيال النبي عليه السلام : قال الله تعالى : اكسر الأصنام ويخمد ويفني الكفر . وفي العام الثاني من تولية بخت نصر المملكة رأى رؤيا بُخْتُ نَصَرْ وسببها ، وأمر بإحضار الكهان والمنجمين والسحرة القبطيين[108] ، ليظهروا للسلطان الرؤيا . ولما حضروا قال السلطان : رأيت حلماً وأنا متفكر لنعلم ما رأيته[109] . قالوا : أذكر لنا ما رأيت ونفسره ، قال السلطان للقبطيين : ذهب[110] عني ما رأيته ، وإذا لم تظهروا الرؤيا نقتلكم أشر قتل ، وإذا ذكرتموها نجود عليكم ، قالوا مرة ثانية : أذكر ما رأيت نبين تفسيره . ثم قالوا ليس أحد يقدر على هذا الأمر إلا الملائكة التي لا تسكن في الأجساد ، فغضب السلطان ، وأمر بقتل جميع علماء بغداد[111] . وشهر الأمر ، وقبضوا العلماء ، وطلبوا على دانيال وأصحابه ليقتلوهم ، حينئذ تكلم مع الريوج القبطان المتكفل بحرص السلطان ، وقال : ما السبب في سرعة هذا الأمر؟ فبينه له ، ودخل دانيال[112] للسلطان ، وطلب منه أن يمهل[113] عليهم ، وأنه يبين للسلطان ما طلب ، حينئذ مشى دانيال[114] إلى منزله وذكر الأمر لأصحابه[115] : أنانيشُ ومَشَايِلْ ، وإلى قَرِيش[116] ليطلبوا الرحمة من إله

---

(106) هنا تبدأ قطعة المكتبة الوطنية بباريس ، وسوف نرمز لها بحرف «ب» .

(107) «ب» : فهذه .

(108) «ب» : مثل القبطيين .

(109) «ب» : ما رأيت .

(110) «ب» : اذهبوا عني ما رأيته .

(111) «ب» : وأمر بقتلهم جميعاً يعني علماء بغداد . ملاحظة : يقصد ببغداد «بابل» .

(112) «ب» : عليه السلام .

(113) «ب» : يهمل .

(114) «ب» : عليه السلام .

(115) «ب» : وذكر الأمر على نانيش .

(116) «ب» : وإلى قريش أصحابه .

السماء واللطف لئلا يهلك دانيال وأصحابه وعلماء بِغْدَادِ . حينئذ أوحى الله المسألة لدنيال[117] برؤيا في الليل ، وشكر على ذلك ، وقال البركة في اسم الله تعالى في كل قرن وزمن له هي الحكمة والقوة ، وهو الذي يبدل الأزمنة ، ويزيل الشدائد ويضعها ، يؤتي الحكمة للحكماء ، والعلم للإفهام ، وهو يوحي ما كان مستوراً ومكنوناً ، يعلم[118] ويميز ما كان في الظلمات والنور ، وما في هما إليك . يا إله آبائي أشهد وأشكرك ، إنك أعطيتني علماً وأعلمتني ما طلبنا منك وبينت لي أمر السلطان ، ثم كلم وزير السلطان الذي كان له الأمر على قتل علماء بغداد ، وقال له : لا تقتل العلماء ، وادخلني بحضرة السلطان ، وأنا أبين له ما طلب ، فالتقى به ، وقال السلطان بدانيال ـ وكان اسمه بَلْتَشَرْ ـ : تقدر تبين لي الرؤيا وتفسرها؟ قال دانيال للسلطان : الأمر الذي سألت عنه لا يقدر على إظهاره علماء ، ولا منجمون ، ولا سحرة ولا كهان ، ولكن في السماء إله السماء إله واحد الذي يوحي الأسرار ، وهو يعلم السلطان بخت نصر ما يحدث ، وما يكون بعد أيام وأزمنة ، وما رأيت في فراشك هو هذا . فأنت يا سلطان في فراشك كان في[119] فكرك لتعلم ماذا يكون فيما يأتي والذي يوحي الأسرار والعجايب أظهر لك الذي يكون . أما أنا فأظهر لي هذا السر وليس ذلك من أجل العلم الذي عندي أنه[120] أكثر من العباد ، ولكن ، لنظهر تفسيره للسلطان ، ولنعرف ما كان في فكرك وقلبك وأنت يا سلطان رأيت صنماً عظيماً جداً وكان له مجد وهو واقف أمامك ، وبصره قوي . أما رأس الصنم فكان من ذهب خالص ، وصدره وعضداه من فضة ، وبطنه وفخذاه من معدن ،[121] ورجلاه من حديد ، وقدماه بعضها من حديد وبعضها من فخار ، وأنت تنظره ، ورأيت حجرة قطعت بغير أيادي ، وضربت الصنم في قدميه من الحديد ، والفخار طحنتها غبرة الحديد ، والفخار والمعدن والفضة والذهب ، ورفها الريح ، فما وجد لها موضع ، ولكن الحجر الذي ضرب الصنم

---

(117) «ب» : لدانيال عليه السلام .

(118) بالأصل : يعرف ، وكتب المؤلف في الطرة : «صوابه يعلم» .

(119) «ب» : كان فكرك .

(120) «ب» : عندي أكثر من العباد .

(121) هنا يبدأ ما سقط في نسخة «ب» .

رجع جبلاً عظيماً حتى غمر وملأ جميع الأرض . وهذا هو الحلم والرؤيا .

وأما تفسيره ، نذكره أيضاً بحضرة السلطان .

«أنت يا سلطان أنت سلطان سلاطين ، لأن إله السماء أعطاك القدرة والقوة والعظمة ، وكل ما عمر أبناء الرجال ، ودواب الفحص ، وطيور الهواء ، وضعه في يدك . وجعلك أميراً على جميعه . وأنت هو ذلك الرأس من ذهب ، وبعدك تقوم سلطنة أخرى أقل وأصغر منك، فالصدر من فضة ، وسلطنة ثالثة من معْدن ، وتتحكم على جميع الأرض ، والسلطنة الرابعة تكون قوية مثل الحديد ، وكما أن الحديد يغلب ويقهر جميع الأشياء ويكسرها فالذهب والفضة يكسره ، ويدقه . وأما ما رأيت أن القدمين والأصابع بعضها فخاراً ، وبعضها حديد ، فالسلطنة تنقسم : قسم قوي وقسم ضعيف . وأما امتزاج الحديد مع سقف الفخار ، فيتزوجون ويمتزجون الزريعة الأدمية ، ولكن ما تلتصق بعضها مع بعض ولكن في أيام في أيام هذا السلاطين المتأخرين الذين لا يمتزجون لتكون سلطنة قروية . الإله السماء يقيم سلطنة لا تنكسر ولا تفنى أبداً ، وهذه السلطنة لا تترك لغيرها من البلاد ، وهي التي تهرس وتفني جميع هذه السلطانات ، وهي تدوم وتبقى إلى الأبد كما رأيت أن من الجبل قطع الحجر بغير يدين ، وهرس الحديد والمعادن والفخار والفضة والذهب . الإله العظيم أظهر للسلطان ماذا يكون في المال والحلم حق وتعبير صدق . حينئذ السلطان بخت نصر وقع على وجهه وركع إلى دانيال ، وأمره بإعطائه هدايا وتباخر . وكلم السلطان إلى دانيال ، وقال الصحيح أن إلهك هو إله إلهات ، ورب السلاطين مظهر العجائب والمعجزات ، حيث قدرت تبيني بهذه المعجزة . قال دانيال : لأني لا أعبد أصناماً مصنوعة باليدين ولكن أعبد الإله الحي الذي خلق السموات والأرض ، وله أمر على كل لحم» ؛ انتهى ما ترجمناه من التوراية .

قال سيدي أحمد زُرّوق[122] ـ نفع الله به ـ في هذا المعنى : فانظر هذا التصريح

(122) يقصد أحمد زروق .

انظر ترجمته عند شمس الدين السخاوي ، الضوء اللامع ، 1 : 222 ، وم . بن عسكر ، دوحة ، ص . 48 ـ 51 رقم 33 ؛ وابن القاضي ، درة ، 1 : 90 ـ 91 رقم 126 ؛ وأ . بابا ، نيل ، 84 ؛ و . م ، بن مريم ، البستان ، 45 ـ 50 .

الجلي المطابق لسيدنا ومولانا محمد ﷺ ، وإذ هو الذي بعث في آخر الزمن ، وهو الذي نبوءته وملك أمته أبدي إلى قيام الساعة ، إذ لا نبي بعده ﷺ ، ولا نسخ لشرعه الشريف ما بقيت الدنيا ، وهو الذي بعث لسائر الأمم ، وظهر عليها كلها ، وخلط بين أجناسها ، وجعلها على اختلاف أديانها ، واختلاف لغاتها جنساً واحداً ، وعلى لغة واحدة ، ودين واحد ، إذ كلهم يقرؤون القرآن بلغة العرب ، وبها يصلون ، إلى غير ذلك . وكلهم يدينون بدين واحد ، وهو دين الإسلام ؛ انتهى .

وأقول : قد سمعت ببلاد الأندلس قبل خروجي منها مراراً القسيسين والرهبان يختطبون ويذكرون الرؤيا الذي رأى بخت نصر ، وما فسر النبي دانيال عليه السلام ويقولون : إنه سيدنا عيسى عليه السلام هو الذي دلت عليه الرؤيا ، وأن دينه عمر الدنيا ، وسلاطين دينه غلبوا سلاطين الدنيا ، وكذبهم العيان بصحة البرهان ، بما أظهر في الدنيا الملك الديان ، له الشكر والفضل والامتنان على علو كلمة توحيده والإسلام خالص الإيمان .

أما السلطان بخت نصر فكان في مدينة بغداد ، والنصارى لم تملك قط بغداد ولا كان لهم فيها دار ملك كما كان للمسلمين .

وأيضاً أن ، السلطان رأى الحجر الذي هرس الصنم وعظم حتى ملأ الدنيا كلها ، وذلك كان النبي محمد ﷺ وأهل دينه لأنه هرس في مكة المشرفة الأصنام ، كما تقدم ذكر ذلك . ولم يعبد صنم في البلاد التي دخلها الإسلام .

وأما النصارى بعد سيدنا عيسى عليه السلام فلا يعبدون إلا أصناماً ، وما من كنيسة إلا لها صنام أو أصنام كثيرة . وفي صلاتهم يعبدون قرصة من خالص الدقيق ، والخمر أيضاً ـ كما تقدم ، كما شاهدته سنين عديدة ـ .

والرؤيا مبنية على الحجر الذي هرس الصنم ، وهو الإسلام ، لا على من أقام الأصنام وعبدها ، وهم النصارى الضالون . وقول النبي دانيال عليه السلام : إن في أيام السلاطين المتأخرين يقيم الله سلطنة لا تنكسر ، ولا تفنى أبداً ، وهي التي تكسر وتفني جميع هذه السلطانات ، وهي تدوم إلى الأبد . فأبين ما ظهر من ذلك على قدر الاستطاع ، وأنا أمرني الشيخ الأثير الشهير بمصر وغيرها أن لا نكتب في المختصر إلا ما وقع لي مع الكفار من الكلام . فهذه بينة وبرهان وأن الإسلام عمر أكثر بلاد الدنيا

المعروفة في زمن القُدَمَا ، الذي وقع الكلام عليها ، احترازاً على الدنيا الجديدة التي ظهرت بعد ذلك بالمغرب البعيد ، حيث هي الهنود المغربية[123] التي لم يدخلها الإسلام . وجميع سكانها القدما مجوس ، يعبدون الشمس لكفرهم ، إلى أن أدخل فيها سلطان بلاد الأندلس أصنامه ، وشركه . وأقول : إن النصارى تزعم أن الحجر الذي هرس الصنم ، وعظم ، وعمر الدنيا كلها ، كان سيدنا عيسى عليه السلام وقد تحققنا في ذلك من كتبهم . ومما يصورون في المبات ، والكور الأرضية ، والرسائل التي قرأت عليها . فاعلم أن القدما فيما مضى قسموا الدنيا أربعة أقسام وكل قسم سموه باسمه فسموا أوروبة للربع الجوفي الذي هو إلى جهة القطب الشمالي ، وابتدأوه من البحر الأسود إلى آخر بلاد الأندلس . وفي هذا الربع هي المدينة العظمى الشهيرة في الدنيا أنها أعظم مدنها باتفاق جميع الملل والأجناس العارفين ، وهي القسطنطينية ـ حرسها الله تعالى ، وأدام عزها إلى الإسلام مدامة الدنيا ـ . والمسلمون في هذا الربع على ما قيل لي نحو الخمسين يوماً للماشي المتوسط ويحتمل أنه أكثر من ذلك . وما عدا الإسلام فهو النصارى ، فالمجاور للإسلام سلطان الارمَانِيَهْ ، وظهر لي أنهم الصقالبة المذكورون في التواريخ بالعربية ، وبلاد مُشْقُوبِيَهْ الجوفية ، وبلاد رومة بإيطالية ، وبلاد الفرنج وفلنضنس وبلاد الأنجليز ، وبلاد الأندلس بما لها من جزر في البحر المحيط الصغير .

وأما الربع الثاني فيسمى عندهم بالربع الإفريقي ، اسم مأخذ أو مشتق من مدينة عظيمة كانت فيما مضى تسمى بإفريقية ، وبالمعجم أَفْرِقَهْ . كانت بقرب تونس المحروسة بالله . وفي زمننا هذا يسمى هذا الربع عند العامة ببلاد المغرب . وابتداء هذا الربع الثاني من بحر سويس والبحر المحيط دائر به من القبلة ، والمغرب والبحر الصغير من جهة الجوف ، والمشرق . وفي هذا الربع المغربي أكثر سكانه المسلمون ، فأما مصر المحروسة بالله فهي من أعظم مدن الدنيا ، هي مثل بريش بفرنصه إذا أضفنا إليها مصر العتيق وبُولَقْ ، وهي تحتوي على إثنى عشرة ألف قرية . ثم مغرباً عنها

(123) يقصد بأمريكا اللاتينية .

إسكندرية ، ثم مغرباً عنها مدينة طرابلس ، ومغرباً عنها مدينة تونس لم تحتوي عليه من البلاد وبلاد الجريد ، ثم مغرباً عنها مدينة الجزائر بما تحت حكمها من البلاد ، ثم تلمسان وإن كانت تحت حكم الجزائر . فكانت فيما تقدم دار ملوك ، ثم مغرباً عنها مدينة فاس دار الملوك بما ينسب إليها من البلاد ، ثم مدينة مراكش في صقعها قدر بريش بفرنصة أو أقل ، دار سلاطين للشرفاء . وأدركت خمس سنين من مدة مولاي أحمد ـ رحمه الله ـ الذي كان من يوم مات سلطان برتغال النصراني ، حين أَحْرَكَ إلى المغرب بجيوش عظيمة ، ومات هو ، وبقي جيشه هو أسارى بأيد المسلمين ، وبقي مولاي أحمد في المملكة خمس وعشرين سنة إلى أن مات عام اثنتي عشرة وألف . وكانت تحت طاعته سلطنة مراكش بما تحتوي عليه من الأقطار وسلطنة فاس ، وسلطنة سوس الأقصى ، وسلطنة سجلماسة ، المعروفة الآن بتافللت ، وبلاد درعة أقرب منها إلى مراكش ، وبلاد توات ، وكان له ببلاد السودان سلطنتها استفتحها هو ، أعني السلطان المذكور ـ رحمه الله ـ ، وهي مدينة تَنْبُكْتُ بما تحت حكمها ، ومدينة جَاغُ وككي ، وليس بينها وبين خط الاستواء إلا نحو عشر درجة من العرض . وفي بلاد السودان بلاد كثيرة للمسلمين منها سلطنة مِلَى وهي تمتد إلى البحر المحيط ، ثم سلطنة عظيمة بالسودان ، لسلطان بُرْنُ . وبلاد كثيرة للمسلمين ممتدة من سلطنة برن إلى بلاد حبشة التي هي قبلة ومشرق عنها . وما بقي في هذا الربع فهو أقله فيه مجوس ، وأيضاً سلطان نصراني . وأما ما تقوله العامة أن بني آدم السودانيين أكثر من جميع البيض في الدنيا ، فذلك باطل وزور ، وأظن أن السودانيين يكونون قدر عُشُور البيض . وكذلك تكذب اليهود عن واد السَّبْتِ ، وأن وراءه سلطنة عظيمة لليهود ، وأن الواد لا يجري يوم السبت .

وقد عرفت الناس في زمننا هذا أكثر من الأوائل في أمور الدنيا . فأما اليهود فيصبرون نفوسهم عن ذلهم وخزيهم بذكر واد السبت . إذا سئلوا : في أي قطر أو جهة من الدنيا هو؟ فلا يعلمون ما يقولون ويمتد هذا الربع الإفريقي إلى طرف حسن الرجا الذي هو بعد وثلاثون درجة إلى الجنوب من خط الاستواء ويضيق للأرض من الجانبين إلى أن يكون كركن . والبحر المحيط دائر به ، وأيضاً البحر الصغير ، وبحر السويس كما ذكرنا .

وأما نصف الدنيا تسمى بالعجمية بأشْيَهْ ، وفيها للمسلمين بلاد الشام ، ومكة ، والمدينة ، والحجاز ، واليمن ، وبلاد الترك الشهيرة بركتها . ولا أعرف أقطارها ، وعرق عرب وعرق عجم ، وبغداد وما تحتوي عليه من الأقطار ، وبلاد هَرْمُوس ، وسلطان حضرموت ، وسلطنة قِشْن ، وسلطنة ضَفَرْ ، وبلاد الإمام نُعْمَان ، ثم بلاد الهند ، وخراسان ، وبلاد فارس وما لها من الأقطار وما وراء النهر ، وسمرقند ، وبُخَارَة ، وأُسْبَكْ ، وبلاد الطَّطَرْ تأخذ من الدنيا حظّاً وافراً . وسلطان جلال الدين في الهنود سلطان عظيم ، الذي يذكرون عنه أن له أفيالاً للحروب ، كما ذكر لي بعض الهنديين في جامع الأزهر بمصر ، وذكر لي رجل أندلسي بمكة المشرفة : أنه خدم سلطانين مسلمين سنين ، غير سلطان جلال الدين .

وكم من أقطار وبلاد للمسلمين غيرها ما ذكرنا ، لجهلي بها ، وكلما ذكرنا فهي في الأرض الكبرى المتَّصِلة للمسلمين ، وفي المَبَّات(124) التي تصور النصارى ، والكور الأرضية فيها ، كل مدينة مصورة ومكتوب اسمها بطولها وعرضها ، وكذلك الويدَان والأبحر كما تقدم . وفيها في الأرض الكبرى المتصلة من بلاد المسلمين ، فما تأخذ من الربع المغربي وهي نصف الدنيا التي قلنا تسمى بأشيه نحو المائة وأربعين درجة أو أكثر طولاً . والمحسوب لكل درجة من الأرض اثنان وخمسين ميلاً ونصف للماشي على خط مستقيم من غير صعود جبل ولا انحراف ، ويكون بتقريب لكل درجة ثلاثة أيام للماشي المتوسط . كما قدرنا لطول بلاد الأندلس ثلاثين رحلة طولاً ، ودرج طولها عشر أو إحدى عشرة درجة بحساب الرحلات المشهورة فهي ثلاثون يوماً بتقريب ، وجاء لكل درجة ثلاثة أيام كما قلنا . ونحسب للأرض المتصلة العامرة بالمسلمين أربع مائة وعشرين يوماً . وقد جاء رسول من بلاد فلمنكه إلى مولاي زيدان ابن مولاي أحمد ـ رحمهما الله ـ إلى مدينة مراكش ، وكتاب رسالتهم عجمي ، وأمرني السلطان أن أعربه ، ومن أجل ذلك كان الرسول يظهر محبة ، ورأيت عنده كتباً بالعربية ، وهو يقرأ ويكتب بها فسألته أين تعلم ذلك؟ قال : أعلم أنني كنت في جزيرة كذا من جزر الهنود المشرقية التي يأتوا منها بالقَرْفَة والقَرَنْفُلْ والجَوْز وغير ذلك

(124) المبة : كلمة إسبانية Mapa بمعنى خريطة جغرافية ، وقد جمعها لتصبح (مبات) .

من الأبَازير وهي للمسلمين ، وهنالك تعلمت نَقْراً . قلت له : وهل في تلك الجزر مسلمون؟ قال : فيها : وفي كل جزيرة سلطان مسلم ، وفي بعض الجزر سلطانان . فاستغربت ذلك ، وحلف بدينه وما يعبد أن في تلك الجزر أكثر من عشرة آلاف جزيرة للمسلمين . فتوقفت في الأمر ثم قلت : ثلاثة مسائل تدل على صدقه : الأولى أنه كان يقرأ ويكتب بالعربية ، ويحتاج إلى ذلك سنين وليس بفلنضس إلا الذي سنذكره يقرأ بالعربية ، وهما رجلان فقط . الثانية أنه كان رسولاً ، والملوك لا تبعث من هو سفيه برسالة . رجلان فقط . الثالثة : أنه نصراني عدو في الدين ، وليس من عادة النصارى تعظيم المسلمين ، وإذا شهد لك عدوك بما تحب ، فيقضى لك بالغلب ، وإذا قلنا هذا زاد كثيراً ، فنأخذ العشر مما قال ويبقى من الحساب ألف جزيرة ، كل واحدة بسلطان مسلم . وقرأت في بعض كتب النصارى أن جزر الهنود المشرقية هي أكثر من ألف وثلاثمائة جزيرة . وقد طالعت كتاباً عجمياً لِبِذْرُ طَشَابَر ، نصراني ، وذكر فيه أنه ركب البحر ببلاد برتغال من بلاد الأندلس ، ومشى إلى الهنود المغربية ، ثم مشى في بلادها إلى أن قطعها براً ، ثم ركب المحيط ، ومشى فيه مغرباً زمناً في البحر بين الجزر المشرقية إلى أن خرج بقرب بغداد ، وجاء في البر من بلاد المسلمين إلى بحر الروم ، أظن أنه ذكر إلى حلب ، وركب في البحر ومشى إلى بلاد النصارى ، وكل سفره براً وبحراً إلى أن دار بالدنيا دائرة كاملة . وكان رجلاً حكيماً ، وكتب ما رأى . ومن جملة ما ذكر في كتابه أن في جزيرة كبيرة من جزر المشرق ، دخل الإسلام فيها قبل هذا العهد بنحو المائة وثلاثين سنة ، والجزيرة تسمى بجَاوُشْ ، وصاروا مسلمين . وكانوا قبل ذلك يأكلون لحم آدم ، والحمد لله الذي أعطانا وأشْرَحَنَا بعمارة أكثر الدنيا أنها للمسلمين ، وأنهم الذين لا يتبدل ملكهم إلى تمام الدنيا ، وليس هذا من العجب في أخذ تلك الجزر الكثيرة من أيدي الكفار لأن المسلمين مأمورون بالجهاد للكفار والمشركين ، قوله تعالى : ﴿جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾[125] فالمسلمون مَنْصُورون بالله بالجهاد للكفار وبتركه يبتليهم الله فيما

---

(125) سورة التحريم ، الآية 9 .

بينهم لقول النبي ﷺ : «ما تواطأت قوم على ترك الجهاد إلا ابتلاهم الله فيما بينهم»[126] . وقد شاهدنا شيئاً من ذلك . وبقي واضح أن الحجر الذي كسر الصنم وعظم حتى عمر الدنيا كان النبي محمد ﷺ وأهل دينه ولم يكن سيدنا عيسى عليه السلام ولا النصارى الذين يزعمون أنهم على دينه . وكل واحد من السلاطين النصارى يرتعد ويخاف من سلاطين الإسلام والدين ، المجاهدين في سبيل رب العالمين ، وهم السلاطين الفضلا العظما العثمانيون التركيون . وقد تقدم لنا ذكر ما رأيت وفهمت من النصارى في بلادهم من الخوف العظيم الذي في قلوبهم منهم . ورأوا ملوك النصارى أنه يليق بهم صحبتهم على وجه اللين واللطف ، حتى إن كل واحد منهم يبعث رسوله ليقعد على الدوام والاستمرار في القسطنطينية العظمى يطلب منهم الصلح والرضى عنهم وهم ـ نصرهم الله ، وخلد ملكهم ، وجعل النصارى والكفار الأعداء تحت أقدامهم ـ لا يبعثون رسولاً لكافر على وجه القعود في بلادهم ، وصح أن سلطان إشبانية ـ وهي بلاد الأندلس ـ أراد أن يبعث رسولاً للقعود مثل سائر ملوك النصارى ولم يقبلوه ، لما تحققوا من عداوته للإسلام ، وغدره فيما مضى ، مما صدر منهم مع سلطان الهنود المغربية بمدينة مِيشِق[127] المسمى مُتَشُمَه[128] ، إذا مشوا إليه بهدية ، وقتلوه .

والعهود الذي عاهد المسلمين الأندلس حين أخذ بلادهم ، ثم نكثها ، وأن حين أمر على الأندلس بالخروج من بلاده كل من علم به أنه يمشي إلى بلاد المسلمين أخذ لهم الأولاد ، كل من كان من أقل من عشر سنين أو نحو ذلك ، وغير ذلك مما ذكر عنهم في أخذ مدينة مِلاَنْ[129] . ولم يكن لسلاطين المسلمين أعداء ولا أضر من سلاطين إشبانية . ويضرون سلاطين المسلمين وهم لا يشعرون ، وذلك بماله من القوة

(126) لا يوجد الحديث عند ج . السيوطي في الجامع الكبير .

(127) Mexico .

(128) أحد ملوك الهنود الحمر .

(129) Milan .

بالمال ـ نسأل الله العظيم ببركة نبيه محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم ـ أن ينصر سلاطين المسلمين[130] ، على القوم الكافرين نصراً تعز به الدين ، يا رب العالمين ـ .

وقد ذكر في كتاب الجَنْشِيشْ من كتب التوارية في الباب السادس عشر قال : «وكلم الملك من عند الله لهاجر في البرية بقرب عين ماء ، قريباً من عين طريق القبلة ، وقال لها : يا هاجر من أين جئت؟ وأين تمشي؟ قالت : هربت من شر سيدتي ، قال لها الملك : ارجعي إلى سيدتك واخضعي إليها ، وقال لها الملك : تكون زريعَتك حتى لا يحصى عددها من كثرتها ، وقال لها : أنت حملت وتلد ابناً ، وتسميه[131] إسماعيل ، لأن الله سمع حزنك ، ويكون رجلاً قوياً ، يده الكل ، وأيدي الجميع عكسه . ويسكن قدام جميع إخوانه وولدت هاجر إسماعيل لسيدنا إبراهيم وسمى ابنه إسماعيل . ولما بلغ سيدنا إبراهيم مائة سنة ولد له إسحاق بن سارة» .

وقال في الكتاب المذكور في الباب الواحد والعشرين : «وقام سيدنا إبراهيم من الصبح وأخذ خبزاً ، وجلد ماء ، وأعطاه إلى هاجر . ووضع الطفل ابن على كتفها ، وبعثها ومشت ، وتُلِفَتْ في فحص بَرْشَبَا ، وفرغ لها الماء من الجلد وتركت الطفل[132] تحت شجرة ، وذهبت ، وجلست قبالته على بعد رمي قوس ، وهي تقول : ما نرى إلا الطفل يموت . وجلست ورفعت صوتها ، وبكت[133] ، وسمع الله صوت الطفل ، وقال ملك الله من السماء : مالك يا هاجر؟ لا[134] تخافي إن الله سمع صوت الطفل من حيث هو ، فَقُمْ ، وارْفَعْ ابنك ، وخُذْهُ من يده لأنه في كبير قوم يكون . حينئذ فتح الله عينيها ، وأبصرت عين ماء ، وعمرت الجلد من الماء ، وأعطت الولد يشرب ، وأصلح الله الولد ، وكبر في الخلاء ، وكان رامياً بالقوس» .

وقال في الكتاب المذكور في باب خمس وعشرين : «وهذه أسماء أولاد إسماعيل

---

(130) هنا ينتهي السقط من النسخة «ب» .

(131) «ب» : وسميه .

132) كتب المؤلف كلمة «الولد» فوق كلمة «الطفل» .

(133) «ب» : بالبكاء .

(134) «ب» : فلا .

بن إبراهيم : أول أولاد سيدنا إسماعيل كان : نَبْيُوفتَحْ ، وآسَدَرْ ، والامْبَشَمْ ، ومَشْ ، ومَبْدُ ، مَشْمَشَا ، ادَدْ ، اتْهُمَا ، اجَتْهُرْ ، ونَافِشْ ، ووَسْدَمَا .

فهي أسماؤهم فكانوا في بلادهم وديارهم اثنا عشر ، جميع الإخوان وكل واحد عمل قبيلة وبلداً وحده» ؛ انتهى .

وذكر في التوراية في الكتاب الثاني للملوك في الباب الثاني والعشرين : «إن السلطان يَشيَشْ كان ببيت المقدس بقي به سلطاناً إحدى وثلاثين سنة ، وفي السنة الثامنة عشر بعث السلطان لَشَافَنْ بن أزَلِيَهْ ، من الكُتَّاب ، للبيت المقدس ليبنوا ، ويصلحوا ما فسد فيها . وقال الحبر حِلْكُه لِشَفَانْ[135] وجدت كتاب الدين في بيت الله وهو هذا ، أعطه للسلطان ، فقال حلكه الحبر : أعطاني هذا الكتاب ، وقرأه السلطان ، ولما سمعه قطع اللباس الذي كان عليه ، وأمر بكسر الأصنام ، وأمر جميع الناس أن يعملوا عيداً ، ولم يعمل مثل في زمن السلاطين إلا في زمن الحكام ، حين كانوا التيه» . ويظهر من هذا أن التوراية ليس كانت عند الناس في تلك الأزمنة ، وكيف يثبتون[136] أن هذا هي التي كانت في زمن سيدنا موسى عليه السلام والحمد لله ، والشكر له ، أن القرآن العزيز كان في كل بلد من بلاد المسلمين موجوداً ، وكان عندنا ببلاد الأندلس مع الحكم القوي ، والحرص الشديد من الكفار على من يظهر عنده ، يقتلونه ، ويأخذونه ماله ، ويحرقونه . ومضت أكثر من مائة سنة من حين منعوه ، وهو موجود ، وصدق الله العظيم ، قوله تعالى : ﴿نحن نزلنا الذكروإنا له لحافظون﴾[137] ، وتقدم لنا أن الكتاب المسمى بلبنتق من كتب التوراية في الباب العاشر في المقالة الثامنة ، قال : «كلم الله هارون قائلاً : أنت وأولادك معك لا تشربوا الخمر ، ولا مسكراً ، إذا أردتم الدخول في الجامع ، وما تموتون ، هذا أمر إلى الأبد ، لكل من يتنسل منكم . هذا لتفرقوا وتميزا بين الصلاح والفساد ، وبين الطاهر والنجس ، وتعلم بني إسرائيل ، وتبين لهم ما أمرهم الله به على يدي موسى» .

---

(135) «ب» : لشافن الكاتب .

(136) «ب» : يثبت .

(137) الآية 9 من سورة الحجر ، في المخطوط : القرآن بدل الذكر .

فانظر هذا القول الصريح على الخمر والمسكر، إنه نجس، وأنه مفسد. وجميع اليهود يشربونه. وانظر ما تقدم من قول الملك الذي جاء من عند الله إلى سيدنا زكريا عليه السلام، وقال له: إن الله قبل دعاءك، وامرأتك اليصبات تلد ابنا يدعى باسمه يوحنا - وعندنا في القرآن العزيز اسمه يحيى ويكون له فرح عظيم، وتهليل وكثير يفرحون بمولده ويكون عظيماً قدام الرب، لا يشرب خمراً ومسكراً وهذا في الإنجيل. فاليهود[138] تتعامى على ما عندهم في التوراية من المنع والتبيين أنه نجس. ويحللونه لنفوسهم النجسة. والنصارى تقأ هذا النص في التوراية، وتقرأ أيضاً ما في الإنجيل من قول الملك عن يحيى عليه السلام أنه لا يشرب خمراً ولا مسكراً. وتعتقد الحلية والطهارة في الخمر، حتى لا تجوز الصلاة عندهم إلا به. فاشكر الله أيها الأخ الحبيب على ما وجدت في هذا الكتاب من التبيين على دين الإسلام أنه خير الأديان.

والتقيت بمُسْتَرْضَمْ بفلنضس بحبر مفتي اليهود، مشى[139] من بلاد المشرق. وقال لي في أثناء الكلام عن سيدنا موسى عليه السلام أنه عمل ذنباً عظيماً، قلت له: الأنبياء - عليهم السلام - منزهون عن الذنوب وكيف تقول أنت هذا الكلام؟ قال: نعم، لأنه كان يوبخ بني إسرائيل، ويقول فيهم: أنهم قوم قَاسِحُون[140] لأنهم أهل الله، ولا علت درجته عند الله تعالى إلا بسببهم. وهذا برهان في ما[141] قلنا[142]: إن فيهم الكبر، حتى أنهم يعظمون أنفسهم على أنبياء الله تعالى. وقال لي هنالك يهودي آخر: إن دين الإسلام يتم فيما هو قريب، قلت له: من قال هذا؟ قال: التوراية، إن كل من يأتي بدعوة باطلة لم تبلغ، ولا تدوم ألف[143] سنة، قلت له: هذا قول حسن، لأن دعوة نبينا ﷺ جازت الألف سنة بأكثر من عشرين سنة. فلما أن سمع

---

(138) «ب»: فأما اليهود.

(139) «ب»: جاء إليهم.

(140) قاسحون: معاندون، والكلمة مستعملة في العامية المغربية.

(141) «ب»: لما قلنا.

(142) «ب»: قلت.

(143) «ب»: باطلة لا تبلغ ألف سنة.

ذلك ، نزل عليه الذل والخزي والتغيير ، وخاب ظنه فيما كان يرجوه . وقد وصى عبد الحق الإسلامي ـ رحمه الله ـ في كتابه الذي تقدم ذكره المسمى بالسيف الممدود في الرد على اليهود ـ للمسلمين أن يتحفظوا من أطعمة اليهود بما علم من غشهم ، وأيضاً في كتاب نسيت اسم مؤلفه من كتب المسلمين طلب مني واحد من فقهاء الأندلس أن أترجمه له بالعجمية من العربي بسلا بالمغرب ، وذكر فيه من غش اليهود شيئاً كثيراً ، وحكايات مما وقع للمسلمين معهم تركتها للتطويل . ونذكر ما ذكر لي رجل من أهل العلم بمصر ، عن رجل من أكابر العلماء يعرفه ، قال : إنه كان يمشي إلى حومة ديار اليهود لدار حبر من أكابر علمائهم يقرأ عليه علم المنطق ، لأنه كان بالغا فيه ، ومشى يوماً كما كانت من عادته ، فلما أن دخل عليه من الباب خرج إليه اليهود ، وأخرجه من داره بسرعة وسد الباب في وجهه ، ومشى العالم متعجباً ، ومتغيراً مما وقع له ، ثم لقيه بعد ذلك اليهودي وقال له في سر : لا تأخذ علي فيما عملت معك ، لأننا عندنا في ديننا أن اليهودي الذي يقدر على قتل من لم يكن على دينه[144] ، ولا يقتله ، فهو يرتد عن دين اليهود . وأنت يا سيدي في اليوم الذي جئت إلى داري لم يكن أحد في الدار[145] وكنت قادر على قتلك ، لو دخلت عندي ، وأسرعت بردك لئلا نقتلك ، أو نرتد[146] ، فانظر وتأمل في هذا الأمر ولا تأمنهم في شيء ، لا سيما أن تنادي طبيباً منهم يعالجك ، أو تأخذ منهم دواء لأنه يسهل عليه قتل العليل ، ولا يلزمه شيء ، وغير ذلك من الأمور التي تضر بالإنسان . انتهى الكلام على اليهود .

وأما الحوائج التي كانت مطروحة ببرضيوش التي نهب الرايس لأهل الحجر الأحمر ، فاتصلت بها بعد أن جاز علينا نحو العام ونصف . والحمد لله أن كل من وكلني من جميع الأندلس وصل إليه شيء من الدراهم . ولما تقضينا من أمورنا ببرضيوش ولينا إلى بريش ، بلد السلطان ، والتقيت هنالك بأكبر المنجمين في الأحكام النجومية وقال لي : هذا العلم لم نر له نتيجة أبداً في الأحكام ، وقد جربت كثيراً من الاختيارات ،

---

(144) «ب» : على دينه من غير أن يلحقه ضرر من الحكام ولا يقتله .

(145) «ب» : داري لم يكن فيها أحد وكنت .

(146) «ب» : لئلا نرتد أو نقتلك .

ولم يصدق فيها واحد ، ولم نترك شيئاً من التحقيق في النَّصْبات ، وأخذ الارتفاع للبروج في الطالع مما قال المؤلفون للكتب ، وعندي أكثر من مائة تأليف في الفن ، ونفهم ما فيها . ولما قتل السلطان ببريش أبُولُوشْ الذي هو الآن سلطان ، قلت في نفسي : الشمس التي ينسب الحكم إليها على السلاطين تكون في تلك الساعة التي قتل فيها متصلة بنحس . ولما نضرت ذلك وجدتها مع الزهر وهي سعد ، ولا يحكم للسلطان بذلك إلا بسعد إذا كانت الزهرة مقترنة أو متصلة بالشمس . والعلماء الذين وضعوا هذه القواعد ، والأقاويل ، والأحكام ، فلا نتيجة بعد العمل على مقتضى أقوالهم ، بل نجد المسألة بالعكس مما قالوا ؛ انتهى .

وأقول : اعلم إني كنت قرأت شيئاً في علم الأحكام على الفقيه أحمد المعيوب[147] الفاسي الأندلسي نسباً ، وكان بالغاً في الفن في علم التنجيم والخط الرملي ، وعلم الجدول العديد والحرفي . وكانت له من الكتب في تلك الفنون شيء كثير . لأن السلطان مولاي أحمد ـ رحمه الله ـ ظهر لي أنه كان يمده بالكتب من خزانته التي قالوا نهاية كتبها اثنان وثلاثون ألف كتاباً . وقال لي الشيخ ـ رحمه الله ـ مراراً[148] إذا سألني السلطان شيئاً في الأمور المغيبات نترك الكتب ، ونعمل جدولاً مخمساً ، ونعمره بخمسه أسماء من أسماء الله تعالى ، وهي الهادي ، الخبير ، المبين ، علم الغيوب ، بالتداخل في الصنعة ، بحيث يقرأ طولاً وعرضاً وقطراً على هذا النعت :

الهادي	الخبير	المبين	علام	الغيوب
علام	الغيوب	الهادي	الخبير	المبين
الخبير	المبين	علام	الغيوب	الهادي
الغيوب	الهادي	الخبير	المبين	علام
المبين	علام	الغيوب	الهادي	الخبير

(147) بالأصل المصيوب ، وهو تحريف ، إذ إن أسرة معيوب شهيرة بالأندلس . انظر أ . المقري ، نفح ، 4 : 12 . وانظر ترجمة أحمد المعيوب عند م . حجي ، الحركة ، 2 : 393 ، والمصادر بالهامش 55 من نفس الصفحة .

(148) مراراً : سقطت من «ب» .

ثم نقرأ ما تنقط جميع الحروف بالجزم الكبير . وإذا فرغت من القراءة في الليل قبل النوم ، فنضع الجدول تحت رأسي ، ويأتيني في النوم من يخبرني بالجواب بما أضمرته في نفسي[149] . قال إنه يصدق فيما يجوب به ، ويحتمل أنه كان يعمل نصبة على المسألة ويظهرها ليظن أن الجواب استخرجه منها . ومما رأيت ببريش امرأتين تركيتين : إحداهما عجوزة ، والأخرى من نحو أربعين سنة ، وهي مشغولة بالأشغال العجيبة[150] للسلطان . وكانت النساء جميعاً تتعجبن من حسن شغلها ، وضرفها في الرقم . وكانت تأخذ من عند السلطانة كل يوم ريالة كبيرة ، وسألتها عن السبب الذي جاءها من بلاد المسلمين[151] إلى بلاد الفرنج ، قالت كنا في البحر قاصدين الحج وأخذنا النصارى وأتوا إلى البندقية ، وكتب رسول سلطان فرنجة ، وأعلم السلطانة بشغلها ، وبعثت له يرسلنا إليها ، ثم أن السلطانة ونساء الأكابر دعوها إلى دينهم ، ودخلت فيه ، فقلت لها : ما ألهمني الله في أمور الأديان ، وأنه لا ينجو الآن أحد إلا في دين الإسلام ، وأتيت لها ببراهين على ذلك[152] . وهي كانت تقرأ بالعربية والعجوز كذلك قالت : إنها كانت من الدار الكريمة للسلاطين بإصطنبول[153] . ونادتني يوماً ، وبعد الطعام العجيب ، قالت لي : أطلب منك حاجة لوجه الله تعالى ، قلت لها : اذكري حاجتك ، قالت لي : تدبر علي لنمشي إلى بلاد المسلمين ، قلت لها : وتسمح لك السلطانة في الانتقال؟ قالت :ما تسمح لي أبداً ، قلت لها : إن شاء الله أدبر عليكما حتى ترجعا إلى بلاد المسلمين . حينئذ ودعتهما ،

---

(149) كتب في الطرة : وقد حكم علي تاريخه . . . بإشبانيه . . . من أكابر . . . بأن عمري يكون من أربعين إلى خمسين سنة ، ووجد في مراكش الشيخ أحمد المعيوب على مقتضى كتب الأحكام أنا نعيش ست وستين سنة ، واليوم بلغت إلى أربع وسبعين سنة قمرية . . .

(150) «ب» : العجمية .

(151) «ب» : جاء بها من بلدها إلى بلاد الفرنج .

(152) «ب» : وقالت أنها كانت تقرأ بالعربية .

(153) «ب» : بالقسطنطينية .

وسيأتي الكلام في شأنهما . فمشينا من بريش إلى مدينة روان ، ثم منها إلى مرس البركة أين كان نزولنا من البحر حين جئنا إلى بلاد الفرنج ، وركبنا البحر ، ومشينا إلى فلنضس ، وبلغنا في أربعة أيام أو أكثر . وكنا في مرورنا ذاهبين إلى جهة القطب الشمالي . وبلاد فرنجة عن يميننا ، وبلاد الأنجليز عن يسارنا . ونَرَوْ البرين في بعض المواضع .

الباب الحادي عشر

في ذكر بلاد فلنضس

اعلم أننا مشينا ، وقصدنا تلك البلاد . وهي أبعد عن بلادنا من بلاد الفرنج . ولكن ينبغي للإنسان أن يستعيذ(154) من غيره ، أو من نفسه . وما رأيت ، وتحققت من عمل الفرنج البحرية مع المسلمين ، قلت : لم نُوَلِّي إلى بلادنا(155) في سفنهم؟ بل نمشي إلى فلنضس ، لأنهم لا يضرون المسلمين ، بل يحسنون إليهم ، كما سيأتي . ولما أن بلغنا إلى مدينة مسترضام ، رأيت العجب في حسن بنياتها ، ونقائها ، وكثرة مخلوقاتها ، كاد أن تكون في العمارة مثل مدينة بريش بفرنجة . ولم تكن في الدنيا مدينة بكثرة السفن مثلها . قيل أن في جميع سفنها ، صغاراً وكباراً ، ستة آلاف سفينة . وأما الديار ، كل واحدة مرسومة ، ومزوقة من أعلاها إلى أسفلها بالألوان العجيبة . ولن تشبه واحدة أخرى في صنع رقمها . والأزقة كلها بالأحجار المنبتة . والتقيت بمن رأى بلاد المشرق ، وبلاد الصقالبة ، وروما ، وغيرها من بلاد الدنيا . قال لي إنه ما رأى مثلها في الزين والملاحة . واعلم أن هذا فلنضس ، هي سبع عشرة جزيرة ، وجميعها كانت لسلطان بلاد الأندلس . وبعد أن ظهر في تلك البلاد رجل عالم عندهم يسمى بلُطْرِي(156) ، وعالم آخر يسمى بقَلْبِنْ(157) ، وكتب كل واحد منهما ما ظهر له في دين النصارى عن التحريف ، والخروج عن دين سيدنا عيسى ، والإنجيل ، وأن البابا برومة يضلون الناس بعبادة الأصنام ، وبما يزيدون في الدين ، بمنع القسيسين ، والرهبان من التزويج ، وغير ذلك كثير . ودخل في هذا المذهب جميع أهل فلنضس ـ أعني الجزر السبعة ـ ، وقاموا على سلطانهم إلى الآن . وهم أيضاً على

---

(154) «ب» : يستفيد .

(155) «ب» : بلدنا .

(156) Luther .

(157) Calvin .

هذا المذهب أهل سلطنة الأنجليز . وكثير منهم بفرنجة ، وحذرهم علماؤهم من الباب ، ومن عبّاد الأصنام ، وأن لا يبغضوا المسلمين لأنهم سيف الله في أرضه على عباد الأصنام . وبسبب ذلك لهم ميل إلى المسلمين .

وأما السبعة عشرة جزيرة ، فالسبع منها قامت على سلطان بلاد الأندلس قبل هذا العهد بنحو السبعين سنة . وما قدر عليهم حتى يئس منهم . وهم أقوى من جميع النصارى في البحر بالسفن . وكل جزيرة البحر دائر بها من كل جانب ، وهو المحيط(158) . ولما دخلنا مدينة لَيْدا(159) رأينا فيها مدارس لقراءة العلوم . ووجدت فيها رجلاً كان يقرأ بالعربية ، ويقرئ بها غيره ، ويأخذ راتباً على ذلك ، وكنت عرفته بفرنجة ، وحملني إلى داره ، وكان يتكلم معي بالعربية ، يعرب الأسماء ، ويصرف الأفعال . وكان له كتب كثيرة بالعربية ، ومن جملتها القرآن العزيز ، فأخذنا في الكلام ، وهو يثبت قوله بالتثليث في الألوهية ، لأنهم متفقون في ذلك مع الباب وأتباعهم(160) . وكان يشكر ويمدح دينه كثيراً بالمدح التام لسيدنا عيسى . قلت له كلما تقول فيه من خير ومدح ، فنحن متفقون معكم فيه ، إلا قولك أنه إله ، أو ابن الله حقيقة . وذكر أيضاً الروح القدس ، قلت له : الروح القدس هو البَّارَقْلِيط المذكور في الإنجيل ، قال : نعم ، هو قلت له : أنت تعرف الألسن واللغات ، ما معنى البارقليط؟ قال : هي كليمة ليست من لغة اللَّطِين ، إنما هي من لغة اليونان ، ومعناها بالعربية شفيع . قلت له : هذا من أسماء نبينا محمد ﷺ ، وهذا اسم يدل على اسم شخص ، قال : نعم قلت : ولماذا تجعلونه إلهاً ، وتقولون ثلاثة وواحد معنى شيء واحد .

ثم جاء رجل حكيم مشهور في الطب والعلوم قال لي : نحن عندنا القرآن مترجم باللطين ، وليس فيه معجزات لنبيكم كما عندنا في الإنجيل ، وقال : هل عندكم

---

(158) «ب» : وكل جزيرة من السبعة في البحر المحيط وهو داير بها من كل جانب وهو ليس بمالح كثيراً .

(159) Leyde .

«ب» : فلما دخلنا مدينة ليدا والتقينا فيها رجلاً يقرأ بالعربية ويقرئ بها غيره .

(160) «ب» : مع الباب وأهل مذهبهم .

كتب في معجزات نبيكم ، قلت : عندنا وواحد من الكتب المشهورة في ذلك للقاضي عياض ، وذكرت له شيئاً ، وإن عندنا في ذلك كتب كثيرة ، وكان (يعملها بحضرة أقوام كثيرة . ولما رأت الناس فضله ، وبركاته ، وصدقه في القول والفعل ، وتوحيده ، مع أنه لم يعرف يقرأ ، فدخلت الناس في دينه ، والله تبارك وتعالى ينصر الحق ، حتى أظهر دينه ، على الأديان ، وأكثر معمور الدنيا على دينه . قال الحكيم : والله إننا تمنيت نقرأ هذا الكتاب . ثم قال : هذه المعجزات فيها احتمالات ، لن كثيراً يصنعون مسائلاً بواسطة الشيطان ، قلت : وليس في علمكم بما تفرقون بين المعجزة النبوية الربانية أو الشيطانية المستعملة أو بالشعوذة؟ قال لي : اذكر لي أنت كيف يعرف ذلك؟ قلت : أما النبي فلم يعمل معجزة إلا إذا طلبت منه غالباً ، وينتج منها نفع باطن وظاهر . أما الباطن : حصول اليقين في القلوب ، والصدق لما ذكر لهم[161] من جانب الله تعالى ، وأمرهم به[162] ، ونهاهم عنه . وأما الظاهر يكون فيه نفع ظاهر للناس[163] . مثال ذلك أن يغيث جيشاً من مخلوقات الله تعالى بالماء أو بالطعام ، ولو لم يفعل ذلك لماتوا جميعاً ، كما وقع لنبينا مراراً ﷺ ، فهذا نفع ظاهر ، أو يطلب المطر ، أو يشفي مريضاً . وأما ما يكون مستعمل من الشيطان فإنه لا يعود النفع إلا على خاصة نفسه لا لغيره . وأما بالشعوذة فإنهم يصنعون ذلك من غير أن يطلب منهم ولا يحصل منها نفع حقيقي أبداً ، لا ظاهراً ، ولا باطناً . وهم الذين يجذبون ليروا ما يعملونه . وإذا طلبهم أحد أن يصنعوا شيئاً من خوارق العادات غير الذي يظهرون ، فلا يقدرون عليها . وصاحب الشعوذة يعمل العجائب لعله بذلك يفرح الناظرين ، ويعطونه شيئاً يعيش به ، ولو قيل له : علمني هذا الذي أنت تعمله وأعطيك دراهم فيعلمه حتى يكون مثله في العمل حينئذ . قال الحكيم : صدقت فيما قلت ، هذا هو الحق .

وبعض العلماء هنالك اتوني بكتاب عربي قالوا لي : أتعرف تقرأ هذا؟ فلما

---

(161) «ب» : للناس .

(162) «ب» : وأمرهم به .

(163) «ب» : وأما الظاهر يكون النفع للناس .

طالعته ، كان يتكلم في التصوف وأن بعض الصالحين لم يتكلم في الجامع مع أحد من الناس ، وإذا احتاج أن يرد الجواب يخرج إلى باب الجامع ويرده . قلت لهم : فهمت ما فيه ، وأقدر أن أترجمه بالأعجمية . فتعجبوا فيما بينهم ، وقالوا لي : هذا الكتاب ساقوه من جزيرة كذا من الهنود المشرقية التي بيننا وبينها في البحر زمن طويل ، أقل من سنة في البلوغ إليها . وهذا عجب ، لأن بين بلادك وبينه شيء كثير ، وأنت تفهم ما في الكتاب ، وهذا يدل على أن العربية لسان واحد عام في كل بلد ، وكلامنا في هذه البلاد مختلف لسائر الألسن ، لأن في بلاد الأنجليز كلام واحد ، وأهل فرنجه بلغة أخرى ، وكذلك ببلاد الأندلس عجمية أخرى ، وكذلك في إيطالية ، وألمانية ، ومشقبيه[164] . وكل لسان مختلف عن غيره ، وهذه العربية واحدة في الدنيا . وقالوا الحق في ذلك ، فهو كلام مبارك ، ومن يتكلم بها لابد يذكر الله ، ولذلك كان يقول بعض من الأندلس : لا عربية بلا الله ، ولا عجمية بلا شيطان ، لأن النصارى يذكرونه كثير في كلامهم . ولا يكره العربية ، والكلام بها إلا من لا يعرف فضلها وبركتها[165] ، انتهى[166] .

ثم مشينا من مدينة ليذا إلى مدينة الهَايَهْ[167] ، فيها دار أميرهم ، والديوان . والتقيت هنالك برسول الأمير . كنت عرفته بمراكش ، وكان شاكراً إلي كثيراً على ما وقفت معه في سجنه حتى خلصته منه . وسبب قدومه إلى مراكش أن سلطان بلاد الأندلس بعث الأغربة إلى الجزر التي قلنا أنها على غير طاعته ، فخرج إليهم أهل الجزر ، وأخذوا الأغربة ، ورموا من كان فيها من النصارى في البحر ، كذا قيل . وفكوا كل من كان فيها من المسلمين ، وكانوا أكثر من ثلاثة مائة ، وجعلوهم في سفينة عظيمة ، وبعثهم أهل فلنضس هدية إلى سلطان مراكش ، وكان ابن مولاي أحمد ،

---

(164) «ب» : ومسقوبيه .

(165) «ب» : فضلها قالت الصالحة مريم عليها السلام في كتاب مواهب الثواب لعباد الله المؤمنين فضل لسان العربية على ساير الألسن كفضل الشمس على دراري السماء ثم مشينا إلى النهاية .

(166) كتب في الطرة : وصح من هذا الكتاب العربي الذي . . . أنهم سكان مسلمون .

(167) La Haye .

اسمه أبو فارس ، وكان ذلك في نحو أربعة عشر سنة وألف . ومشى بهم رسولاً بِدْرُمَرْتِينْ الذي التقيت به من غير ظن ، وذلك بإلهايه ، وهي بلاده . وبعد أن جلس هذا الرسول بمراكش سنين في زمن الهرج والشر ، ثم ثبت في المملكة السلطان مولاي زيدان ، فسجن هذا الرسول ، لأنه ما مشى بالهدية في زمانه ، وبعد أن جاز زمن على الرسول في سجنه ، بلغني الخبر ، وتذكرت الخير الذي عملوا للمسلمين حين بعثوهم هدية إلى ملتهم . وقفت ، ودبرت ، وكلمت ، المفتي العالم الشهير محمد أبا عبد الله[168] . وكلم السلطان وانطلق من السجن ، فلما أن زارني ببلاده مشى إلى الأمير ، وأعلمه ، وحملني إلى عنده ـ واسم الأمير مَوْرِسِيُ ـ وأقبل علي ، وعرَّ رأسَه ، وأخذ بيدي ، وأجلسني معه ، وزرته أربع مرات . وبعد أن جلست يوماً قال لي : ماذا تعرف من الألسن ، قلت له : العربية ، ولسان إشبانية ، ولسان أهل برتغال ، وكلام الفرنج نفهمه ولكن ما نعرف نتكلم به . قال لي : فأنا نعرف كلام الفرنج ، ونفهم كلام إشبانية ـ وهو كلام أهل بلاد الأندلس كما قلنا مراراً ـ ولا أعرف أتكلم به ، وإلى هذا فأكلمك بالفرنج ، وتكلمني بلسان أهل بلاد الأندلس العجمي ، قلت : نعم ، قال لي : ما السبب الذي ظهر لك حمل سلطان إشبانية على إخراج الأندلس من بلاده ، قلت : اعلم أن الأندلس كانوا مسلمين في خفاء من النصارى ، ولكن تارة يظهر عليهم الإسلام ، ويحكمون فيهم ، ولما تحقق منهم ذلك لم يأمن فيهم ، ولا كان يحمل منهم أحداً إلى الحروب ، وهي التي تفني كثيراً من الناس ، وكان أيضاً يمنعهم من ركوب البحر لئلا يهربوا[169] إلى أهل ملتهم ، والبحر يفني كثيراً من الرجال ، وأيضاً في النصارى كثيرون قسيسون ، ورهبان ، ومترهبان ، ومترهبات ، وبتركهم الزواج ينقطع فيهم النسل ، وفي الأندلس لم يكن فيهم قسيسون ولا رهبان ولا مترهبات ، إلا جميعهم يتزوجون ، ويزداد عددهم بالأولاد ، وبترك الحروب ، وركوب البحر . وهذا الذي ظهر لي حمله على إخراجهم ، لأنهم بطول الزمن يكثرون ، ثم

---

(168) يقصد محمد بن عبد الله الرجراجي (المتوفى سنة 1022 هـ/ 1614 م) انظر ترجمته عند : م . حجي ، الحركة ، 2 : 389 ، والمصادر بالهامش 41 من نفس الصفحة .

(169) «ب» : يهربون .

قلت له : أتفهم كلامي ، قال لي بالفرنج : كلما قلت فهمته ، وما ذكرت هو الحق . قال لي لو اتفقنا مع كبراء الأندلس ، ونبعث لهم عمارة من سفن كبيرة ليركبوا فيها مع جنودنا نأخذ إشبانية ، قلت : لا يمكن للأندلس أن يتفقوا على هذا إلا بإذن السلاطين الذين خرجوا ببلادهم وسكنوا بها ، قال : لو كنا نتفق مع سلطان مراكش ، ونبعث للسيد الكبير - أعني السلطان الأعظم ، سلطان الإسلام والدين - ونتفق جميعاً على سلطان إشبانية نظفر به ، ونأخذ بلاده ، قلت له هذا أمر عظيم لو حصل ، وفي تحصيله شك . وأما لو كان هذا الاتفاق ، فيأخذون بلاد الأندلس - أعادها الله إلى الإسلام - وقال للرسول : أكتب رمزاً في الحروف ، واعطه نسخة ، لتكون المكاتبة بيننا وبينه . وأعطاني نسخة ، ثم قال لي : تمنى علي ، معنى هذا القول : اطلب ما تحب مني ، وهي عادة عند ملوك النصارى ، أن قالوا لإنسان أطلب مني ما شئت : إنهم يعطونه ما يطلبه منهم ، ولا يقولون ذلك إلا نادراً ، لمن رضوا عنه عامة الرضا . قلت في نفسي النصارى تقول عن المسلمين أنهم طماعون كثيراً في متاع الناس ، وهذا لم ير من المسلمين إلا قليلاً منهم - وأنا أحدهم - وليعلم ويتحقق أن الذي يقولونه فيهم ليس بصحيح ، ولمن فيهم من لا يطمع في ماله ، فلا نطلب منه مالاً ، قلت له : أطلب من فضلك مسألة أو شيئاً ، قال : ما تطلب ، قلت : أن توصي بنا رايس السفينة التي نمشي فيها ، قال : هذا فقط ، قلت : نعم ، فابحث حتى تتحقق من السفينة التي تمشي ، واعرف إسم الرايس ، وأيضاً إسم التاجر مَوْلاَ السفينة ، واتني . فأخبرنه بأسمائهما ، وأمر الكاتب للسر[170] أن يكتب لكل واحد بَرَاة بالوصية علينا ، وعلم عليها ، وفرح كل واحد بكتابه ، فالتاجر استعمل لنا من السكر أنواعاً من الأطعمة ، وأعطانا حتى التمر التي هي غريبة عندهم ، لأنها مجلوبة من بلاد المسلمين ، إذ ليس هي في الدنيا ، إلا في بلادهم . وأما الرسول الذي فرح بي في بلاده قلت له : إن[171] تركيتين ببلاد الفرنج ببريش ، واتفق لهما بأن دخلنا في دين النصارى ، وطلبتا مني أن أدبر عليهما حتى ترجعا إلى بلاد المسلمين ، وأنا راجع

---

(170) «ب» : لكاتب سره .

(171) «ب» : قلت له اعلم أن .

إلى مراكش في هذه الأيام - إن شاء الله تعالى - ، وكيف يكون التدبير عليهما ، قال : اكتب لهما تأتيان إلى داري ، وأنا أدبر عليهما حتى ترجعا إلى بلادهما . وكتبت لهما بذلك ، وبعثت البراة إلى رجل أندلسي ، وبلغها لهما ، وسترهما الله تعالى في الطريق من الفرنج حتى بلغتا إلى فلنضس . ووقع التدبير مع الأمير(172) ، وبعثهما في سفينة تجار إلى اصطنبول ، وبلغتا سالمتان . وصنع معهما ذلك بعد أن مشيت من تلك البلاد ولا رأيتهما ، والخير يأتي بخير . وأما الرايس كان يفرح بنا في سفينته ، وذلك مقصودنا .

وأما مدينة إلهاية التي كان فيها الأمير ، فعرضها اثنتان وخمسون درجة ، وذلك في إقليم السادس من الدنيا . وأصابنا الحال ونحن فيها أطول أيام العام عند حلول الشمس بالسرطان ، وليس طول الشمس وغروبها كهذه البلاد - أعني مصر والمغرب والشام وبلاد الأندلس - . فاليوم هنا لك من أول الفجر من نحوسبعة عشرة ساعة بتقريب ولا ظلمة في الليل إلا قليلة ، وغروب الشمس ثم بعد ذلك بساعة ونصف بتقريب نصلي الصبح .

ويطول الكلام على ما رأينا بفلنضس ، ذكرنا شيئاً(173) في الرحلة ، وأيضاً حكاية

(172)زيادة في «ب» : «بواسطة الرسول وكان قد قال لي الرسول إن المسلمين الذين وجدوا في بلدهم في الأغربة حين أراد الأمير أن يبعثهم هدية إلى بلاد المسلمين جاء التجار إليه وقالوا له أن يبيع لهم المسلمين ليفدوا بهم نصارى أسارى عند المسلمين ، قال لهم : نبعثهم هدية للمسلمين ليعملوا الخير مع أهل بلدنا الذين يردون عليه . حينئذ قالوا : المسلمون طماعون ولا يرون الخير . قال لهم : إن لم يكن فيهم واحداً من يرى بهذا الخير لوجه هاذا الواحد نعطي هؤلاء الأسارى كلهم . ولما أن وقفنا مع الرسول في مراكش حتى خرج من السجن وردوا له حصانه وغير ذلك قال إنه كتب للأمير وأخبره وقال له هاذاك الواحد الذي قلتم إنه يرى بالخير الذي عملتم مع المسلمين الذين بعثوني بهم قد ظهر . وذكر ذلك الخير حتى بلغ السلطان وأطلقني من السجن ، ولنكذب التجار الذين قالوا العيب في المسلمين ما درات نطلب شيئاً من المال ورضى المسلمين عندي أفضل من كل متاع الدنيا» .

(173) «ب» : ذكرنا شيئاً من ذلك في الرحلة .

الستة رجال[174] الذين جاءوا في سفينتهم من البحر الذي يكون فيه اليوم من ستة أشهر أو قريباً من ذلك، لا ليل فيها . وبعكس ذلك في زمن الشتاء لا شمس فيها من مثل ذلك الزمن الشتاء[175] .

وأما ما ذكرته في هذا الباب مما جوبت به للأمير في شأن الأسباب التي حملت لسلطان النصارى على إخراج الأندلس من بلاده، فنذكر هنا شيئاً، ولم نذكر في النسخ التي سبقت لهذا المختصر .

اعلم أن سلطان البلاد المسمى بِفِلِبٍّ الثاني، من اسمه، أعني ممن سمي من السلاطين بفلب . وبينت هذا لأني طالعت بعض كتب التواريخ للمسلمين فيما وقع لهم من الحروب مع سلطان البلاد المسمى بألْفُنْشُ، ولم يبينوا أيهم كان، لأن ببلاد الأندلس كان فيها أكثر من اثنا عشر سلطاناً من سمي بألفُنْش، إلا أنهم يذكرون كل واحد بحسابه من الاسم، مثل أن يقولوا ألفُنْش الرابع، أو الثامن، أو العاشر . والمؤرخون المسلمون لا يذكرون درجة للاسم . وهذا فلب الثاني أمر في بلاده كلها قبل خروجي منها أن يُزَمِّمُوا[176] جميع الأندلس صغاراً وكباراً، حتى التي في رحم النساء بظهور الحمل . ولا علم أحد السر في ذلك .

ثم بعد ذلك بنحو السبع عشرة سنة عملوا زِمَاماً آخر مثل الأول ـ كما أعلموني بمراكش ـ ولم يدر أحد السر في ذلك حقيقة . ولكن قال لسان الحال أنهم أرادوا يعلموا هل كانوا في زيادة م لا؟ ولما وجدوا زيادة كثيرة أمروا بقرب ذلك بإخراجهم . وكتب السلطان فلب الثالث ـ من اسمه ـ كتاباً لقريبه، وخليفته بمدينة بلنسية يأمره أن يشرع في إخراج الأندلس وترجمت نسخة من البراءة للسلطان مولاي زيدان ابن السلطان مولاي أحمد بمراكش . وكان تاريخ الكتاب ـ والله أعلم ـ في أول عام ثمان

---

(174) «ب» : وأيضاً حكايات ستة رجال .

(175) هناك زيادة في «ب» : «إنه لا يرى فائدة في ذكرها، لأنها تشوش على النص الأصلي، وبالتالي لا يستقيم معها معنى» .

(176) يزمموا : يسجلوا، والكلمة مستعملة في العامية المغربية .

عشرة وألف من الهجرة[177] .

قال فيه[178] :

«مَرْكِشْ ذَا قَرَسِنَا[179] ، قريبنا ، وخليفتنا في سلطنتنا ببلنسيه . سلام .

قد علمت ما صنع ، وعمل مع النصارى الجدود الأندلس أهل تلك السلطنة ، وقشتالة على طول السنين الكثيرة الماضية من التحريض ، والإرشاد لإثباتهم في ديننا المجيد وإيماننا . ولا نفع معهم قليلاً ولا كثيراً لأنه لم يجد فيهم واحد من هو نصراني حقيقة . والغرر والشر الذي يمكن أن يحدث بسبب ما تعامينا عليهم ، قد ذكره إلينا رجال وصلحاء ، وأنه لزمنا إصلاح ذلك الأمر ، لنرضي به الله ، ونزل غضبه من أجل هذه الأمة ، وأفتوا فيهم أنه يجوز لنا من غير شك أن نعاقبهم في أنفسهم وأموالهم ، لأن الاستمرار على سوء أفعالهم ختم وحكم عليهم أنهم منافقون ، وأعداء للمقام الإلهي والإنساني[180] ، وهب أننا قادرٌ على أن نُجَزِيهِمْ ونعاقبهم بما أوجب سوء فعلهم ولَوْمَتِهِمْ . فمع ذلك اخترت معاملتهم على طرق الحلم واللين ، وترك المؤاخذة . وبسبب ذلك أمرنا باجتماع المحفل الذي حضرت فيه مع العلماء والأكابر في تلك المدينة لعلي نجد سبيلاً لترك إخراجهم من مملكتنا . ونحن في هذا تحققنا ، وصح من وجوه ، أنهم بعثوا للتركي الكبير بإصطنبول ، ومولاي زيدان بمراكش رسلهم يطلبون منهم أن ينجدوهم ، وأنهم عندهم مائة وخمسون ألف رجلاً مسلمون مثل الذين ببلاد المغرب الإفريقية . وأيضاً بعثوا لأعدائنا البحرية بالجهة الشمالية التي تحت القطب ، وأنْعَموا أنهم يَعينُهُمْ بسُفُنِهِمْ . وأما سلطان إصطنبول قد اصطلح مع سلطان الفرس ، لأنه كان يشغله ، وأما سلطان مراكش فقد عزم على تدويخ البلاد وتسكينها . وإذا اتفقوا جميعاً مع هؤلاء نَرَوْ نفوسنا في الأمر الذي لا يخفى . وللقيام بما لزمنا من حفظ مملكتنا ، ودفع ما يعرض لها اتفق نظرنا ـ بعد أن دعوت الله وأمرت

---

(177) «ب» : من حسابنا .

(178) انظر النص الإسباني عند : M.G. Arenal, Los Moriscos, pp. 251-255.

(179) Marques de Carazena .

(180) «ب» : هنا يبدأ سقط آخر في «ب» .

بالدعاء له طامعاً ، ومتوكلاً في تأييده ونصره لما يجب لجده وفضه ـ على إخراج جميع الأندلس الذين هم في تلك السلطنة لأنهم أقراب للغرر وللانجاز بذلك أمرنا بإشهار هذا الأمر وينادى به .

فأولاً يعرف منه أن جميع الأندلس التي في تلك المملكة رجالاً ونساء ، بأولادهم في ثلاثة أيام من شهرة هذا الأمر بالبلاد التي هم ساكنون ، أن يخرجوا ويمشوا ليركبوا البحر في الموضع الذي يومر به ، وأن يحملوا من العروض والأثاث ما يستطيعون عليه ، ليركبوا في السفن والأغربة التي هي موجودة لحملهم إلى بلاد المغرب ، وينزلونهم من غير مضرة لأحد في النفوس والأموال ، ويعطونهم ما يحتاجون إليه من الطعام ما داموا فيها . ومن أراد أن يحمل لنفسه ما يقدر عليه فليفعل . ومن يتعدى عن هذا الأمر فليقتل في الحين .

وإن كل من يوجد بعد ثلاثة أيام التي ينادى بالأمر خارجاً عن بلده ، يجوز لكل من لقيه أن ينهب ما عنده ، ويسلمه للحكام وإن امتنع يجوز له قتله .وإن كل من سمع النداء لا يخرج من بلده إلى غيره حتى يمشي مع من يقودهم إلى ركوب البحر .

وإن كل من يدفن شيئاً من أمتعته إن لم يستطع الرُّفُودَ معه ، أو يحرق شيئاً من الزرع أو الأشجار ، أن يقتل على ذلك ، وأمرنا جيرانه بتنفيذ الحكم فيهم .

ولما يصلح بالبلاد في معاصر السكر ، والروز ، وسقي البلاد ، ليعلموا السكان الجدد أمرنا بقعود ستة من الأندلس بأولادهم الذين لم يتزوجوا في كل بلد يكون من مائة دار ، والأمر في ذلك لسيدهم ، فهو لمول كل بلد ، ويكون من الفلّحِينَ القدماء الذين ظهر عليهم القرب والميل لديننا ، ويرجى فيهم الثبات عليه .

وإن الرماة والنصارى القدما لا يأخذون شيئاً من أموالهم ، ولا يقربوا إلى نسائهم وأولادهم ، ولا يكتم منهم أحداً في داره ، ومن يفعل ذلك يجعل في مقدف الأغربة ست سنين ويزداد على ذلك ما يظهر لنا .

وليعلموا أن السلطان[181] ما مراده إلا إخراجهم من بلاده إلى بلاد المغرب ، فلا يضرهم أحد بوجه من الوجوه ، وأنه ينفق عليهم ، ويحملهم في سفنه ، وإذا بلغوا ،

(181) «ب» : هنا ينتهي السقط في «ب» .

فليرجعوا عشر منهم ليعلموا لغيرهم . وكبراء الأغربة والسفن فليعملوا بهذا الأمر .

وإن الصبيان والأيتام من أقل من أربع سنين ، وإذا أرادوا القعود برضاء وكلائهم والأوصياء ، فليقعدوا .

وإن الصبيان الذين يكون أولاد نصارى لا يخرجوا ، ولا لأمهاتهم معهم ، وإن كانت أندلسية . وإن كان أبوهم أندلسي وأمهم نصرانية فَتَقْعُودُ[182] المرأة بأولادها التي من ستة فأقل ، وهو يذهب ويخرج» .

وشهر هذا الأمر ونودي به في الثاني والعشرين من شهر شتنبر من عام تسع وست مائة وألف من ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام[183] ، انتهى .

وبعد أن خرجوا أهل سلطنة بلنسية ، فأمر بالخروج للذين كانوا بالأندلسية وغيرها من البلاد القريبة إليها أن يخرجوا . وبعد أن اكتروا السفن ـ وهم في واد إشبيلية ـ بعث السلطان أمراً عكس الأول ، وقال : إن كل من اكترى سفينة ليمشي لبلاد المسلمين أن يأخذوا لهم كل من كان من أقل من سبع سنين من الأولاد والبنات ، وأخرجوا كل من كان في عشرين سفينة . وأخذوا لأهل الحجر الأحمر نحو ألف من الأولاد . وكل من جاز على طنجة ، وسبتة ، فأخذوا لهم أولادهم مثل الآخرين . والله تعالى قادر على أخذ الحق منهم في الدنيا على يدي من فضله الله واختاره من سلاطين المسلمين[184] .

---

(182) «ب» : فتقعد .

(183) «ب» : ثم بعد ذلك أمر أمراً عكس هذا الذي فرغنا منه إن كل من يكري سفينة للخروج في بلد المسلمين يأخذ أولاده كل من كان من نحو العشر سنين أو سبعة وأخذوا منهم شيئاً كثيراً من الأولاد والبنات وأخرجوا من عشرين سفينة كل من كان فيها من الأولاد وأخذوا لأهل الحجر الأحمر .

(184) «ب» : إنه على ذلك قدير إنه نعم المولى ونعم النصير .

الباب الثاني عشر

فيما اتفق لنا في مصر مع راهب عالم كان بالغاً في فنون العلم ويقرأ بالعربية وأيضاً ما وقع لي من المكاتبة لراهب من أكابر علماء النصارى بمراكش

وذلك أنه جاء في البحر في سفينة من الهنود، قاصداً إلى بلاد الأندلس، ليحضر في الديوان الكبير للقسيسين، ليبعثوا الرهبان لأقطار الدنيا(185)، كما هي من عادتهم، لأنهم لا يتركونهم(186) للسكنى في البلاد التي يمشون إليها، إلا نحو العامين أو ثلاث(187)، ثم يرحلونهم(188) إلى بلاد غيرها. ورايس السفينة جاء إلى مرسى أزمور من بلاد المسلمين، وظن أنها من بلاد النصارى، ودخل فيها وبقي أسيراً هو وجميع من كان في السفينة، ومن جملتهم الراهب الكبير، وأتوا[ا] بالجميع إلى مراكش، وقبل أن جاء، كنت تكلمت مع السلطان مولاي زيدان - رحمه الله - في فداء راهب أسير، ودفع المال في فدائه، وذهب إلى بلاده، وفرحت بذلك، بأنه كان يثبت كل من يسلم من النصارى في دين الكفار في خفاء من الناس، ولو تحقق سلاطين المسلمين من سوء فعل القسيسين، والرهبان، وأنهم يحتالون على أكثر من يرجع مسلماً من النصارى ليرتد في خفاء عن دين الإسلام، وأن يكون عدواً للمسلمين، لا يتركون أبداً واحداً منهم في بلادهم. وهذه نصيحة مني إليهم. وما قلت فيهم فهم صحيح لا شك فيه. ثم إن الراهب الذي جاء من الهنود بلغه الخبر بأني تكلمت في فداء الراهب الذي كان قبله وانْفَدَا، ومشى. وبعث لي كتاباً

---

(185) «ب»: لأقطار بلدهم.

(186) «ب»: لا يتركون.

(187) «ب»: أو ثلاث سنين.

(188) «ب»: يرحلون.

بالأعجمية[189] يطلب مني أن أكلم السلطان في فدائه . وقرأت الرسالة ، وبان لي مما كتب أنه من أكابر علمائهم . وكان في أعلى البراءة صليب مكتوب كما هي من عادتهم ، فكتبت له الجواب ، وقلت له أن يصير حتى نجد مفصلاً[190] للكلام مع السلطان . ولما أنه صدر في أعلى كتابه الشرك بصورة الصليب الذي يعبدونه ، كتبت أن في أعلى الكتاب توحيد الله تعالى الذي هو ضد الشرك ، وكتبت بالأعجمية : بسم الله الواحد في ذاته ، واحد في صفاته ، واحد في أفعاله . وبعد أن قرأ الجواب كتب لي براءة ثانية ، وذكر فيها كلاماً عن الذات الكريمة ، والصفات ، والأفعال ، موافقاً لتوحيد المسلمين . ثم قال الله تبارك وتعالى : خلق آدم على هيئته ، أو على مثاله . وهذا القول هو ابتداء شركهم ، لأن مرادهم بالتشبيه أن سيدنا عيسى عليه السلام له أصل في ذلك الخلقة للألوهية ، التي يقولون فيه ـ لعنهم الله وأخزاهم ـ . ثم كتبت له الجواب على الكفر الذي ذكر في كتابه ، وقلت له : الله تعالى منزه عن الشبيه ، والمثال .

وبرهان ذلك أن أبانا آدم عليه السلام ولا شيء من جميع المخلوقات ، فلا تشبه إلى الله تعالى في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله . أما ذات الإنسان فهي حادثة ، والله تبارك وتعالى قديم ، والإنسان فان ، والله تعالى باق على الدوام ، والإنسان مفتقر أبداً إلى المحل ، والله تعالى غني عنه ، وقائم بنفسه ، والإنسان مفتقر أبداً ، والله تبارك وتعالى هو الغني ، وكل ما سواه مفتقر إليه . وأما الإنسان فله صفات مختلفات لصفات الله تعالى . فالإنسان له سمع ، وبصر ، وكلام ، وقدرة حادثة ، وعلم ، وغير ذلك من الصفات . أما السمع فيسمع الإنسان ما هو قريباً منه ، وإذا تكلم إليه جماعة من الناس في حين واحد ، فلا يفهم ما يقولون إلا أن يتكلم واحد وحده ، ويكون الكلام باللغة التي يعرف هو ، والله تبارك وتعالى يسمع البعيد والقريب ، وما تقوله جميع المخلوقات بلسان المقال ، ولسان الحال ، وما في الضمائر في حين واحد ، ولا يشغله شيء عن شيء . وأما البصر فالإنسان يبصر القريب بشروط ، مثل الضوء ، وأن

---

(189) «ب» : بالعجمية .

(190) «ب» : موصلاً .

لا يكون حائلاً بينه وبين المنظر[191] إليه ، والله تبارك وتعالى يرى البعيد والقريب ، وما تحت الثرى ، وما في داخل الأرحام[192] . وأما الإنسان فلا يعلم من العلم إلا قليلاً ، والله تعالى أحاط بكل شيء علماً ، وكذلك سائر الصفات الإنسانية كلها ناقصة ، محدودة ، عاجزة ، فانية ، كلها مختلفة لصفات الله تعالى . وأما فعل الإنسان فلا يخرج عن عادته في الأعمال إلا نادراً حتى أن الخط الذي يكتب يكون معروفاً له حتى تشهد الناس ، ونقول هذا خط فلان ، وكذلك سائر العمالات والصنائع ، وانظر ، وتأمل في أفعال الله تعالى ، الخالق العظيم ، أن جميع مخلوقاته لا يشبه أحدا أحداً ، ولو اجتمع كل من خلق من بني آدم في الدنيا ، وما يخلق فلا يشبه إنسان آخر غيره ، وإذا شبهه في بعض الأعضاء لابد أن يختلف عن غيره في شيء ، أما في الصوت ، أو غير ذلك ، فهو تبارك وتعالى واحد في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، لا شبه له ، ويزيد في هذا المعنى شيئاً ، ولا تذكرت هل كتبته في البراءة أم لا؟ وهو إن [الإنسان][193] إذ دخل في غابة أشجار من نوع واحد مثل السُّنُوبَر ، أو قَسْطَل ، أو بُلوطِ ، أو غير ذلك ، وينظر في الأشجار فيرى كل شجرة مختلفة عن جميعها في الطول أو العرض ، أو بعض الأغصان ، أو غير ذلك ، وهذا ظاهر للعيان ، دل هذا أن الله سبحانه وتعالى لا نهاية ولا حد له في علمه ، وقدرته ، وإرادته ، وجميع صفاته .

وأما الإنسان فبخلاف ذلك في فعله ، وعمله . وقد رأيت يوماً رجلاً اشترى بعض الصَّبَابطْ[194] أو رَوَاحِي صغاراً لصبيانه ، وفي الزنقة التقى بمعلم خراز قال له : هذا الصَّبَابِطْ[195] من دكاني؟ قال له : وكم من حوانيت في مراكش عامرة بمثل هذا ، قال

---

(191) «ب» : المنظور .

(192)بالأصل «الاحرام» وقد أثبتنا ما يوجد بنسخة «ب» ، وهو الأصح .

(193) إضافة من «ب» .

(194) الصبابط : جمع صباط وهي الحذاء ، والكلمة من أصل إسباني (Zapatos) وقد سقطت من «ب» ، والرواحي جمع ريحية : حذاء نسوي : (دارجة مغربية) .

(195) «ب» : هذه السبابط هي من دكاني .

الخراز : لو كان شغلي بين مائة مثله أعرفه ، وقال رجل فخار : كنا نخدم نحو الثمانية من الصناع في عمل القُلَلِ ، أو قُدُورِ[196] ، أو غير ذلك من المواعين من عجنة واحدة ليس فيها إلا الطين ، والماء . والمواعين على مقدار واحد . وبعد العمل ، فنعرف ونميز شغل كل واحد ، ومن هو الذي عمله من الصناع ، وهذا من ملة ما ذكرنا من خط الإنسان أنه يعرف كاتبه . وبعد أن فرغت من الجواب للراهب كتبت له سؤالاً في دينه ـ لما علمت من سوء اعتقادهم ـ ، وهذا معناه : ما قولكم في دينكم في رجل زنا بامرأة محصنة ، وحملت منه ، وولدت ، وزوج المرأة يعتقد أن المولود كان ابنه حتى كبر زوجه ، وأعطاه حظاً من ماله ، واشتكى يوم الحساب لله سبحانه من زوجته ، وممن زنى بها ، والمال الذي أنفق ، وأعطى لابن الذي زنى بها ، فأحضر الزاني والزانية ، وقيل لهما في ذلك ، فقالت المرأة : أنا ذكرت ذنبي للقسيس الفلاني ، وغفر لي ، وقال الزاني إنه ذكر ذنبه لقسيس في الدنيا ، وغفر له ذنبه ، والسؤال منكم أيها الراهب ، العالم في دينه ، هل بقي للرجل المظلوم ما يطلب أم لا ، وكتب الجواب ، وقال : ليس للرجل ما يطلب من زوجته ، ولا ممن زنى بها بعد استقرارهما في الدنيا للقسيس من الذنوب ، لأنه غفر لهما ولم يبق للزوج حق عليهما ، انتهى .

فانظر هذا الاعتقاد الفاسد الذي عندهم في دينهم ، الأصل فيه يقولون بألوهية سيدنا عيسى عليه السلام ، وأن الباب[197] خليفته ، وجميع أئمة دينهم كل واحد خليفة الباب . ويأمرون الناس في كل عام في أيام صيامهم أن يمشي كل من هو بالغ من ذكر أو أنثى إلى الكنيسة ، ويذكر للقسيس جميع ذنوبه ، ويعطيه براءة بالمغفرة ، ويأخذ الدراهم عليها . حينئذ يذهب مغفوراً له . وفي سائر الأيام إذا كان مريضاً يمشي إليه القسيس إلى بيته ، ويغفر له ، ويأخذ أجرته دراهم[198] .

---

(196) «ب» : في عمل واحد قلل وقدور وغير ذلك .

(197) «ب» : البابا .

(198) «ب» : سقطت من «ب» .

وقد طالعت كتاب الترجمان[199] ـ رحمه الله ـ وقال في القاعدة الخامسة من كتابه في الرد على النصارى، وذكر مثل هذا.

وإني أعطيت دراهم سنين عديدة في بروات الغفران، معتقداً في كفرهم، ولكن كانوا يطلبون لكل واحد براءته بعد أيام الصيام مكتوب فيها أن فلاناً استقر للقسيس الفلاني بذنوبه، وأنه غفر له، ويعلم براءته، وإن لم تكن له البراءة، يحكم فيه[200].

وأما راهب مصر، كان يقرأ بالعربية، وكان عنده القاموس بالعربية والعجمية. وقد التقيت به من أجل كتاب تعديل الكواكب، فنعرف منه في أي يوم تكون الوقفة بعرفة، وغير في أيام الأهلة، وإن لم يكن العمل بقول المنجمين في الأهلة إلا بالرؤية للهلال، فلا يضر النظر في ذلك، وسألني الراهب عن اعتقادنا في الجنة: هل فيها أكل، وشرب؟ قلت له: نعم فيها ذلك وأكثر من ذلك كما شهد به الإنجيل الذي عندكم، لأن سيدنا عيسى عليه السلام قال لتلامذته: إني لا أشرب من عصير هذه الكرمة إلى ذلك اليوم الذي أشربه معكم في ملكوت أبي، وفي موضع آخر في الإنجيل في ملكوت الله. قال الراهب: ليس ذلك الكلام على ظاهره، ونكر ذلك أشد الإنكار، كما هو في اعتقادهم وأما قول سيدنا عيسى عليه السلام في ملكوت أبي، فلا يفهم منه أنه يعتقد أنه أبوه حقيقة، والمراد بذلك أن أباه هو الذي أخرجه من العدم إلى الوجود، كما لغيره في أكثر من عشرة مواضع من الإنجيل الأول في معنى العبادة في شهادة

---

(199) يقصد كتاب عبد الله الترجمان المسمى: تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب. وقد كتبه بتونس سنة 1420.

ودرسه ونشره ميكيل دي أبالزا في بحثه: La Tuhfa, autobiografía y polémica contra t cris-tianismo de Abdallah al-Taruman (Fray An selmo Turmeda), Roma, Accademia Nazionale dei lincei, 1971.

كما نشره بالقاهرة الدكتور محمودة حماية وانظر أيضاً عن الكتاب: L. Cardaillac, Morisques et chrétiens, pp. 161, 201, 215, 217, 218, 372.

(200) في «ب»: وهم بهذا الاعتقاد الفاسد يعينون الرجال والنساء على الفساد لأنه إذا علم الإنسان أن الذنب الكبير يغفره لي القسيس فيسهل عليه عمله.

متى الذي كتب ربع الإنجيل . قال في الفصل السادس : إن إبليس جاء إلى سيدنا عيسى عليه السلام وقال له : هذا العالم ومجده أعطيه لك إن سجدت لي ، قال له عيسى عليه السلام : اذهب يا شيطان ، للرب إلهك أسجد ، وله وحده أعبد ، انتهى .

البرهان في هذا القول أن العبادة لا تكون إلا لله وحده ، وأنه عليه السلام كان يعبده ، إذ هو ليس بإله . وإما قلنا أن الله تعالى أبو المومنين ، ومن جملتهم سيدنا عيسى . منها في الفصل [الخامس] (201) لمتى قال : «قال سيدنا عيسى عليه السلام : طوبى للنقية(202) قلوبهم ، فإنهم يعاينون الله . طوبى لصانعي السلامة ، فإنهم يدعون أبناء الله . ثم قال بعد كلام آخر هكذا : فليضيء نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ، ويمجدوا آباءكم الذي في السماء» .

وأقول هذه الترجمة وعبارتها هي من إنجيل مكتوب بالعربية كان عند القسيس الذي وقع لي الكلام معه بمصر كتبت منه كما كان . [والمطلوب هو المعنى] (203) .

الفصل التاسع:

احسنوا إلى من أبغضكم ، وصلوا من يطردكم ، ويغتصبكم ، لكيما تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات ، الذي يشرق شمسه على الأخيار والأشرار ، وتمطر على الصديقين والظالمين .

وقال أيضاً : كونوا أنتم مثل أبيكم السمائي ، فهو كامل .

وقال أيضاً وصيات ، في آخرها : أبوك الذي يرى ما في الخفاء يجزيك علانية .

الفصل العاشر:

صل لأبيك سراً ، وأبوك الذي يرى السر يعطيك علانية .

وقال أيضاً : لأن أباك عالم بما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه .

---

(201) بياض بالأصل ، والإضافة للمحقق .

(202) «ب» : للنقيين في قلوبهم .

(203) «ب» : ما بين المعقوفتين لم يرد في «ب» .

وقال أيضاً : فهكذا تصلون أنتم ، أبونا الذي في السموات ليتقدس اسمك .

وقال أيضاً : فإن غفرتم للناس خطياكم ، غفر لكم أبوكم السماوي ، وإن لم تغفروا للناس خطياهم ، فلا أبوكم يغفر لكم خطياكم .

وقال : إذا صمتم فلا تكونوا كالمرابين ، لأنهم يعبسون وجوههم . وأنت اغسل وجهك .

وقال أيضاً : وصيات ، ولئلا يظهر للناس صيامكم ، لكن لأبيك الذي في السر . وأبوك الذي يرى السر يجازيك علانية .

الفصل الثاني عشر:

قال : انظروا إلى طيور السماء ، وأبوكم السمائي يقوتها .

الفصل الثامن والعشرون:

قال : عصفران يباعان بفلس وواحد منهما لا يسقط على الأرض إلا بإرادة أبيكم . وأنتم ، فشعور رؤوسكم كلها محصاة ، فلا تخافوا ، فإنكم أفضل من عصافير كثيرة . كل من يعرفني قدام الناس أعترف أنا به قدام أبي الذي في السماء ، انتهى . قال بأن في ستة عشر موضعاً مما كتبنا من الإنجيل أن سيدنا عيسى عليه السلام لم يختص باسمه ابن الله من دون الناس ، لأنه كان مخلوقاً مثلهم من غير أن يكون له أب ، كما كانت أمنا حوى من غير أن يكون لها أم . ثم أخذ الراهب في ذكر سيدنا عيسى عليه السلام ، يقول فيه إنه إله ، وابن الله حقيقة ـ تعالى عن قوله ـ . وجئت إلى الدار وتلك الليلة قيل لي في النوم : «كبرت كلمة تخرج من أفواههم»[204] . وقفت بهذه الكلمة . وفهمت أن القول كان على ما قال[205] الراهب في ذلك اليوم من ألوهية سيدنا عيسى . وانظر ما في الآية الكريمة ، قال تعالى في أول سورة الكهف ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من

(204) سورة الكهف ، الآية 5 .

(205)يبدأ هنا سقط كبير في «ب» يمتد إلى حوالي 14 ورقة .

أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾[206] . ثم مشيت عنده بعد الصبح ، وتقوى عزمي من أجل الآية الكريمة ، وأخذنا في الكلام ، وقلت له : نحن في ديننا ، وجميع الأنبياء ، وجميع الكتب السماوية لم تذكر إلا إلهاً واحداً ، وأنتم تذكرون ثلاثة ، قال أيضاً نقول واحدً ، قلت له : هذا الواحد اتفقنا فيه لا خلاف بيننا ، قال : نعم ، قلت : من هما الإثنان اللذان في الألوهية؟ اذكر لي واحداً منهما ، وأنا أعرف ماذا يجوب به ، قال : سيدنا عيسى ، قلت له : الإله يجهل شيئاً؟ قال : لا ، قلت : هي صفة العلم في الألوهية المتعلمة بكل ما كان وما يكون ، قال : نعم ، قلت : قال في الإنجيل : إن أربعة أو خمسة من تلامذ سيدنا عيسى عليه السلام أتوا إليه في جبل الزيتون ، بعد أن ذكر لهم أن هذا العالم يفنى ، قالوا : أعلمنا على وجه السر ، متى يكون انقضاء العالم؟ قال لهم : أما هذه المسألة ، فلا يعلمها أحد ، حتى ملائكة السماء ، لا يعلمها إلا الله وحده ، قلت : هكذا قال ، قال : نعم ، قلت : قد تقدم لنا أن الإله لا يجهل شيئاً . وهذا برهان فظيع ، وباين أنه ليس بإله ، وبهذا تبين واتضح أن أحد الاثنين اللذين زدت للواحد ذهب . وذكر الملائكة على وجه المبالغة في العلم ، إنهم أعلام منه . وبقي لنا واحد من الإثنين من هو؟ قال : هو الروح القدس ، قلت : هذا الروح القدس هو الذي ذكر في الإنجيل أنه البارقليط ، قال : نعم هو ذلك ، قلت له : قال سيدنا عيسى : إذا جاء البارقليط فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكلما يسمع ، ويخبركم بما يأتي ، قلت له : هكذا هو في الإنجيل؟ قال : نعم ، قلت له : الإله لا يتكلم بما يسمع ، بل يتكلم من نفسه ، والذي يتكلم بما يسمع فهو نبي يتكلم بما يسمع من جانب الحق تعالى ، فهذا أيضاً ذهب البرهان . لم يبق إلا الواحد الذي لا يزول . فخرس الراهب وقال : الأنبياء المتقدمون قالوا وأخبروا به - اعني سيدنا عيسى - قلت : لم تقل الأنبياء ذلك .

وإذا قالوا ابن الله ، فقد تبين أن من كان مؤمناً وعمل صالحاً كان يسمى بابن الله . وقال أيضاً في التوراية : إن الصلحاء هم أبناء الله تعالى . والنص فيما ذكرنا أن

---

(206) سورة الكهف ، الآية 5 .

تلامذه سألوا سيدنا عيسى عليه السلام قال متى في الباب الرابع وعشرين : «قال سيدنا عيسى : فأما ذلك اليوم والساعة لا يعرفها أحد ، ولا الملائكة السموات ، إلا الأب وحده» . وهذا إقرار من سيدنا عيسى عليه السلام أن الملائكة أعلم منه . وقال مركش في الباب الثالث عشر ، والمقالة اثنان وثلاثون : «سأل مركش ، وبدرس ، ويعقوب ، وجواز ، واندرس سيدنا عيسى في جبل الزيتون في خفاء من الناس عن الساعة متى تكون؟ قال : فأما ذلك اليوم ، وتلك الساعة لا يعرفها أحد ، والملائكة التي في السماء ، ولا الابن إلا الأب وحده» . وهذا برهان الذي قلت للراهب أن سيدنا عيسى عليه السلام ليس بإله كما شهد على نفسه أن الملائكة أعلم منه . حيث قال : ولا الملائكة على وجه المبالغة ، وأيضاً في الإنجيل ما ينسب لما قلت للراهب أن سيدنا عيسى عليه السلام إنسان ، وليس بإله ، قال في الفصل السابع والستين لمتى أن سيدنا عيسى عليه السلام كان راجعاً إلى المدينة فجاع ونظر شجرة تين على الطريق ، فجاء إليها ، فلم يجد فيها شيئاً إلا ورقاً ، فقال لها : لا تخرج منك ثمرة إلى الأبد ، فيبست تلك الشجرة للوقت . فلو كان إلهاً ـ كما تعتقد الكفار أنه إنسان وإله ـ فلو كان إلهاً لعلم من موضعه أن الكرمة ليس فيها تين ، أليس هذا برهان أنه إنسان مقهور ، يجهل الغيب ، ولا يبصر إلا الظاهر فقط؟ وأيضاً في الإنجيل أنه كان يسأل عن قبر لعازر حتى حملوه إليه .

وأما ذكر البارقليط فهو فيما كتب يوحنا في الفصل الثالث والثلاثين ، وخمس وثلاثين ، قال : «فإذا جاء روح الحق ذاك ، فهو يعلمكم جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ، ويخبركم بما يأتي ، وهو يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي ، ويخبركم» . وقد سألت الراهب : ما معنى البارقليط؟ قال : هو اسم يوناني ، ومعناه الشفيع بالعربية . فهذا هو رسول الله ﷺ ، لأنه لم يتكلم من ذاته ، بل يتكلم في أمور الدين بكل ما يسمع من الوحي من عند الله تعالى . وأما معنى ما قال سيدنا عيسى عليه السلام للحواريين : «يعلمكم جميع الحق ، ويخبركم» ، فتقول النصارى : إنه جاء إليهم .وبذلك قال لي قسيس بمدينة بريش حين قلت له إن البارقليط شخص يتكلم وإنه نبينا ﷺ ، والصحيح أن سيدنا عيسى عليه السلام كان يتكلم مع المؤمنين ، وليس الكلام معهم فقط ، لأنه قال لهم ما يكون في آخر الزمان ، بقوله :

إذا رأيتم كذا وكذا ، والصحيح أنهم لا يعيشون لآخر الزمان . والبرهان في ذلك ، قال متى في الفصل الثامن وسبعين : «فجاء إليه تلاميذه في خلوة قائلين : قل لنا متى يكون هذا؟ وما علامة مجيئه ، وانقضا الزمان؟ فأجاب ، وقال لهم : انظروا ، لا يضلكم أحد ، كثير يأتون باسمي ، قائلين : أنا المسيح ، ويضلون كثيراً . فإذا سمعتم بالحروب ، وأخبار الحروب ، انظروا ، لا تقلقوا ، فلابد أن يكون هذا كله . ثم قال : فإذا رأيتهم رذلة الخراب الذي قيل في دانيال النبي قايماً في المكان المقدس .» فليفهم القارئ ، والكلام كثير في هذا المعنى ، وهو من علامات القيامة . وكان الخطاب لهم . وكذلك الكلام على البارقليط معهم ، بأن قال : يأتيكم ، والمفهوم : بعدهم - كما ذكر في هذا الباب - . وأما قوله : «كثير يأتون باسمي قائلين أنا هو المسيح ويضلون كثيراً» ، فهذا والله أعلم - هم الباب ، لأنهم يضلون الناس ، بأن يشرطون بالله ، ويعبدون الخبز والخمر ، وآلات الصليب ، والانام . وسيدنا عيسى عليه السلام تقدم لنا حين جاء إليه إبليس ، وقال له : أن يسجد له ، قال سيدنا عيسى عليه السلام - مكتوب - : «هو الإله وحده ، نعبد ، وإليه نسجد» . وتقدم أني سألت الراهب : ما معنى البارقليط ، قال : هو اسم يوناني ، ومعناه بالعربية : الشفيع وهذا شخص مخلوق يشفع في المذنبين . والإله كيف يشفع؟ أو ممن يطلب ويرغب؟ وقال يوحنا في الفصل الثالث والأربعين : قال سيدنا عيسى عليه السلام لامرأة اسمها مريم مَضَلِينَ - وليست بأم سيدنا عيسى عليه السلام - : «امض إلى إخواني وقلي لهم : إني صاعد إلى أبي ، وأبيكم ، وإلهي ، وإلهكم» ، انتهى .

فهذا كلامه عليه السلام ، فهو بين الشمس بغير غمام ، إنه إنسان حقيقة ، إذ قال : «أبي وأبيكم ، وإلهي وإلهكم» ، انتهى .

اعلم أن النصارى أخذوا كفرهم ، وشركهم مما كتب يوحنا المنجيلي ، مما شاهد في ابتداء كلامه ، وخطبته في الباب الأول ، قال : «البدء كان الكلمة ، والكلمة كانت عند الله ، والله هو الكلمة . كان هذا قديماً عند الله كله ، به كان ، ولغيره . لم يكن شيء مما كان ، وله كانت الحياة . والحياة هي نور الناس ، والنور أضاء في الظلم ، والظلمة لم تدركه» ، انتهى .

هذا هو الأساس إلى شركهم ، لأنهم يجعلون الكلمة إلهاً . وقال العلامة

الإسكندر أحمد الفيلسوفي الدربن وني[207] ـ في تأليفه في الرد على النصارى ـ : «كلام الله لا ينحصر صدقه على عيسى عليه السلام فقط ، بل يصدق على كثير ، وهو موافق بآية كريمة : ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده» ﴾[208] . وليس كلام الله عين ذاته الله ، إذ الكلام غير المتكلم ، لأنه شبيه الكلام بالبذر ، والمتكلم بالحراث .

فإذن لو كان عيسى عليه السلام إلهاً على تقدير كونه كلام الله لزم أن يكون كلماً صدق عليه أنه كلام الله أيضاً إلهاً ، فحينئذ لزم إلهات متعددة ، فاللازم باطل بالبداهة ، والملزوم مثله . وهو موافق بآية كريمة : ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[209] ، انتهى .

وقال لي بمراكش شيخنا ، الخير الإمام ، الفقيه ، سيدي أحمد ابن الحاج أحمد التواتي أن فقيهاً من المسلمين كان أسيراً عند كافر نصراني يقرأ بالعربية ، وقال للمسلم : عندكم في القرآن أن عيسى هو روح من الله ، وأتى بآية قال : ﴿وروح منه﴾[210] ، وعزم أنه ينتقم من المسلم إذا لم يأت بحجة تفكه من يده . قال الفقيه إن شاء الله بالقرآن ننجو منه . فتوضأ ، وقرأ من أوله إلى أن قال : ﴿وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعاً منه﴾[211] ، ففرح بذلك ، وقال للكافر : اسمع قول الله تعالى في القرآن العزيز ، وقرأ الآية ، وقال : هذه الآية مثل الذي قال الله تعالى : ﴿وروح منه﴾ . فكما خلق السموات والأرض ، خلق سيدنا عيسى . ولما رأى النصارى الحق ترك المسلم مما عزم عليه . ولو ذكر له قوله تعالى : ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾[212] وكذلك ﴿ وأيدهم بروح منه﴾[212] ، فكان ينجوا من

---

(207) لم نقف له على ترجمة .

(208) سورة غافر ، الآية 15 .

(209) سورة الأنبياء ، الآية 3 .

(210) سورة النساء ، الآية 171 .

(211) سورة الجاثية ، الآية 13 .

(212) الحجر : 29 .

الكافر .

واعلم أن النصارى فتشوا برهان التثليث في الألوهية ، ولا وجدوه ، لأن الباطل كان زهوقاً . وقالوا : ليس لنا [إلا] [214] الإيمان بذلك ، ويحصل به الأجر ، وهي قاعدة في دينهم أن يومنوا بما في الكنيسة الكبرى التي برومة . وهي عامرة بالأصنام والصلبان . وهي الباب الكبير للدخول في النيران ، يقودهم إليها وليهم الشيطان ، لعنهم الله تعالى بقوله في القرآن : ﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ [215] .

---

(213) المجادلة : 22 . وفي المخطوط : أيده بدل أيدهم .

(214)ما بين المعقوفتين إضافة من المحقق .

الباب الثالث عشر

في ذكر ما أنعم الله تعالى علي من فضله في بلاد الأندلس وغيرها من البلاد

اعلم ـ رحمك الله تعالى ـ أن هذا الباب توقفت فيه من وجوه . وكنت نتردد فيه من وجوه بما نعرف من نفسي من التقصير والجهل والذنوب ـ نسأل الله المغفرة والسعادة ـ . ولكن بعد أن رأيت ما أنعم الله تعالى به علي من اليقين في الاعتقاد في توحيده ، ولا سيما بعد أن طالعت كتب الأديان الثلاثة ، حتى لم يبق للنفس والشيطان باباً ، من كثرة بيانها من الكشوف والأوهام والظنون في دين الإسلام ، حتى تمنيت لكثير من المسلمين أن لو كانوا كذلك . وكنت نتردد في ذكر بعض الأمور ، لما ذكر السنوسي[216] ـ نفع الله به ـ في شرح الصغرى في التوحيد ـ في باب ذكر الله ـ : إن بعض من أنعم الله عليه من الملازمين لقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ كان يجد تحت السجادة دراهم حتى شهر ذلك انقطع عنه . وكنت أخاف أني إذا ذكرت أمراً مما أنعم الله تعالى علي به يعينني على عبادته يذهب عني حتى رأيت ليلة في النوم أني أتلو آيات من القرآن العزيز إحداهن (كذا) ، قوله تعالى : ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾[217] ، والثانية : ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[218] .

والثالثة : ﴿وخذ بيدك ضغثاً ، فاضرب به ولا تحنث﴾[219] .

(215) الآية 61 من سورة آل عمران . وفي المخطوط : ألا لعنة الله . . . .

(216) انظر ترجمته عند م . بن عسكر ، دوحة ، 121 ـ 122 رقم 118 .

(217) سورة الضحى ، الآية 11 .

(218) سورة فصلت ، الآية 53 .

(219) سورة ص ، الآية : 43 .

وفهمت من الآيتين الإباحة (كذا) لكتب الباب ، بل الأمر بذلك ، فالآية الأخيرة ما فهمت معناها ، وتكلمت مع العلامة الشيخ علي الأجهوري بذلك ، وقال لي : حتى الآية الأخيرة هي مثل التي قبلها بالأمر أن لا تتوقف ، واذكر ، واكتب ، ففي ذلك خير ـ إن شاء الله ـ وبعد أن كتبت ، وذكرت المسألة التي تعينني على عبادة الله ، فبقي الأمر أحسن مما كان قبل ذلك ـ لله المنة والشكر على نعمه وفضله وإحسانه ـ ، وبعد أن تكلمت مع الشيخ أو بقرب ذلك اليوم أو في اليوم أو في الليلة بنفسها ذكرت الأمر الذي ما ذكرته قط إلا لواحد مرة بعد ذكر لي بعض الأسرار الربانية . ففي الليلة التي ذكرتها هنا بمصر رأيت المسألة في اليقظة على عادتها ، ثم ذكرتها لأخ من المحبين في الله ولم تذهب عني ، وهل يخفى على أحد أن قراءتي في أقل من يوم واحد كان ذلك هيبة وتوفيقاً من الله سبحانه ، وذلك ببركة الأندلس ، كما ذكرنا في الرحلة أن الله تعالى كان يسهل على أهل العلم على قدر حالهم . . .[220] لاحد تيسير في الحال ليقرأ في الألواح . . .[221] بجمع فكر ، فإذا قرأ يخفى . . .[222] من منه ، ولما أن جئت لأبي قلت . . .[223] قال : كيف ذلك قلت له . . .[224] فكنت أقرأ الأسماء . . .[225] له القصيدة ، قال لي : سر عني . . .[226] وتقول إنها في الورق . . .[227] مراراً ، إن ذلك حق ، ولم يذهب عنه الشك حتى جاء إلى دارنا ابن عمه ـ رحمه الله ـ وقال له : قد فتح الله عليه . وقد كتبت السبع هياكل في ورقة ، وجعلتها علي حرزاً ، رجاء بركاتها . ونمت ليلة ، وعند

---

(220) بياض بالأصل .

(221) بياض بالأصل .

(222) بياض بالأصل .

(223) بياض بالأصل .

(224) بياض بالأصل .

(225) بياض بالأصل .

(226) بياض بالأصل .

(227) بياض بالأصل .

الصبح فتشت الورقة فلم نجدها ، وظننت أنها وقعت مني فتغيرت عليها من وجوه لئلا يجدها نصراني ، وينضر المسلمون ، وأيضاً إذا أصابها مسلم فربما يعرف خطي ، ويكثر الكلام علي عند الأندلس . ولما أن صليت الصبح أخذت في الدعاء إلى الله - سبحانه وتعالى - متضرعاً . . .[228] علي الحرز ، وكنت أقرأ دعاء كان . . .[229] الله يحفظانه ، فلم نتمه في القراءة . . .[230] كانت نزلت في كفي ففرحت . . .[231] الله تعالى على ذلك ، وازداد . . .[232] إلى أختي رحمها الله - . . .[233] فرفعت حوايج الفراش . . .[234] فرمت بها على بعد ، فجاءت في الهواء ، ونزلت في كفي وهي مبسوطة ، ومرفوعة إلى الله تعالى . وقال رسول الله ﷺ : «إن الله ينزل البلاء ، ويستخرج به الدعاء»[235] ،

وهذا هو الدعاء المبارك الذي كنت أقرأه :

بسم الله الرحمان الرحيم

اللهم إني أسأل ، يا أول قديم ، يا فرد ، يا وتر ، يا أحد ، يا صمد ، يا الله ، يا رحمان ، يا رحيم ، يا حي ، يا قيوم ، يا عزيز ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا نور السموات والأرض وما بينهما ، ورب العرش العظيم ، يا من له . . .[236] ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد . . .[237] يا هادي ، يا باري ، يا عالم . . .[238] يا حمعسق ، يا رب

(228) بياض في الأصل .

(229) بياض في الأصل .

(230) بياض في الأصل .

(231) بياض في الأصل .

(232) بياض في الأصل .

(233) بياض في الأصل .

(234) بياض في الأصل .

(235) لا يوجد الحديث عند ج . السيوطي في الجامع الكبير .

(236) بياض في الأصل .

(237) بياض في الأصل .

(238) بياض في الأصل .

الأرباب . . . [239] يا ملك الملوك يا . . . [240] الأرض ، ولا إلاه فيهما . . . [241] في السموات ، ومن في الأرض . . . [242] غيرك قدرتك في الأرض . . . [243] في السماء سلطانك في الأرض كسلطانك في السماء .

أسألك اللهم باسمك الكبير ، ووجهك المنير ، أن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً ، إنك على كل شيء قدير» ، انتهى .

ومما منَّى علي أن شفا لي مرضي بالنشر فقط والرقا بآيات من القرآن العزيز . ولنذكر هنا بعض ما تذكرت إليها . ومن ذلك أن مملوكة سودانية اسمها مباركة كانت بدارنا بمراكش . . . [244] في جسدها البرص الكثير ، وهو في زيادة . . . [245] كما هي العادة في تلك العلة وذكرتها . . . [246] بأصعب ، وتحتاج أدوية كثيرة . . . [247] الصيف يليق العلاج . فتوقفت . . . [248] كتاب الدر النظيم في . . . [249] الواداياشي ، قال . . . [250] بماء ورد وزعفران . . . [251] برص أنه يزول عنه . . . [252] هذا دواء

---

(239) بياض في الأصل .

(240) بياض في الأصل .

(241) بياض في الأصل .

(242) بياض بالأصل .

(243) بياض بالأصل .

(244) بياض بالأصل .

(245) بياض بالأصل .

(246) بياض بالأصل .

(247) بياض بالأصل .

(248) بياض بالأصل .

(249) بياض بالأصل .

(250) بياض بالأصل .

(251) بياض بالأصل .

(252) بياض بالأصل .

أسـهل ، وأقـرب مما ذكـر . . .[253] فكتـبت السـورة كلهـا في إناء ، لم يدخلهـا طعـام . ومحوت الحروف بماء نقي ، وأعطيت الماء للمبروصة ، وشربته . ولكن أخذت من الماء شيئاً ، ونشرت أوضعت منه على مواضع البرص ، ومن ذلك اليوم بدأت كل لمعة تصغر على قدرها . وبعد ستة أشهر أو أكثر صارت مواضع البرص حمراء بعد أن كانت بيضاء . ثم اسودت مثل سائر الجسد . وشفاها الله ، وبعد عامين أو أكثر خرج فيها البرص مرة ثانية حتى أن بعض اللمع كانت قدر الدينار ، فكتبت له مرة ثانية السورة المباركة ، وشربت ماءها ، وبدأها الشفاء من ذلك إلى ثمانية أشهر . ولم يعد إليها إلى أن جازت نحو العشر سنين وماتت . وهذا من العجب ، إذ ليس في هذا العلاج شيء من العقاقير ، ولا من الأدوية التي تعالم بها الأمراض ، إنما ذلك شيء زعفران محلولاً في قليل من ماء ورد ، لتظهر الحروف فقط .

وقد جاءني ببلاد الأندلس رجل مريض بالاستسقا ، وهو منفوخ متروك من الأطباء . وكتبت له نشرة بآيات القرآن ، ومحوتها وأعطيته الماء ، وشربه ، في نحو السبعة أيام ، وبرأ . وجاءني وقال : ما كنت نظن أنني نبرأ مما أصابني ، والآن شفاني الله تعالى بالماء الذي أعطيتني ، وليس لي بما نكفيك إلا أن تحب أن أخدمك ، فأكون كأني مملوك لك ، ونحب منك أن تخبرني بما داويتني؟ قلت : لا أطلب منك شيئاً ، ولا أقول لك بما دويتك . وذهب سالماً فارحاً .

وجاءني رجل ، واشتكى أنه مهما يمد يده للوضوء وابتدأ به تبطل يده اليمنى . وكنت في موضع ما أمكنني أن أكتب له شيئاً . وقبضت يده من مرفقه ، وقرأت ما شاء الله من آيات القرآن العزيز ، وبدأ يبرأ من حينه إلى يوم آخر قرأت أيضاً ولا كان يحتاج ذلك ، وشفاه الله .

ومما اتفق لي ببلاد الفرنج بعد أن جازت علينا السنين ، ونحن فيها ، أني كنت أسمع حساً في البيت الذي أكون فيه وحدي في اليقظة ، يضرب في الحائط شيئاً أو قريباً مني في لوح أو غير ذلك ، وبين الضربة والأخرى قدر ما يعد الإنسان ثلاثة من

---

(253) بياض بالأصل .

واحد إلى أربعة . ودخل في قلبي الخوف والرعب من ذلك حتى خفت من الجن أن يصرعني . واشتغلت نذكر الله تعالى بلا فترة ، لعلي نتقوى بذلك ، وننجوا من الجن . وكان ذلك كل يوم ، ويضرب في البيت وفي غيره ، وإذا أكون وحدي ، ونغضب عليه ، ونضرب جهته ، يزيد في الضرب .

ورأيت أن الصبر أولا بي ، ولا كنت أدري ماذا كان مراده . ثم فهمت أنه كان يريد أن أخرج من بلاد الكفار .

وبعد أن وليت إلى بلاد المسلمين كان أيضاً يعمل لي حساً يلهمني إلى الصلاة إذا نتعطل عنها ، وأيضاً بعض الليالي عند السحر يضرب في البيت إلى أن أقوم ، أو نقرأ في الفراش .

وكنت متحيراً في أمره ، قلت هذا جن مومن ، ولا استعملت قط عزايم لنتخذ خديماً من الجن ، ثم بان منه إذا أكون وحدي نقرأ القرآن العزيز ، وتأتيني سنة من النوم حتى يلتوي لساني بالقراءة ، فيضرب لي في البيت لنقف ونقرأ . ثم إذا جاءني النوم يضرب أيضاً حتى نختم القراءة . وبعض الليالي بالسحر لا يهدى عن الضرب إلى أن أقوم ، وتارة إذا كان أحد معي في الفراش يطلق علي شيئاً قليلاً من التراب أو حجارة صغاراً قدر الحمص ، ويضرب به قريباً من وجهي . ونأخذ الحجرة بعض المرات بيدي ، ونعرف أنه ليس مراده إلا أن أقوم نقرأ فقط . وإذا في البيت الذي بنيت فيه نجاسة خاثرة ، فيضرب ويعود للضرب حتى نخرجها . وتارة نستعمل من نفسي أن النعاس جائني ونظهر ذلك بالقراءة وهو ليس بالقرب مني لعله يضرب فلا يضرب أبداً إلا عن ابتداء النوم حقيقة . ثم تحققت منه أنه يحفظ القرآن ، فكم مرة أكون أقرأ ، ويضرب ، وننظر ماذا أقرأ ، ونرى أنه وقع مني غلط في القراءة . وكنت يوماً بمدينة مراكش جالساً أترجم رسالة باللطين تتكلم على الكرة الأرضية والفلكية ، والكرتان كبيرتان ، كل واحدة في كرسي مرسوم في السماوية النجوم والثواب والبروج في الفلك ، والصور المعروفة عند المنجمين بأسمائها ، وكذلك في الأرضية ، كل مدينة معروفة في الدنيا ، والأقطار والبلدان ، والأقاليم . وكل بلد باسمه ، مكتوب عليه ، والأبحر والأنهار .

كان قد أمرني السلطان مولاي زيدان ـ رحمه الله ـ بترجمة ذلك

الرسالة[254] ، قلت هي بلغة اللطين ، ولا نعرفها . قال من يعرف اللطين؟ قلت : أسير راهب من أسارى المقام العلي ، قال : يقعد معك . وكنا في دار السلطان نترجم ذلك ، والراهب معي وقت الظهر ، وتعطلت لنتم بالكتابة ما بقي من وجه ورقة ، وسمعت الضرب في ورا لوح من خشب ، قال الراهب : ما هذا الضرب؟ قلت : لا أدري ، وقام من موضعه ومشى إلى ظهر اللوح الذي كان الضرب فيه ، ولا أرى شيئاً ، وبقي متعجباً .

وعلمت أن الضرب كان يقول لي أن أترك كل شيء وأصلي الظهر . وكان ابتداء هذا الأمر قبل هذا التاريخ بنحو الخمس وعشرين سنة . ونعرف أنه معي أين ما أكون ، ولا نراه ، ولا يجاوبني بأمره . وقد طلبتها منه ولا ظهر لي منه انتقال إلا يرعى ما نقول أو ما نعمل ، حتى أظن أنه الملك الذي على اليمنى ، وإن كان هذا الظن غريب وبعيد ، وأنا متعجب منه بعد أن عرفت ، وتحققت منه أنه يحفظ القرآن ، وتارة أقرأ سورتين أو ما شاء الله ، ونترك القراءة ، ويضرب لي أن أقوم إن تلك ساعة الإجابة للدعاء . وكنت ليلة أريد أن أختم القراءة إلى سورة «الناس» ، وكنت أقرأ حزب (صبح)(*) ، وتسلط علي النوم ـ وكان ذلك في الزمن الذي كنت مشغولاً بتأليف هذا الكتاب ـ وإذا قرأت سورة أو سورتين أو أكثر يبدؤني النعاس قليلاً من غير ترك القراءة ، فيضرب حتى نتقوى ، ولا ختمت الحزب حتى ضرب نحو الست مرات . ولما ختمت وقف عن الضرب ، والشكر لله الذي رقني من يعينني على عبادته .

وكنت أول الحال نكرهه أشد الكراهة ، وقال الله تعالى : ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾[255] .

---

(254) يقصد رسالة زيج زكوط للإسرائيلي إبراهيم السلمنقي .

وقد ترجمها بالفعل الشهاب الحجري إلى العربية . مخطوط م . ح . بالرباط ، عدد 1433 ضمن مجموع .

(*) يقصد حزب سبح .

(255) سورة البقرة ، الآية 216 .

وأزيد في هذه النسخة ما لا هو في النسخ التي كتبت قبلها .

وذلك في عام خمسين وألف كنت بمدينة تونس المحروسة بالله ساكناً في بيت وحدي ، وإذا خرجت لسد بالمفتاح ، ووجدت يوماً شُمَيْسِيَةً من ذهب ، أعني مما ينتضم في شِرْكَة أو قلادة ، مما تجعل النساء في العنق ، وعلمت أن شيئاً ربانياً أتاني بها . فمشيت إلى صايغ وقال لي : هي من ذهب ، فرفعتها وأنا أقول : لا أدري ما المراد بهذا؟

ثم بعد أشهر جاء ابني بزوجته من تَسَتُرْت - بلاد - ، ونزل عندي . ثم إن زوجة ابني أرادت تمشي لموضع آخر ، وأودعت عندي شركة أزالتها من عنقها بتسع شميسيات مثل التي كانت عندي من ذهب . ولما أن جاءت أعطيتها الشركة ، وقلت لها : كم فيها من شميسيات؟ قالت : تسعة ، وكانت عشرة ، وقبل هذه الأيام بأشهر تلفت لي واحدة في تسترت . فأخرجت التي كانت عندي وأعطيتها لها ، وقلت المعلمون يعملون مثل التي عندك . وظننت أننا أمرت بعملها . فتعجبت من هذا الأمر ، كيف علم حين أتاني بالشميسية ، إن زوجة ابني ستأتي ، وتطرح عندي القلادة التي خصت منها التي تلفت . والمعلوم أنه لا يعلم الشيء قبل وقوعه إلا الله تبارك وتعالى أو من يوحي إليه بذلك .

ومما أنعم الله تعالى علي به في العام الماضي ، وكان عام ست وأربعين وألف ، في نحو العشرين من شوال ، يوم السبت ، وأنا في مصر ، وكان لي كتاب كتبته بيدي يتعلق بجملة الأسماء الحسنى لسيدي أحمد زروق بن عتبة الحضرمي - نفع الله به - وغير ذلك فجعلته على نفسي بين قَفْطَنَيْنِ إلى جانب القلب ومشيت إلى دكان محمد ابن أبي العاصي الأندلسي ، كنت فيه أميناً على قبض ما يبيع التاجر الذي كان فيه للبيع ، وفي الطريق حين كنت ماشياً اشتريت رغيفاً ، وجعلته بين الكتاب والجسد . ولما وصلت إلى الدكان أردت نقبض الكتاب والرغيف ولا وجدت كتاباً ولا رغيفاً . وجلست في حزن وتغيير ما لا رأيت ذلك منذ زمن ، وتذكرت إلى كتب سرقت لي بمراكش ، مما كتبت بيدي في التوحيد وغير ذلك ، بقرب العهد الذي جئت أول مرة من بلاد الكفار ، وأيضاً للكتب التي كتبت بيدي ، ومشت لي مع الحمل سنة قبل ذلك في طريق الحج . وتذكرت لما قرأت في كتاب اليافعي ، وهو

الشيخ الإمام العارف بالله عبد الله اليافعي[256] ـ نفع الله به ـ قال : سمعت من بعض العارفين ، وهو يقول : «إن لكل وضع فيه حي وهاب ، ولي ، جواد ، أبدل واجدا بجواد ،لأن كل واحد ينقط أربعة عشر» . انتهى ما كتبنا من كتاب اليافعي .

ولما أن قرأت ما ذكر عجبني كثير ، واخترت ذلك العمل ، ونظرت في أسماء الله تعالى ما تنقط ثلاثاً وخمسين ، وهو عدد اسم أحمد ، ووجدت ذلك في ثلاثة أسماء ، وهي واحد ، هادي ، وهاب . ويكون بدلاً عن (وهاب) (جواد) ، وبدلاً عنه أيضاً (واجد) . ولكن ورد في (وهاب) : أنه الإسم الأعظم ، لقول سيدنا سليمان عليه السلام : «رب اغفر لي وهب لي» .

وأما الساعة التي أصابني فيها التغيير على الكتاب الذي ذكرت أنه وقع مني في الطريق ، فألهمني الله تعالى أن نقرأ تلك الأسماء ، وكنت عزمت على أن نجعلهم في وفق حسبما ذكر من العمل لاسم محمد ، فلم يتيسر في تلك الساعة . ونويت في نفسي أن نقرأ الأسماء ، ونطلب من الله تعالى أن يعطيني عوض الكتاب الذي ذهب لي والهم الذي أصابني بسببه ما شاء من الخير ، ولا عاينت شيئاً . فقرأت «الفاتحة» ثلاثاً وخمسين مرة ، و«البسملة» مع كل واحدة ، «وألم نشرح» ثلاثاً وخمسين ، والأسماء ثلاثاً وخمسين مرة . وجلست اليوم في الدكان إلى بعد العصر ، وجئت إلى الدار ، ووجدت الكتاب في الموضع الذي كنت أجلس فيه ، ففرحت بذلك فرحاً عظيماً من وجوه .

ولا يتوهم قارئ هذا الكتاب أني تركته في الدار على يقين بأني مشيت به ، وجعلت القرصة تحته . وحصلت الإجابة ، ولا أدخلت الأسماء في جدول ، لأن القلب الحزن المضطر لا يفتقر إلى جدول . ولم نترك شيئاً مما ذكر اليافعي في العمل ، بنية النفع للإخوان .

ومما أنعم الله تعالى علي به أن سخر لي ملوك الملتين ، وعلماءهم ، وصلحاء ديننا . ومن نعم الله تعالى علي بأسمائه الحسنى أن امرأة كانت بها ثلاث علل : كان ظهر يدها وأصابعها به ثالول كثيرة ، فكتبت جدولاً مثمناً حرفياً أذكر فيه اسمين من

---

(256) انظر ترجمته عند خ . الدين الزركلي ، الإعلام ، 4 : 198 والمصادر بالهامش 1 من نفس الصفحة .

أسماء الله الحسنى ، بارئ ، مصور ، ومزجته بكلام بيت من الضمياطي وهو :

ويا بارئ الأنفـــاس قـــد بت مـــبـــرءاً
بك السـقـم عني يا مـصـور زولا

وجعلته عليها . وفي نحو الستة أيام لم يبق في يديها أثر للثالول ، وشفاها الله من العلة الأخرى ، ومن الثالثة نقص من دائها .

وهذا الجدول ممزوج فيه البيت ـ كما ذكر ابن الحاج في كتابه تمزج ـ :

ويابـ ـارء الانفـ ـاس قدبـ ـت مبـ ـرءا بـ ـك السقـ م عنـ ي يامصـ ـور زولـ

ب	أ	ر	ء	م	صـ	و	ر
م	صـ	و	ر	ب	ا	ر	ء
صـ	م	ر	و	ا	ب	ء	ر
ا	ب	ء	ر	صـ	م	ر	و
ر	و	صـ	م	ء	ر	ا	ب
ء	ر	ا	ب	ر	و	صـ	م
ر	ء	ب	ا	و	ر	م	صـ
و	ر	م	صـ	ر	ء	ب	ا

وأيضاً رأيت برهاناً للبيت الذي يقول فيه :

ويا مـقـسط ثبت على القـسط نيـتي
ويا جـامع اجـمع لي رضـا سـائر الملا

وذكر في الخواص لهذا البيت أنه نافع ، فكان إذا تلف لي شيء نقرأه ، ويرده الله علي ببركة أسمائه . وقد تلف لي مجموع آلات مثل مُقَصّ وخِدْمِي(*) ، وغير ذلك ،

(*) الخدمي : من أسماء الخنجر في العامية المغربية .

ففتشت في الليل لا وجدته ، فقرأت البيت مراراً . ورأيت في النوم أنه كان مطروحاً في بستان كنت فيه في ذلك اليوم ومشيت من الصبح للموضع بعينه الذي رأيته فيه ووجدته ، ثم مرة أخرى تلف لي ، أظنه مقص عجيب ، وفتشت في حوائجي ، وفي الدار ، وما وجدته . وقرأت البيت مراراً طالباً من الله تعالى أن يرد علي ما تلف لي . ومشيت إلى ناحية السوق بمراكش في زنقة كدية حلوان ، وسمعت حس المقص بين قدمي في الأرض ، ورفعته متعجباً ، لأني على يقين أنه لم يكن عندي . وذكرت ذلك لشيخنا الفقيه الخير سيدي أحمد بن الحاج التواتي الذي كان يقدم لطلب المطر إذا خص[257] ، وقال لي : من ساقه لك؟ لا أدري ، قال لي : الله تعالى ساقه .

ومما أنعم الله تعالى علي بمصر في أول شهر ذي القعدة ، صليت يوماً الظهر ، وأتيت بسجدتي السهو لأصلي ما زدت في الصلاة ، ثم في اليوم نفسه في صلاة العصر وقع لي مثل ذلك في الصلاة ورفعتها ، فأخذني الغيظ على نفسي ، وقلت : ما كان يقع منك غلط حين تدخلين إلى حضرة السلطان ، وهو مخلوق مثلك ، وحين تقفين بحضرة الخالق العظيم ، ورب السلاطين وخالقهم ، تتكلمين بحضرته والملائكة حاضرون ، تنتقلين بكلامك إلى كلام في شيء آخر ، ثم إلى أمر آخر من الأمور المذمومة بحضرة الله تعالى ، المولى الكيم ، حتى تقول الملائكة عني أنني من الكاذبين ، أو من الحمق أو من المجانين حتى تفسد علي صلاتي . ولكن - إن شاء الله - نشتري سوطاً من جلد ، ونضربك به على كل صلاة بعد سجدتي السهو ، لعلك تخافين من الضرب أكثر مما تخافين من الله تعالى ، الذي هو يراك ويسمعك . ولم نتحقق هل قلت لنفسي ذلك الكلام جهراً أم سراً[258] . وفي ذلك اليوم بعد أن صليت المغرب وجلست في البيت الذي كنت فيه فرأيت مع الشفق قبل أن وقدت السراج قضيباً نزل قدامي من الهواء من عود الطَّرْفَهْ على طول ذراع . وقبضته ، وفهمت أن ذلك بدل عن السوط ، كأن لسان الحال يقول لي لا نوخرك إلى أن تشتري سوطاً ، خذ هذا واضرب به ينوب عن السوط لعلك تداوي نفسك ، وتخافين من

---

(257) هنا ينتهي ما سقط من نسخة «ب» .

(258) إضافة في «ب» : لأنني كنت عازماً على ذلك .

ضربك إياها أكثر من خوفها من عذاب الله . ورجعت نضرب نفسي بعد سجدتي السهو على رجلي اليسرى بالقضيب ، لأن النفس والشيطان من أهل الشمال . والقضيب إلى الآن عندي ، فإذا نظرت إليه يجتمع فكري في الصلاة بعض المرات . وانتفعت به نفعاً جيداً . وحصلت لي فائدة بالبرهان والعيان . إن الله يريد من الإنسان قولاً باللسان ، وإخلاصاً بالقلب ، وعملاً بالجوارح . وفهمت من الآية المتقدم[259] ذكرها : ﴿وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث﴾ ، إنه الأمر بالضرب بالقضيب بعد ترقيع الصلاة على وجه التداوي لنفسي على وجه الاختصاص[260] . ونعوذ بالله من كل بدعة غير مستحسنة .

نسأل الله سبحانه ، الرحمان الرحيم ، أن يعفو عني فيما خصني[261] من الإخلاص فيما مضى ، ويوفقني فيما بقي ، وأن يستر عيوبنا ، ويغفر ذنوبنا ، ويختم علينا بخواتم السعادة ، ولقارئ هذا الكتاب ، ولكاتبه ، ومستمعه[262] ، ولمن رأى فيه عيباً حقيقة وأصلحه ، والمغفرة للوالدين ، ولكافة أييمتنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات ، بفضل سيدنا محمد ، سيد الأولين والآخرين ، وخاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، وحبيب رب العالمين ، ـ صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ـ .

وقد قرأت هذا الكتاب بمصر المحروسة بالله على العلامة الشيخ علي الأجهوري[263] ، فقيه شهير في المذهب المالكي ، يثنى عليه في مصر وغيرها في كثير من البلدان والأقطار ، المرة الأولى في الرحلة المذكورة في أول الكتاب ، ثم مرة ثانية[264] حين استخرجت هذا منها على أمره . وطلبت منه أن كل ما يظهر له أنه

---

(259) «ب» : المتقدمة .

(260) «ب» : الاختصاص فيما مضى وفيما بقي وأن يستر عيوبنا وأن يغفر ذنوبنا .

(261) «ب» : كتب الحجري فوقها : «فاتني» .

(262) «ب» : ولمستعمله .

(263) «ب» : رحمه الله تعالى ورضي عنه .

(264) «ب» : ثانية حين استخرجت .

غير لائق أن يأمرني بإسقاطه ونصحني، ونفعني بعمله، ونيته الصالحة، ودعا لي بالخير - جزاه الله خيراً كثيراً، وكمل عليه بالسعادة في الدارين، آمين -.

وقد زدت في هذا الكتاب بتونس ما ظهر لي أن فيه نفعاً، وكان الفراغ[265] من هذا التأليف لإحدى وعشرين يوماً من شهر ربيع الثاني من عام سبعة وأربعين وألف، وذلك يوم الجمعة. ولما كتبت آخر حرف منه سمعت المؤذن يقول: الله أكبر للأذان الأول لصلاة الجمعة، فاستبشرت بخير وبقبول[266] الكتاب. وقد ذكر الفقيه الجليل أحمد بن أحمد باب السوداني[267] في كتاب عمله[268] ببلاد درعة وهو ماشي إلى بلاده، وهي بتُنْبُقْتُ[269] ببلاد السودان، من مراكش وكنت ممن خرج معه منها، وودعناه وهو رحمه الله - الذي عمل شرحاً على مختصر خليل[270]. وسمعت في مصر[271] من ذكره واستحسنه، وكذلك بتونس، سمعت من بعض الفقهاء من شكره كثيراً.

وبعد أن مشى إلى بلاده كتبت له وأعلمته أني مشيت إلى بلاد الفرنج وفلنضس لأغراض قضيتها وتعطلت بتلك البلاد. وكتب لي - رحمه الله وجزاه عني خيراً - ودعا لي ولأولادي، وقال لي: قصرت حين ما كتبت كل ما رأيت. وأما الكتاب الذي عمل في بلاد درعة كان أجويبة على ما سأل محمد بن عبد الله

---

(265) «ب»: وكان الفراغ منه أولاً في مصر لإحدى وعشرين...

(266) «ب»: وقبوله.

(267) انظر ترجمته عند م. حجي، الحركة، 2 : 383 والمصادر بالهامش 23 من المصدر نفسه والصفحة.

(268) «ب»: كتاب اللمغة.

(269) «ب»: تنبكت.

(270) يسمى هذا الشرح: منن الرب الجليل ببيان مبهمات خليل في جزأين، مخطوطات خ. القرويين، رقم 428؛ وخ. ع بالرباط 420 د؛ وخ. ع بمراكش، رقم 80، 473؛ وخ. ح بالرباط رقم 4468 و4875.

(271) «ب»: بمصر.

بومَحَلّي[272] ، وكان رجل من العلماء[273] - رحمه الله - الشيخ سالم السنهوري[274] المصري - رحمه الله - ، وأيضاً لكل من يريد من الفقهاء والعلماء أن يجاوب عليه . والسؤالات[275] في شأن طابة المسماة بالدخان ، والعفيون ، والمسكرات ، والمخدرات[276] . وذكر في عشبة الدخان أنها حلال لذاتها في كتابه[277] . وقال إنه في الحين الذي ختمه سمع الأذان للصلوات ، وفرح بذلك ، واستبشر بخير ، وكذلك فرحت حين سمعت التكبير بعد أن كتبت آخر حرف من الكتاب .

وكنت قد رأيت في النوم فقيه زمانه بالمغرب ، قاضي المسلمين بمدينة مراكش في زمان السلطان مولاي أحمد الشريف الحسني ، وأيضاً في زمان مولاي زيدان السلطان - رحمهم الله جميعاً - فقال لي القاضي[278] أبو عبد الله الرجراجي ، ومعه محمد

---

(272) انظر ترجمته في كتابه إصليت الخريت ، في قطع بلعوم العفريت النفريت ، مخطوط خ . ح بالرباط ، عدد 100 .

ملاحظة : أخطأ الشهاب الحجري حينما سماه محمداً ، إذ إن اسمه أحمد ، كما هو معروف . والسؤال المشار إليه في النص يتعلق باستعمال التبغ ، إذ أن إحمد بن أبي محلي كان من المدمنين على التدخين يرى حليته ويناقش آراء القائلين بالتحريم .

انظر م . حجي ، الحركة ، 1 : 247 .

(273) «ب» : رجل من أكابر العلماء .

(274) أفتى الشيخ سالم السنهوري (ت . 1015/ 1606) ، إمام المالكية بمصر ، بتحريم الدخان ، فبعث له ابن أبي محلي بكتيب سماه الحكاية الأدبية والرسالة الطلبية مع الإشارة الشجرية (الإصليت ، ورقة 93 - 100) .

(275) «ب» : والسؤال .

(276) «ب» : والمخضرات .

(277) يقصد كتابه : «اللمغ في الإشارة إلى حكم طبغ» .

أثبته ابن أبي محلي في الإصليت ، 136 ظ - 145 ، بتصرف ، وتوجد نسخة مستقلة مخطوطة بمكتبة تمكروت رقم 2999 في 17 ورقة .

(278) «ب» : وقال القاضي الذي رأيت في النوم أبو عبد الله .

بن يوسف[279] الأستاذ الشهير في قراءة القرآن ، وقال : لماذا أنت مشغول؟ قلت : أؤلف كتاباً وبحلف ، قال لي : مبارك . ومقلوب اسم حلف فهو فلح[280] ، وفي ليلة أخرى قبل أن ختمته بنحو العشرين يوماً قيل لي في النوم إذا تتم الكتاب يكون الذهب ويوم السبت التالي ليوم الجمعة التي ختمته فيها كان كما قيل لي[281] . نسأل الله العظيم أن يجعله نافعاً مقبولاً منه ومن المسلمين ،ناصراً لدين رب العالمين . وإن قال قائل لو كتمت ما ذكرت في الباب الأخرى لكان خيراً من ذكره ، فأقول : لما ألفت الكتاب في الرد على النصارى واليهود من كتبهم ، ذكرت في الباب ما اتفق لعبد من الأمة المحمدية وأنا من المذنبين منهم ما لا يتفق أبداً بعد النبي محمد ﷺ لنصراني ولا ليهودي . وانظر ما يقع لأولياء الله تعالى الصالحين . وقد ذكر الولي عبد الوهاب الشعراوي بمصر في كتابه المسمى بكتاب المنن عجايباً وغرايباً حتى ذكر أن مما من الله تعالى عليه أنه لا ينام من أربع وعشرين ساعة التي في الليل والنهار إلا ثلاث ساعات فقط . وقال بعض المفسرين للقرآن العزيز في معنى قوله تعالى : ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ ، إن ذكر نعمه تعالى هو من الشكر له عليها . وقد ذكر لي بمراكش العلامة الفقيه النبيه ، الخير ، قاضي المسلمين ، سيدي عيسى بن عبد الرحمان السكتي[282] : «إنه من الجهاد الرد على الكفار ما يقولونه من الباطل في

---

(279) يقصد محمد بن يوسف الترغي (ت . 1009 هـ/ 1600 ـ 1601 م) .

انظر ترجمته عند : م .حجي ، الحركة ، 2 : 380 ، والمصادر بالهامش 15 من نفس الصفحة .

(280) زيادة في «ب» : وفهمت أنه رضي بالكتاب لأجل ما قال لي قبل أن مشيت إلى بلد النصارى وذلك أنه سألني في أمر الأندلس الجدود قلت السلطان نصره الله أذن لهم أن يعينوا من يمشي لبلد النصارى وهم يقولون أن القايد إبراهيم القلعي الأندلسي يمشي أو أنا قال لي ما يليق يمشي القلعي لأنه عامي والقسيسون النصارى يشككونه في دينه ، ما يليق يمشي إلا أنت . واتفقوا جميعاً أن نمشي ومشيت والمشية كانت بسبب الكتاب .

(281)زيادة «ب» : فتح الله تعالى مسئلة من فضله أن يجعله نافعاً . . .

(282) يقصد السكتاني .

انظر ترجمته عند م . حجي ، الحركة ، 2 : 391 ، والمصادر بالهامش 45 من نفس الصفحة .

الأديان» .

والحمد لله ، والشكر له على ما جاهدنا معهم . نسأل الله العظيم أن يكون هذا الكتاب السيف الأشهر ، على كل من كفر . وبرهانه يظهر ، يا الله ، يا واحد ، يا هادي ، يا وهاب ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً أبداً دايماً إلى يوم الدين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

واعلم ـ رحمك الله ـ أن هذا الكتاب ذكرت فيه أني قرأته بمصر المحروسة بالله على العلامة الشيخ سيدي علي الأجهوري المالكي ، وإني بعد أن جئت إل مدينة تونس ـ حرسها الله وجدت فيها الكتاب الذي كتب الشيخ الفقيه الأكيحل الأندلسي ، كان في مدينة غرناطة ، شيخ الترجمة بالإجازة ، وقرأت عليه هنالك ، وعرفت خطه العجمي والعربي . وبعد أن توفي رحمه الله تعالى بقي الكتاب بيد الفقيه يوسف فلب الأندلسي ، وأتى به إلى مدينة تونس ، ومات فيها ، وبقي الكتاب بيد واحد من إخواننا الأندلس ، وكتمه عن غيره ، لأن بعض الأندلس من أهل العلم كانوا يطلبون عليه ، وأنا كنت نتمنى قراءته فأعطاه لي الذي كان بيده ـ جزاه الله تعالى عني خيراً كثيراً ـ حتى توفيت[283] النظر فيه ، وزدت منه في كتابي ناصر الدين في الباب الأول عقيدة تصفيون ابن العطار في التوحيد ، وبعض المسائل مما ذكرت على الكتب التي وجدت تحت الأرض ، مكتوبة بالعربية من عهد الصالحة مريم على أمرها . وأيضاً وجدت في تونس كتاباً كبيراً مكتوباً بالقالب بالعجمية مترجم من بَالِرَا الاشبيلي[284] مثل الذي قرأت بفرنصه ، فيه جميع كتب التوراية والزبور والإنجيل . وزدت منه في كتابي قصت بخت نصر ، وما فسر النبي دانيال عليه السلام وغير ذلك . زدت من التوراية في الباب العاشر . وأيضا كتبت في الكتاب ترجمة البراة التي كتب سلطان إشبانية ـ وهي بلاد الأندلس ـ وأمر بخروج المسلمين

---

(283) «ب» : استوفيت .

(284) يقصد Cipriano de Valera البروتستانتي ، وكتابه :

Los dos tratados del papa y de ka Missa, publiée par Louis Usoz y Rio (20 tomes), Madrid, 1851.

الأندلس منها ، وذكر الأسباب التي حملته على إخراجهم . جاءت نسخة من البراءة إلى مراكش وترجمتها للسلطان مولاي زيدان ـ رحمه الله ـ والترجمت[285] في آخر الباب الحادي عشر من الكتاب . في الباب الثاني عشر ذكرت براة الراهب ، وما جوبته فيها ، والفتوة التي استفتيته في دينه لما علمت من سوء اعتقادهم ، وكان في مراكش . والباب الثالث عشر ذكرت الشمسية من الذهب التي وجدت في بيتي . وما ذكر سيدي أحمد باب السوداني في ذكر الله أكبر عند تمام الكتاب ،

انتهى.

والحمد لله رب العالمين[286] .

---

(285) «ب» : الترجمة .

(286)هناك إضافة في «ب» :

وبما كتبت في مصر في الكتاب الذي ألفته المسمى رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب أن النصراني المسمى بابرت الذي كان يقرأ بالعربية في مدينة بريش العظيمة التي فيها دار الملك الفرنجي قال لي عندنا في هذه المدينة رجل لبيب وعاقل مقبول من الجميع حتى إذا عمل أحد شعراً ما يظهره للناس حتى يعرضه عليه فإذا أذن له يظهره وإلا يتركه فمشينا عنده ومن عادة الفرنصيين إذا يرد عليهم رجل غريب ممن يثنى عليه يقولون له أن يحكي لهم حكاية وكان ابرت الذي مشيت معه سمع مني بعض الحكايات ومشينا عند الرجل الذي ذكرنا وبعد أن قبل علينا بحسن القبول والأدب وكان يعرف اللسان العجمي الذي يتكلمون به ببلد الأندلس وقال إنه جلس في أخبار مدوننا والفرنجيون يعظمون كثيراً لمن جال في الدنيا ورى بلده كثيرة وقال لي الرجل احك لي حكاية فقال لي ابرت الذي حملني إلى عنده أن أحكي حكاية اسقوا الأندلسي ولما رأيت أنه لابد من ذلك لما جرت به العادة عندهم قلت فيما مضى جاء رجل أندلسي اسمه اسقوا إلى مدينة غرناطة يحمل حطباً على دابته وساق معه وعاء ليشتري من دراهم الحطب زيتاً فلما دخل المدينة التقى بخديم من دار السلطان وقال لي هذا الحطب للبيع قال نعم قال له بكم قال بكذا من الدراهم قال لي أجي معي نخلصك ==

تابع هامش(286)

== فمشينا معه إلى باب دار السلطان ونزل الحطب ودخلها الخديم وبقي الرجل ينتظر الدراهم ولما تعطل عليه غَوْبَسَ وعَيَّطَ وأراد الدخول إلى دار السلطان قبضه البواب وضربه فأخذ الرجل حماره وحباله ومشا إلى دكان فيه الزيت فمد له الوعاء وقال لصاحب الدكان عمر هذا بالزيت فصنع ذلك ، وقال له اعطني كذا من دراهم حق الزيت فطلع إلى الدكان وقبض الزيات وضربه ضرباً شديداً في جسده فقام الزيات بالعياط واجتمع الناس وقبضوا الحطاب ومشوا به لمن يحكم فيه وهو يقول بالعياك أنا بالله وبالسلطان فوصل الخبر للملك وأمر بإحضاره والناس معه للشهادة عليه والزيات يشتكي وشهدوا بما رأوا من الضرب قال له السلطان : تجوز ولا يقدر أحد أن يردها قال أنا يا مولاي جبت حمل حطب واشتراه مني خديمكم وبعد أن دخل الحطب إلى الدار طلبت الدراهم وضربوني في جسدي وقلت هذا صرف السلطان وسِكته به إن شاء الله نشري الزيت ، ولما أعطاه لي طلب الاخلاص فخلصته بِسِكَّةِ السلطان التي قبضت في الحطب فضحك السلطان وقال له ما اسمك قال اسمي اسقوا قال له أين ساكن قال في البلد الفلاني قال له ارحل بأولادك تسكن في مدينتي وتلزم هذه الدار من جملة خدامنا فامتثل الأمر وكان يشرح السلطان ويطول الكلام فيما حكى عنه بعد ذلك .

ولما فرغت مما ذكر فرح الكاتب وقال ابرت بكلام الفرنج أنه استحسن ما سمع وبعد ذلك بأيام جاء عنده رجل من أصحابه ، وقال لي الكاتب احك لنا الحكاية التي ذكرت لأن صاحبنا هذا يعرف كلام بلدكم العجمي واشرح هو وصاحبه حيث ذكرت الحكاية ؛ انتهى .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وسيد الأولين والآخرين والحمد لله رب العالمين اللهم اغفر لكاتبه ولمن كتبه إليه ولوالدين ولجميع المسلمين ولا تحاسبنا يا مولانا بما فعلنا وما أسررنا وما أعلنا وأنت أعلم به منا يا أرحم الراحمين يا رب العالمين .

ملاحظة : وردت بعد هذا بخط مغاير ودقيق كتابة لا علاقة لها بموضوع الكتاب ، وقد آثرنا حذفها .

ملاحق الكتاب

ملحق (1)

ترجمة كتاب «مواهب الثواب»

بسم الله الرحمان الرحيم [و] صلى الله على سيدنا ومولانا محمد و[على] ءاله وصحبه ، وسلم تسليما .

يقول العبد الفقير أحمد بن قاسم الأندلسي مؤلف الكتاب المسمى ب ناصر الدين على القوم الكافرين ، بعد الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد و[على] وصحبه ، التابعين له في الدين .

أما الكتب التي ذكرنا أنها وجدت في خندق الجنة بقرب غرناطة تحت الأرض ، فباشرت بيدي بعض ورقها ، وقراءتها ، وترجمتها . فكانت كل ورقة قدر كف اليد مستديرة من رصاص ، وبعضها أصغر منقوشة على خطوط مثل هذا : بسم الله الرحمان الرحيم ، ومثل الخاتم الذي كتبنا في الباب الأول . ثم إني طالعت في تونس كتاب الاكيحل الأندلسي - رحمه الله - ، وقال : إن جميع الكتب كانت اثنين وعشرين كتاباً ، وأن الصالحة مريم - عليها السلام - نزل عليها جبريل عليه السلام بسبعة ألواح من الزبرجد الأخضر ، وقال لها : أن تكتب نسخة منها بيدها ، وتبعثها مع سائر الكتب التي كتب الحواريون بعد أن عرج سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء ، إلى بلاد إشبانية وهي بلاد الأندلس - ، فكتبت نسخة من الكتاب ، وهو المسمى بحقيقة الإنجيل الذي تقدم الكلام عليه في هذا الكتاب عند الخاتم . فكتبت نسخة من الكتاب ، وهو المسمى بحقيقة الإنجيل ، وبعثها مع سائر الكتب مع جماعة من الحواريين ، وهم : شَنْتَاغُ ، وتَصَفْيُون ، وأخوه سِسِلْيُوه الذي كتب الرق الذي تكلمنا عليه ، وهما اللذان كتبا الكتب ، وكانوا عرب ، وخمسة من الحواريين معهم ، وجميعهم أحرقهم المجوس الروم في الغار الذي وجدوا الكتب ، كل واحد بستر من رصاص في قلب حجر معقود عليه ، بعد ألف وست مائة سنة . وورق كتاب حقيقة الإنجيل أغلظ من سائر ورق الكتب ، في غلظ ريال كبير وأغلظ . وفيه سر للكتب ،

لأن بعد قراءته ، تكون الناس على دين واحد ، انتهى .

انظر هل يكون ذلك في زمن الفاطمي لأنه صح عن النبي ﷺ أنه قال : «يملأ الدنيا قسطاً وعدلاً كما يجدها ملأ جوراً وظلماً» .

وكتبتُ نسخة من كتاب مواهب الثواب . وهو من جملة الكتب التي ساق من غرناطة لتونس الفقيه يوسف فلب الأندلسي المذكور ـ رحمه الله ـ . وهي هذه النسخة :

بسم الله الرحمان الرحيم [و] وصلى الله علي سيدنا ومولانا محمد [على] ءاله وصحبه وسلم تسليما .

نسخة من أحد الكتب التي وجدت تحت الأرض في خندق الجنة بقرب غرناطة ، مكتوبة في ورق الرصاص من عهد الصالحة مريم ـ عليها السلام ـ بعد أن عرج سيدنا عيسى عليه السلام ، المسمى بكتاب مواهب الثواب ، واللعنة بعكسها للمعاكسين إليها . فيه ثمان مسائل لِيَدْرُهْ مع جمهور الحواريين للصالحة العذرة مريم ، وجوابها إليه . لم يقدر أحد على فهم معاني تواريخ الحقيقة ، تما[287] دونه ، ليعقوب ابن شامخ الحوري عاقبة الدين . مكتوب على يدي تلميذه وكاتبه تصفون ابن العطار الأعربي ، قال يعقوب الحوري : جماعة جمهورنا الحواريين الإثنى عشر كنا مع الصالحة مريم في بيتها بعد نزول حقيقة الإنجيل عليها ، ووصفها للأمر فيه إلينا ، فخاطبتنا بقول قد أسحرت به عقولنا ، وطابت أنفسنا ، وسكنت قلوبنا ، وخشعت لما يجب الخشوع إليه من أحسن الذكر ، والعمل الصالح ، والطاعة لله . ثم خطبتنا بأسرار عظيمة لم يجب ذكرها في كتابي هذا ، ولكن أقول إن خطابها يوقف الملائكة في السماء والإنس في الثرى ، تعظيماً لله ، ووعظاً ، ومعجزة منه للسامعين . وما رأيت أبداً أطيب نفساً من نفسها ، ولا أفصح لساناً من لسانها ، ولا أكبر علماً من علمها بعد سيدنا يصوع . وذلك الوصف كله كان في خواص حقيقة الإنجيل العزيز ، شكر لله على تلك النعم . وأطلب من مجدك وفضلك أن تقصص علينا ثمانية مسائل في مواهب ثوابها ، وعن المتوكلين للأمر بها ، التابعين إليها بالإيمان ، وعن

(287) كذا بالأصل ، ولعلها «كما» .

ثوابهم الموصوفين في وصفك بالتوريخ للعباد في آخر الزمن ، وما يبتغي بالعكس للمعاكسين إليها من اللعنة والعقاب ، ليكتب جمهورنا والعباد من بعدنا في آخر الزمن ، فقالت : يا يدره ، صف أولاً منهن؟ قال : أخبرنا عن حقيقة الإنجيل ، وعن ثوابه يا مولاتنا . فقالت : حقيقة الإنجيل هي روح الإنجيل ، هي كنز من كنوز العرش ، فلاح للمؤمنين ، آمين . عبد يؤمن حق الإيمان بإخلاص ونية لم يخالطهما شيء من الشك ، ومات على ذلك ألا يكتب الله له براءة من النار ، ويغفر له جميع ذنوبه ، ولو كانت لم تحص في العدد . وما من عبد مؤمن يأتي لها على علم بعد شرحها للعباد يرجعه الله في الجنة درجة عالية . والعامل بالعكس لا شفاعة فيه ، يلعنه الله وملائكته ألف مرة في كل يوم ، وهو تحت سخط الله ، ويخلده في نار جهنم إلا أن يرجع من ذلك كله حق الرجوع لله .

ثم قالت : يا يدره ، صف لي الثانية؟ قال أخبرنا عن فضل العرب أنصار الدين في آخر الزمن ، وعن ثوابهم ، وعن فضل لسانهم على الألسن ، يا مولاتنا ، فقالت : العرب أنصار الدين في آخر الزمن ، وفضل لسانهم على الألسن مثل فضل الشمس على دراري السماء ، اختارهم الله لذلك الأمر ، وأيدهم بنصره[288] وفضل المؤمنين عند الله كبير ، وثوابهم جسيم . فما من عبد مومن يدعو لهم بالنصر والتأييد ، بعد أن شهر الله حقيقة الإنجيل في الموضوع المقدس الذي يرى فيه ، إلا وينصره الله النصر المبين ، ويكتبه الله حقاً عبده تابعاً لمرضيته ، ومنيباً لنصر دينه الرشيد ، ومن يردهم لسوء يلعنه الله وملائكته ألف مرة في كل يوم وهو تحت سخطه إلا أن يرجع عن ذلك كله حق الرجوع لله . ثم قالت : صف الثالثة يايدره ، قال أخبر عن صالح الفقه الذي يشهر الله الحقيقة على يديه ، وعن ثوابه ، يا مولاتنا ، فقالت : إنما صالح الفقه حقاً المؤمنون بما وضع الله في الوجود من كلماته التامة بالإنجيل العزيز على فيه روح يصوع بالحقيقة روحه من بعده ما دون الشكوك ، والظن وذلك جمهور المسجد المؤمن الصالح العالم المنور بنور الإيمان والرحمة والخليفة اليصعية الموكلة عليه بقدرة النهاية ، والأمر

---

(288) كتب في الطرة : انظر هذا الفضل الذي ذكر للعرب ، إنهم أنصار دين الله وفضل لسانهم على سائر الألسن ، وإن الله فضلهم واختارهم .

والحل والربط لأنها الحقيقة برنامج حقها ونورها فلاح للمؤمنين ، لا نور لهم دونها ، ولا لأحد من العالمين ، ما من عبد يؤمن بذلك كله حق الإيمان بنية وإخلاص لطاعة الله لم يخلطها شيء من الشك ، ويحث نفسه على تسهيل الأمر بالحقيقة للمجتمع الأكبر بجزيرة السبر بمشارق البندقية ، وشرحها يدخل بها في دين الله إلا ويكتب عبده صالح الفقه حقاً ، وعصبة متصلة من ذلك الجمهور ، وصلوحيته ، ويسيل سلسلة ربقته في عنقه ، وينظرها بعين عنايتها ، وكفله بكنف رحمته ، وأن ينفق الأمر درهماً طيباً من ماله في سبيل الله ، يغفر الله له جميع ذنوبه ويحشره تحت رضائه ويعطيه في الجنة أجر المصدقة التي بنت مسجد نبي الله سليمان ابن داوود ، لأنه معيناً استبناء المسجد للمؤمنين بالله واليوم الآخر بذلك الصدقة المقبولة منه . وبالعكس ما من عبد يصل توريخها بيده وخواص الأمر بها في علمها ، ويشك فيها ويريد طول الأمل بها ويرضى بكتمانها وكتمان توريخها وكتاب هذا أدنى حيناً من الدهر من ذلك الجمهور ومن الخليفة اليصعية ومن العرب الأنصار ومن الناصر الساكن في المشرق ، ومن ملوك الأرض ومن عباد الله ليتبعوا موذيته ولينالوا من الثواب الحقيقة الموهوبة لهم ومن فضله إلا ويرفضه من ذلك الجمهور ، وصلوحيته ، ويقطع من عصابته ، ويخلع سلسلة ربقته من عنقه ، ويكتب في غيبه عدوله معاكساً لمرضيته ويلعنه الله وملائكته ألف لعنة تلزم في الحين بكل من يبلغ قول هذا ، وتوريخ الأمر بالحقيقة عنده ، كان من كان ، ويجعله كمشكوة دون مصباح ، ويقعده في نار جهنم ملموماً مدحوراً خالداً في عذابها ما دام ملكه ، إلا أن يرجع من ذلك كله حق الرجوع إلى الله ، ويغفر عنه . ثم قالت : صف لي الرابعة يا يدره ، قال : أخبرنا عن الناصر الساكن في المشرق ، وعن ثوابه ، يا مولاتنا ، فقالت : الناصر ملك من ملوك العرب ، وليس بأعربي ساكن في المشرق بأرض الانانيين عدواً بالغاً لله جناس العجم وللتهم ومذهبهم واختلافهم في الدين . يكون له نمائة جميلة لطاعة الله ، ولنصر دينه الرشيد ، أيده الله بنصره ، وألقى نصر حقيقة الإنجيل العزيز في حكمه ، ويوقف لواء الدين بيده ، وأيده بالنصر والتمكين في الوجود على سائر الأجناس في ذلك الزمن ، وله نور وعلم لطاعته في ذلك الأمر ، وهو في غفلة من قول هذا إلى وقة يبلغ الأمر بالحقيقة الكفولة عنده ، وذلك كله سابقة في سابق علم الله سبحانه ليهب فضله

من شاء ، حاش أن يكون في ملكه ما لا يريد إلا مسترضى لأمره له عند الله ثواب كبير ودرجة عالية ، فما من عبد مؤمن بالله بالنصر والتأييد ويعينه بنفسه أو ماله لذلك الأمر ومات على ذلك ألا يغفر الله له جميع ذنوبه ويعطيه في أجر الشهداء الذين سيتشهدون على الدين . ومن يأته بالعكس يلعنه الله وملائكته ألف مرة في كل يوم ، ويرفضه من رحمته ، إلا أن يرجع عن ذلك كله . ثم قالت صف لي الخامسة ، يدره ، قال : أخبرني عن المتألفين قلوبهم للمجتمع الأكبر ، وعن ثوابهم يا مولاتنا ، فقالت إنما المتألفين قلوبهم المجتمع الأكبر الذين تميل وتخشع قلوبهم لله واستيذانهم إلى الإنجيل العزيز ، ولحقيقته وللمؤمنين بما تجمع إليه الحقيقة كانوا من جميع الأجناس ، وأيضاً الذين يهبون الصدقة ، ويحثون نفوسهم والعباد إلى الحضور فيه بقدر الاستطاع عليه وبالنية . فما من عبد من عباد الله يفعل به ، ويهب نيته وصدقته الطيبة إليها بنية وإخلاص في سبيل الله لذلك الأمر ومات على الإيمان إلا ويغفر الله له جميع ذنوبه ، ولو كانت لم تحص في العدد ، ويكتبه من المتألفين قلوبهم إليه ، وإن حضر فيه ويومن بالمجموع عليه إلا ويكتب الله له براءة من النار ، ويعطيه أجر الشهداء المستشهدين على الدين . والمعاكس لذلك والمانع للعباد من الحضور فيه لا شك في خلوده في نار جهنم وعذابه الأكبر ، إلا أن يرجع من ذلك كله حق الرجوع لله ثم قالت : صف لي السادسة : يدره ، قال : أخبرنا عن المترجمين المفسرين وعلى ثوابهم ، ومولاتنا ، فقالت : المترجمون حقاً مترجمون الكتب الذي بحقيقة الإنجيل بعد شرحها للعباد في المجتمع الأكبر . يبعثهم في ذلك الزمن مصابيح أجناس الوجود ، يتلألؤون نوراً العلم والفقه الموهوب ، ويدخلون في أرض السبر ، يزيدهم قوة من فضله في العلم . ولغة الألسن للترجمة المذكورة ، والتفسير ، ليستفهموا بعض من بعض ، وقولهم في القوام لشرح دينه الرشيد ، والاستفهام فيه لسعته . ولكن يكون عندهم قليل ثم قليل بين الأجناس لبرهان معجزة الله في العالمين ، وراسهم أضعف خلقه شارح الحقيقة طايعاً لله ولخليفته المسجد المؤمن بالله واليوم الآخر ومؤمناً بذلك الإيمان وعصابة متصلة من جمهوره يبعثه الله في ذلك الزمن بنور العلم والفقه والرحمة لذلك الأمر كما وصفت لكم ، وكلهم ألقاهم الله في كفالة الملوك والمتربين ، والله يحب أهل العلم الصالحين ، ويكره أهل الفسق الجاهلين .

وجزاء المومنين منهم عند الله كبير ، وثوابهم جسيم ، ولهم درجة عالية في الجنة .

وما من ملك ، أو مترف ، أو عبد من عباد الله المؤمنين يحسن إليهم ، ويهيئ أمورهم للمجموع الأكبر المذكور وشرح الحقيقة إلا يغفر له جميع ذنوبه ، ويكتبه عنده من الشهداء الذين سيتشهدون على الدين ، ويرفع لهم بكل درهم طيب ينفق لذلك الأمر من ماله درجة في الجنة . ومن يردهم بسوء أو معاكسة يلعنه الله وملائكته ألف مرة في كل يوم ، ويرفضه من رحمته ، إلا أن يرجع عن ذلك كله حق الرجوع لله . ثم قالت : صف السابعة ، يدره ، قال : أخبرنا عن أضعف خلق الله شارح حقيقة الإنجيل في المجتمع الأكبر وعن ثوابه ، يا مولاتنا ، فقالت الله يخص برحمته تأويل العلم من يشاء من عباده ، وذلك العبد من المخصوصين المكتوبين في علم غيبه مواهبه ومننه عليه كبيرة ، ورحمته ومعجزته ظاهرة فيه للعباد المخلصين الذين يشاء الله يطالعهم عليه من فضله . ولكن يكون عددهم قليل في العالمين ، عنصره طيب ، زكي ، أعرابي ، لأن النصر لا ينبغي لغير العرب . والناصر في ذلك الزمن هو مظهر من جميع العلوم كما كان ابني يصوع ، ولا يعدم فهم جواب السائلين منور بنور الإحسان والرحمة ، خالص النية ، وله علم كثير موهوب من الله ليس يوصف به بين العباد ، له نشية معتدلة ، وبشاشة في وجهه مشتملة ، وفصاحة في اللسان بلفظ نصير وعلم كثير وإتقان ، يبعثه الله في تكبيره . . . .(289) لسيد الأرض ، وفيها يعلمه الذكر ليكون أضعف خلقه في الوجود ، ويضع تهام الضالين والمرتدين الفاسقين المنافقين المختلفين من جميع الأجناس بالإنجيل العزيز ، وبالحقيقة بالشهود ، المنقوب من مرتب منزلة الصبر صبوراً على ذا الفقر والآفاق ، رافض الفخر والكبر ، ويكون له إنبات الاهفة كبيرة لتعظيم الأجر ، وطاعة لله ، مجتنباً من المحارم والعيوب ، صادق القول والوعد ، حافظ الأمان والميمنة ، خالق المسيرة ، لم يغفل عن ذكر الله ، وخشيته بقلبه ، وتذكره طرفة عين ، وأن تلحقه معصية يسبقها بالندم ، ويرتجي من الله العفو والغفران ، وثوابه عند الله كبير ، وأجره جسيم على قدر نيته وإيمانه وعلمه وطاعته إليه ، ويزيده من فضله أن الله لا يضيع أجر المحسنين . يهب الله له شرح حقيقة

---

(289) بياض بالأصل .

الإنجيل العزيز المقفولة ، وألقى عملها وفهمه ، وشرحها في محفوظه ونور قلبه بإيمانه . وذلك سابقة في علم غيبه ، شارح الحقيقة إذا يشاء الله يشرحها في ذلك المجتمع لطاعته ولا بنظارة العباد . ولكن الله ينبيهم بالحقيقة وألقى فيهما من كل حكمة ما يليق بذلك المقام ما دون اختلاف وينذر عباده بها إلى يوم كان وعده مفعولاً تعيي العقول فيه . ما من عبد مومن يدعى إليه يقول : اللهم رب احرس بعين عنايتك لأضعف خلقك شارح حقيقة الإنجيل العزيز في المجتمع الأكبر وهي أمره إليه ، واجعلني بما أشرح فيها من الحق مؤمناً ويسّر عليّ حفظها وعامل بما أمرت فيها من الحق مؤمناً ، وفي الإنجيل العزيز من الطاعة . . .[290] إنك على كل شيء قدير إلا وينظره الله بعين رحمته ، ويحرسه من جميع الآفات . ومن يرده بالعكس يلعنه الله وملائكته ألف مرة في كل يوم إلا أن يرجع من ذلك كله حق الرجوع لله . ثم قالت . صف الثامنة ، يدره ، قال : أخبرنا عن بركة الموضع الذي يرام الحقيقة عن ثواب زيارة العباد ، يا مولاتنا ، قالت : دليل على بركة الموضع المقدس الذي ترامى الحقيقة والكتب فيه اخترته لذلك الأمر وكتبت بذلك فما من عبد مؤمن طاهر نقي يزوره بنية وإخلاص ، لم يخلط شيء في أن الإنجيل العزيز ، وفي الحقيقة روحه ، وحق الكتب التي معها ، ويدعى الله بعد إشهارها فيه ، ويقول : اللهم رب آمنت حق الإيمان بكلماتك التامات التي أرسلت بها سيدنا يصوع روحك ، وبحقيقة إنجيلك العزيز الذي شرحت نسختها في ذلك الموضوع المقدس ، والكتاب الثابت الصحيح الذي معها ، أسألك باسمك العظيم الأعظم ، وبمجدك وفضلك ورحمتك على عبادك أن ترفع بها وبه لواء دينك الرشيد على الأديان كلها ، وأن تؤيد بها ، وبه مسجدك المومن المقدس وزكى بجهوده الصالح ، وأن تدخل بها وبه عبادك المؤمنين في كنف رحمتك وأن تهتك بها وبه ستر المعاكسين إليها ، إنك على كل شيء قدير ، إلا ويغفر الله له جميع ذنوبه ولو كانت لم تحص في العدد ، وأن تصدق أن الله يزيد درجته في الجنة على قدر نيته ، وعلى كل درهم طيب أعطاه في ذلك الموضوع لتهينه الأمر المذكور . وأقول لكم إن ذلك في طاعته ، ومرضيته ، وما كان لله حاشا أن يضيع أبداً

---

(290) بياض بالأصل .

لعباده أنه يجزي المحسنين الطايعين إليه ، ولا خوف من الأعداء ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين ، وينزل السكينة على قلوب المؤمنين ، والرحمة على عباده أجمعين ، ليستذانوا لشرح الحقيقة والإيمان بها ، ويهدي من يشاء منهم بفضله العظيم . فلما فرغت من ذلك القول إذا قائلاً بالنداء من قبل الحق يا من له الخليفة الموهوبة ، والقدرة على من سبقت عليه الفضايل ومواهب الثواب الموصوفة على مريم العذرة في جوانب الثمانية مسايل وأوثق كلمة اللعنة والرفاض من جمهور المسجد المؤمن المقدس وصلوحيته على من سبقت عليه الرفض في وصفها وثوابها وفضلاً لا ينفد أبداً ، واللعنة لا ينبغي نقضها لأحد من بعدك حلها إلا بحق الرجوع لله عن المحارم . قال الخليفة : السمع والطاعة لرب العالمين . أشهدكم يا معشر الحواريين بمولاتنا مريم العذرة - وهي وأنتم معها خير الشاهدين - على الحق ، إن أوثق كلمة الإتقان بقدرة الخليفة اليصوعية الذي سبقت عليه كملت إتقان الفضايل ، وثواب المواهب كما وصفتها في جواب المسايل الثمانية ثواباً وفضلاً لا ينفذ أبداً من بعدي ، وأوثق بالعكس كلمة اتقان اللعنة والرفض من جمهور المسجد المؤمن الصالح المقدس ، على من سبقت عليه كلمة اللعنة والرفض في جوابها في الثمانية مسايل المذكورة . . .[291] لا ينبغي نقضها لأحد من بعدي [إلا بحق الرجوع] لله من الحرام . فلما فرغت من ذلك . . .[292] انفتح فرشه الأعلى وخرج منه . . .[293] وكتب على جدول خاتم سليمان . . .[294] في جدار وسطه هذه . . .[295] مضى عن جمهورنا وقد . . . .[296]

(291) بياض بالأصل .

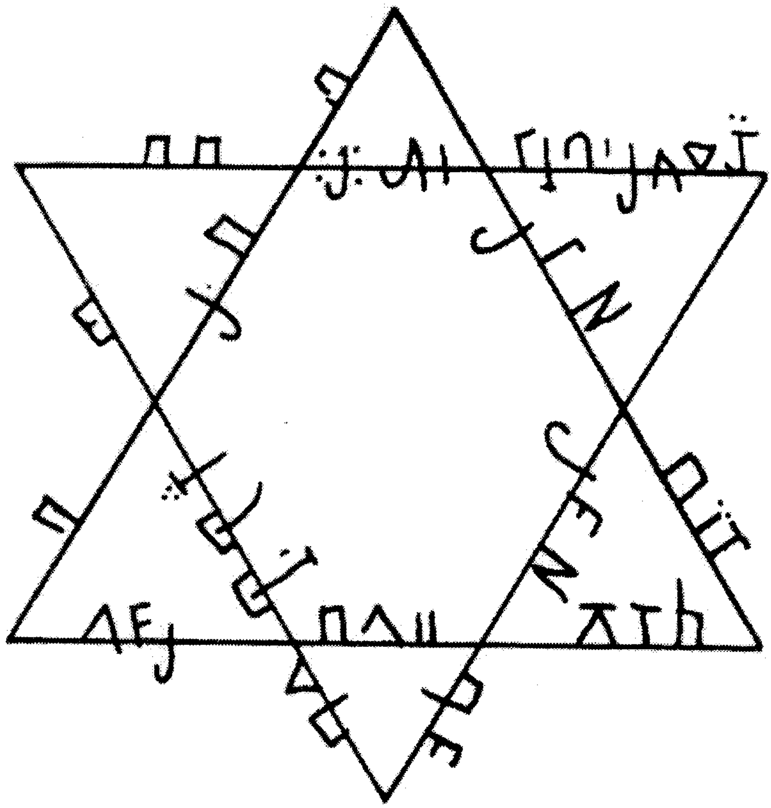
(292) بياض بالأصل .

(293) بياض بالأصل .

(294) بياض بالأصل .

(295) بياض بالأصل .

(296) بياض بالأصل .



فعند ذلك التفتت إلى الصالحة مريم ، وقالت : يا يعقوب! عقيبة الدين ، اسطر الوصف كله ، والكتب . . .[297] الجدول واحفظه مع الحقيقة في الموضع المقدس . . .[298] يأتي الحق والقول الثابت الصحيح لطاعة . . .[299] قولي فيهم ويستفيدوا من فضايل . . .[300] حقيقة الإنجيل الموصوفة في . . .[301] في آخر الزمن .

(297) بياض بالأصل .

(298) بياض بالأصل .

(299) بياض بالأصل .

(300) بياض بالأصل .

(301) بياض بالأصل .

ثم سألها يدره . . .[302] يعني الكتب على جدول . . .[303] بالتقوى ، لا ينبغي في وقت . . .[304] أخره الله لشارح حقيقة . . .[305] آخر الزمن . قال : زدنا على التوريخ إما يكون . . .[306] شهادة لحقيقة ، وما يأتي بعده ، يا [مولاتنا] قالت : إذاً يتعلمون الناس لغير عمل صالح ، ويتولون المقاليد والرتب لغير طاعة الله وليأكلوا عرق العباد بهن ظلماً بغير حق ، ويعتمدون على حيالهم لا على الله ، ويكون عيش النسا في كبر واتباع الرجال بالزنا وقِلَّت الحيا ، ويطغى اللباس من الحرير الأسود ، ويكثر الحديث بالكذب والخداع ، وتتلى على العبد كلمة الله ولم تأثر إليها قلوبهم ، ويرفع الله بركته من الأرض ، ويطغى نور الصالحـ[ـون العا]لمون في المساجد في وقت هذا يشـ[ـهـر . . . الله . . .] والكتب في الموضع المقدس . . .[307] على شرحها في المجتمع . . . .[308] يعود يصوع روح الله . . .[309] المحمود إلى الوجود . . .[310] المسيح الدجال ، والمسيح الدجال دليل في طلوع الشمس من المغرب . كمل الكتاب على يد الأعربي .

---

(302) بياض بالأصل .

(303) بياض بالأصل .

(304) بياض بالأصل .

(305) بياض بالأصل .

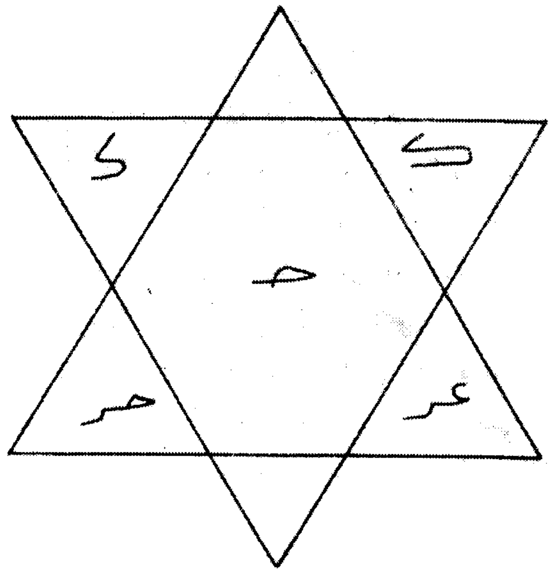
(306) بياض بالأصل .

(307) بياض بالأصل .

(308) بياض بالأصل .

(309) بياض بالأصل .

(310) بياض بالأصل .



أقول الذي قال في كتاب المواهب للثواب عن حقيقة الإنجيل ، فهو ظاهر إنه مخالف للإنجيل الذي بأيديهم الآن ، ولما تعتقده النصارى من الكفر والتثليث في الألوهية ، فيكون موافق . . . (311) وبه أغنى الله تبارك وتعالى . . . (312) الإنجيل ، وعن كتاب حقيقة . . . (313) ونفع كتاب حقيقة . . . (314) الذين قال الله تعالى فيهم . . . (315) اهدنا الصراط المستقيم . . . (316) [وهب لنا] (317) من لدنك رحمة ،

---

(311) بياض بالأصل .

(312) بياض بالأصل .

(313) بياض بالأصل .

(314) بياض بالأصل .

(315) بياض بالأصل .

(316) بياض بالأصل . ونص الآية : ﴿واهدنا الى سواء الصراط﴾ ، (ص :22) .

(317) بياض بالأصل . ونص الآية : ﴿وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب﴾ ، (آل عمران : ٨) .

إنك أنت الوهاب . هذا آخر كلامنا في الكتاب .

تمت هذه النسخة المباركة في اليوم [العشرين] من رجب من سنة إحدى وخمسين و[ألف] على يد المؤلف للكتاب . كتبه بمدينة [تونس] المحروسة بالله .

والحمد لله على توفيقه . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد [ءاله وصحبه] وسلم تسليماً كثيراً أثيراً . و[الحمد] لله رب العالمين .

تمت

ملحق (2)
فهرس مراجع المقدمة

- م . الإفراني ، نزهة ، ص . 99 .
- م . ابن العياشي ، زهر ، 105 ـ 107 .
- م . الكانوني ، جواهر الكمال ، 1 : 87 ـ 93 .
- ع . ابن إبراهيم ، الأعلام ، 2 : 273 ـ 276 رقم 218 .
- م . الفاسي ، الرحالة المغاربة ، مقال بمجلة دعوة الحق ، السنة الثانية ، العدد 3 ، دجنبر 1985 ، ص . 21 ـ 22 .
- م . المنوني ، ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي ، مقال بمجلة دعوة الحق ، السنة العاشرة ، العدد 3 ، يناير 1967 ، ص . 77 ـ 88 .
- مناقشة أصول الديانات في المغرب الوسيط والحديث ، مقال بمجلة البحث العلمي ، العدد 13 ، يناير/ دجنبر 1968 ، صص . 23 ـ 32 .
- م . حجي ، الحركة ، 2 : 403 .
- أحمد الشهاب الحجري ، ناصر الدين على القوم الكافرين ، مواضع متفرقة .
- خاتمة ترجمته لكتاب العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع .
- محمد حجي ، مادة أفوقاي ، معلمة المغرب ، 2 : 566 ـ 567 .
- عبد المجيد القدوري ، سفراء مغاربة في أوروبا ، ص . 15 ـ 21 .
- محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17 ، ص . 278 ـ 283 .
- عبد السلام حيمر ، صورة الآخر من خلال تقارير الرحلات السفارية المغربية إلى أوروبا ، مجلة بصمات ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك ، الدار البيضاء ، العدد 15 ، ص . 134 ، 138 .
- عبد الفتاح الحجمري ، المغرب والغرب ، مقال بمجلة المناهل ، العددان 55 ـ 67 ، 2002 ، ص . 430 ـ 434 .
- عبد الرحيم عدناوي ، تقديم لكتاب ناصر الدين على القوم الكافرين ، مجلة أبحاث ، العدد 27 ، 1991 ، ص . 103 ـ 111 .

- Clelia Sarnelli Cerqua:

l "Al Hagari in Andalusia " in studi Maghrebini III, Napoli, 1968, pp. 1-43.

l "La Fuga in MAROCCO Di As-shihab AHMED AL Hagari Al- Andalusi" in studi Maghrebini I, Napoli, 1966, pp. 215-229.

l "Lo scrittore Ispano-Marocchino, Al-Hagari El il Suo Kitab Nasir AD-DIN " Estratto dagli Atti del III congresso de studi Arabi e Islamica (Ravello 1966), Napoli, 1967, pp. 595-614.

- Juan Penella:

Introduction au manuscrit. D. 565 de la Biblithèque universitaire de Bologne, in Etude sur les moricos andalous, en tunisie, Tunis,1973, pp. 258-263.

- L. P. Harvey:

l "The morisco who was Muley zaidan's Spanish interpreter: Ahmed ben Qasim Ibn al Fakih Qasim ", al-shaikah Al Hagari Al Andalusi ", in MiscelJnea de Estudios Arabes y Hebraicas, Granada, t. VIII, 1959, pp. 67-97.

l Dario Cabanelas Rodriguez:

El Morisco granadino Alonso del Castillo, Granada, 1965.

l Mikel de Epalza:

le Milieu Hispano-moresque de l'evangile islamisant de Barnabé (XVIè-XVII siècle) in Islamochristiana, Roma, 1982, n Λ, !pp. 160-183.

l Koningsveld, P.S. Van, Q. AL-Samarrai, and Wiegers, G.A., Kitab Nasir AL-Din Ala L'QAwm AL-Kafirin, Madrid, 1997.

- WIEGERS, G.A., A Learned Muslim Acquaintance of Erpenius and Golius. AHMED b Kâsim al-Andalusî and Arabic Studies in the Netherlands. Leiden, 1988.

- WIEGERS, G.A., "A life between Europe and the Maghrib: the writings and travels of Ahmed b. Qâsim al-Hajarî al-Andalusî (born ca. 977/1569-70) ", The Middle East and Europe: Encounters and Exchanges (= Orientations. Yearbook of the Dutch association for Middle Eastern and Islamic Studies, ed. G.J. Van Gelder and E. de Moor, Vol. 1), Amsterdam, Atlanta, 1993, pp. 87-115.
- WIEGERS, G.A., Islamic Literature in Spanish and Aljamiado: YÇa of Segovia (fl. 1450), his Antecedents and Successors. Leiden, 1994.
- WIEGERS, G.A., " Muhammad as the Messiah: A Comparison of the Polemical Works of Juan Alonso with the Gospel of Barnabas, Bibliotheca Orientalis LII, no. 3/4, 1995, 245-291.
- WIEGERS, G.A., " Learned Moriscos and Arabic studies in the Netherlands, 1609-1624 ", in: Romania Arabica. Festschrift für Reinhold Kontzi zum 70. Geburtstag (J. Lüdtke, ed). Tübingen 1996, 405-417.
- WIEGERS, G.A., "The "Old" or "Turpiana" Tower in Granada and its Relics
according to Ahmad b. Qâsim al-Hajarî ", in: Sites et mnuments disparus d'après les témoignages de voyageurs. Res Orientales, V. III (1996), pp. 193-207.

كشاف حضاري وفهارس

الأعلام

أماكن

طوائف وجماعات

كتب

المحتويات